الطبعة الثانية

رئيسي ابني



أو اليوم الذي غيّر مجرى تاريخ ليبيا

تأليف : فريدريك موسكات

ترجمة : محجوب كرداوي



مؤسسة آدم للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

رئيسي ابني

تأليف : فريدريك موسكات

ترجمة : محجوب كرداوي



مؤسسة آدم للنشر والتوزيع

الطبعة الأولي ١٩٧٤
الطبعة الثانية (منقحة) ١٩٨٢

حقوق الطبع والنشر محفوظة لدى : مؤسسة أدم للنشر المحدودة/مالطا

كافة حقوق النشر والطبع محفوظة لدى الناشر ، ولا يجوز إعادة إصدار أي جزء من هذه الطبعة أو ايداعه بغرض الإسترداد أو بثه بأي شكل أو وسيلة ، سواء أكان ذلك عن طريق الوسائل الاكلترونية أو الآلية أو بالنسخ عن طريق التصوير أو التسجيل أو غير ذلك بدون موافقة مسبقة من قبل الناشر — مؤسسة أدم للنشر المحدودة .

٣ قاليتا بيلدينك — ساوث ستريت
قاليثا — مالطا

صورة الغلاف : قائد الثورة معمر القذافي مع والدته



Edam publishing house limited

MALTA OFFICE: 3, Valletta Buildings, South Street, Valletta, Malta. Telephone: 29588

خالد علي بورقيبة

فهرس

حسن يوسف المويشي

تقديـم :

إذ نقدم هذه الطبعة الثانية من كتاب «رئيسي إبني» للكاتب الصحفي فردريك موسكت لتحتل مكانها في المكتبة إلى جانب النسخ الانجليزية والفرنسية والإسبانية والكورية. وقد نقحت بعد إعلان قيام سلطة الشعب وانتقال السلطة والثروة والسلاح ليد الشعب . فإننا نشعر بأنه قد تحقق بعض ما نهدف اليه ، فقد جذبت الطبعة الأولى إهتمام الأعداد الغفيرة ممن أثار إنتباههم عمق عنوان الكتاب وحسن روايته وسحر وقوة موضوعة فأقبلوا عليه يقرأونه ، يناقشونه ثم يعيدون قراءته . . . إن لم يكن مرة فمرات .

وقد يختلف القراء حول ما يرمي اليه الكاتب من هذا العنوان فيرى بعضهم أنه تعبير عما يجيش بصدر أمٍّ أزهاها الفخر ، وملأت الغبطة آفاق روحها ــ شأن كل الأمهات . فقد أصبح إبنها زعيم أمة وقائد وطن .

ويذهب الآخرون مذهباً آخر ، أكثر عمقاً فلا يرون في هذه الأم سوى رمزاً للأم الكبرى . . . ليبيا التي أزاحت عن كاهلها نير الظلم بعد طول معاناة . . . وتخلّصت من حكم العملاء . . . وسيطرة الدخلاء . . . إذ برز من قلب الصحراء أحد ابنائها الأبرار ليفجر الثورة ، ويقود مسيرة الأحرار .

ومن العديدين الذين قرأوا هذا الكتاب قراءة متمعنة ولم يشاءوا أن يخفوا إعجابهم به الصحفي شارلز فلوز الذي كتب يقول في تقديمه له :ــ

« هذه قصة رائعة رواها كاتبها بسلاسة ، وزادها عمقاً بما أورده من تفاصيل وصور تجعل منها عملاً يبز ما عداه . . . لقد أفلح الكاتب في ألاَّ يدع خياله وجرأته الصحفية تؤثران على الوقائع الحقيقية للثورة » .

وتجاوز الكتاب المستوى الفردي إلى الصحف المحلية والعربية والعالمية التي تناولته بالعرض والتعليق بل وأفردت له صفحات بكاملها نكتفي منها في هذا المقام ببعض الفقرات .

فقد ذكرت مجلة الأسبوع العربي في مقال مطول :ـــ

«إن كتاب «رئيسي إبني» هو الأول من نوعه . . . عن الأحداث والأيام التي عاشها قائد ثورة الفاتح من سبتمبر قبل أن تدق الساعة ويبدأ مجموعة من الشباب آمنوا بشعبهم ووطنهم وأمتهم كتابة تاريخ جديد للقومية العربية التي بعثها القائد الراحل جمال عبد الناصر» .

وجاء في صحيفة الفاتح :ـــ

«إن هذا الكتاب الجديد يحكي قصة الثورة العربية الليبية منذ أول خيوطها ، بل ومنذ حداثة عهد قائدها حتى ساعة الصفر بأسلوب مشوق ولكنه واقعي» .

أما صحيفة البلاغ فقد ذهبت في تقديرها للكتاب إلى الحد الذي حملها على أن تنشره في حلقات مسلسلة وتفرد له صفحتين كاملتين في عددها الأسبوعي وتقدم له في أول حلقة قائلة :ـــ

«بأسلوب قصصي أخّاذ وبنظرة واقعية نجح الكاتب في أن يمزج الواقع بالخيال لتجود قريحته بتلك القصة الواقعية عن ثورة الفاتح من سبتمبر التي غيرت مجرى الحياة السياسية والاقتصادية فوق الأرض الليبية وشدت اليها انتباه شعوب الأرض قاطبة . . .» .

وتقول صحيفة «الأريزونت» المالطية :ـــ

«لقد استطاع الكاتب أن يدلنا ليس على كيفية الإعداد للثورة الليبية وحسب . وإنما نقلنا بأسلوب شيق إلى ربوع الصحراء والبيئة الليبية . وصور لنا تصويراً دقيقاً فترة طفولة وشباب العقيد الشاب الذي فجر الثورة الشعبية . لقد أتاح لنا الكاتب فرصة جيدة للإطلاع على ما كان يجري فوق تراب الأرض الليبية» .

وأشارت صحيفة «دي لا سيرا» الإيطالية إلى الكتاب كما نشرت «الكاريبيان تايمز» اللندنية أجزاءً منه .

وفي ضوء هذا الإهتمام المتزايد والإقبال على الكتاب والمطالبة الملحة بترجمته إلى العربية تمت ترجمته ليستفيد منه أكبر عدد ممكن من الناطقين بلغة الضاد يحدونا الأمل في أن يعطي القارئ صورة صادقة لليوم الذي غيّر مجرى التاريخ في ليبيا . . . وما سبق هذا اليوم من إعداد عبر سنوات محفوفة بالمخاطر ، حافلة بالمتاعب ، مليئة بالأشواك ، والعرق . فالكاتب يصحب معه القارئ في جولة

واسعة ، تمتد حقبة زمنية تبدأ بفجر حياة القائد وتنتهي بانبلاج الثورة . . . جولة يشهد خلالها الطبيعة بسحرها ، والشعب بتقاليده وعاداته ، يرى البدو في خيامهم ، والفقراء في أكواخهم ، والأثرياء في قصورهم . . . يرى القواعد الأجنبية وقد اتخذت لها مواقع هامة من الأرض الليبية . . . كل ذلك في تصوير بديع ينبض بالحياة . . . أشبه ما يكون بشريط سينمائي لواقع دولة مرير أثار مشاعر شبابها ودعا الأحرار في ربوعها إلى أن يضعوا رؤسهم فوق أكفهم وينطلقوا ليلة الفاتح العظيمة ليفجروا ثورة بيضاء تركت أصداء واسعة النطاق .

ثم أُصْدرت هذه الطبعة المنقحة بعد مرور أكثر من عقدين من الزمن على اندلاع الشرارة الأولى للثورة الشعبية التي قادها آنذاك الطالب معمر القذافي في سبها عام ١٩٥٨ . ومنذئذ بدأت الثورة خطواتها الحقيقية . . . بداية بإسقاط النظام الملكي ومروراً بمرحلة الجمهورية ثم وصولاً إلى عصر الجماهير وإعلان أول جماهيرية في التاريخ من نفس المكان الذي شهد انبلاج فجرها .

* * * * *

وكان طبيعياً أن يحمل غلاف هذه الطبعة الثانية نفس الصورة التي ظهرت في الطبعة الأولى . . . صورة الأم عائشة التي غمرت إبنها بكل العطف ورعته في كنف بيئة أصيلة ، ثم ظلت تتعهده ، حتى اختارها الله إلى جواره ، هانئة راضية . . . فقد عاشت حتى شهدت ابنها الذي نذرته لوطنها وقد أصبح قائداً للمسيرة وملهماً للثورة الشعبية .

نقدم هذه الطبعة آملين في أن تحقق الغرض المنشود في إثراء كل من يريد الألمام بقصة الثورة التي لم تغير الواقع الليبي وحسب بل امتد اثرها ليشمل عشاق الحرية في كل مكان .

الناشــر

حسن يوسف التويشي

مقدمـة :

. . . ها قد انقضى أكثر من عقد من الزمان، منذ أن أطاح معمر القذافي ورفاقه الضباط الوحدويون الأحرار بالنظام الملكى ، في ثورة بيضاء ، استغرق الإعداد لها عمراً من الزمان طويلا .

* * * * * *

ومنذئذ ظلت الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية تشهد حركة متصلة من التغيير ، في كل القطاعات ، وفي كل ضروب الحياة . غير أن الثاني من مارس ١٩٧٧ م يوم أن أعلن عن قيام سلطة الشعب — كان ولا شك تتويجاً لهذه الحركة المستمرة .

ولم يكن غريباً أن قوبل مفهوم العقيد القذافي للحرية الاقتصادية حسبما هو وارد في الكتاب الأخضر ، بالنقد القاسي والهجوم الجائر . ذلك لأن معظم أولئك الذين يحتدون في هذا النقد ويعنفون ، لم يدركوا الدوافع الحقيقية التي حدت بهذا الرجل ، المتقد حماسة ، إلى سبر أغوار التجربة الفريدة .

وما هذا الكتاب الذى ضمنته مراجعات لكتابي السابق الذي يحمل نفس العنوان ، وأضفت إليه تحليلاً للظروف الاقتصادية والسياسية التي أدت إلى هذا النظام الجديد في الحكم «حكم الشعب نفسه بنفسه» إلاَّ محاولة للإجابة على عدة تساؤلات تطرح بين حين وآخر حول الجماهيرية : كيف قامت الثورة؟ وما هي فلسفتها ؟ ما معني كلمة الجماهيرية ؟ وما هو مفهوم معمر القذافي لسلطة الشعب . . . ؟

. . . وعلاوة على ما جاء في الطبعة الأولى من كتابي هذا فإنني أحاول هنا أن أنقل — بكل صدق — أحداثاً مبكرة تصور حياة قائد الثورة وهو في ريعان

الصبا ــ أحداثاً آمل أن تسلط الضوء بصورة أكثر تركيزاً على شخصية هذا الرجل الذي ألهبت مشاعره روح ثائرة متقدة ، وشحذت عزيمته رغبة صادقة في اختراق كل الحواجز والسدود وبلوغ آفاق الحرية والديمقراطية الحقة ، وذلك بنقل السلطة والثروة والسلاح لكل أفراد الشعب ، وغني عن القول أن هذه الفكرة ، كانت ستظل فكرة طوبائية بدون تحقيق الثورة . إذ كان لا بد من إسقاط النظام الملكي وإرساء نظام ثوري مخلص ، يحول هذه الفكرة إلى حقيقة . ويترجمها عملاً ويضع المجتمع كله أمام مسئولياته الشعبية الجديدة .

ويمكننا القول ــ وفق هذا السياق ــ بأن فكر ثورة الفاتح من سبتمبر لم يتبلور خلال السنوات العشر الأولى من عمرها وحسب وإنما هو نتاج لمعاناة دامت سنوات عشرين أو تزيد ــ منذ أن كانت الثورة فكرة جنينة نشأت وترعرعت في كنف الاجتماعات السرية الأولى في مدينة «سبها» . ومنذ اللحظات الأولى لقيام الثورة تعرف المجتمع الدولي على معمر ، رئيساً لمجلس قيادة الثورة الذي كان في واقع الأمر النواة الثورية الأولى التي ضمت أعضاء اللجنة المركزية للحركة .

وكانت أول مهمة للمجلس هي وضع اللبنات الأولى لدفع المجتمع ــ في وتيرات سريعة ومتلاحقة لصنع التغيير الذي كان ضرورياً لإزالة آثار الماضي ، وتحقيق مجتمع جديد ــ ذلك المجتمع الذي كان يجول بخاطر قائد الثورة وهو في ريعان صباه .

كانت المملكة الليبية بلاد التناقضات الغريبة ومستنقع الجور والظلم ، ففي الوقت الذي اتخمت فيه فئة قليلة من المواطنين بالمال وعاشت في بحبوحة الثراء العريض ، والملك المنيع ، كانت الأغلبية الساحقة تعاني ويلات الفقر وتعاسته .

كانت كل من طرابلس وبنغازي ترقد هانئة سعيدة حين ترقد ، وتمزق أستار الليل في اللهو والمجون حين تقوم ، وتضج بالصخب وحياة الترف والرذيلة . هرع إليها الناس زرافات ، ينشرون الثراء في أحضانها . ولكنه ثراء هم عنه بعيدون . . . وأنىّ لهم به ؟

حملوا فقرهم المدقع من البوادي والقرى وجاءوا ينشرون أكواخهم القذرة البائسة في أطراف المدن المترفة ويعيشون حياة البؤس والقلق والضياع . وكأنما أرادت أكواخهم تلك أن تقف دليلاً حياً للمقارنة بين حياة هؤلاء المحزونين وأولئك المترفين . لقد كانت أكواخاً هزيلة تفتقر إلي أبسط الخدمات وهي أقرب

ما تكون إلي حظائر الماشية والحيوان . . . لا تقي حر صيف قائظ . . . ولا بردشتاء قارس . لقد كانت بحق إحدى مظاهر الجريمة البشعة التي ارتكبها حكام ليبيا ما قبل الثورة في حق أبناء البلاد .

الأجانب والدخلاء ينعمون بلذّات الحياة العذبة والعيش الرغيد وأبناء البلاد يسحقهم نضال مرير ضد الجوع والجهل والمرض والتخلف . . . لا ينالون القدر الكافي من التعليم ، فالمدارس قليلة ، تعد على الأصابع . أما الموسرون فيوفدون أبناءهم لتلقي صنوف العلم والمعرفة في معاهد الدول الأجنبية وجامعاتها .

بيد أن هناك عوامل أخرى أججت لهيب الثورة في روح ذلك الفتى فالبلاد تزخر بالقواعد العسكرية الأجنبية . الأمريكيون أحكموا قبضتهم في طرابلس وأقاموا أضخم قاعدة لهم خارج بلادهم وهي قاعدة هويلس التي كانت مجتمعاً قائماً بذاته ومحظوراً على أبناء البلاد. والبريطانيون رسخوا أقدامهم في الشرق فأقاموا قواعد لهم حول بنغازي وطبرق ، وكذلك كان الفرنسيون الذين استقروا في إقليم فزان واتخذوا مواقع لهم يشرفون منها على مستعمراتهم في غرب إفريقيا . أما الإيطاليون فقد اتخذ وجودهم صبغة استيطانية فاحتكروا دنيا التجارة التي كانت تسيطر على اقتصاد البلاد وتملكوا الأرض وانتشروا في كل مكان وشرع أولئك وهؤلاء في اقتسام هذا المغنم كل يريد لنفسه نصيب الأسد ويتضح من ذلك أن تلك القواعد العسكرية لم يكن الغرض من إنشائها الدفاع عن البلاد وإنما أنشئت لحماية المصالح السياسية والاقتصادية للدول الاستعمارية ، وبخاصة عندما اكتشف النفط وتدفق خيره وفيراً معطاء .

منحت ليبيا استقلالاً مزيفاً من الدول الأجنبية وضرب ستار سياسي مكن لتلك الدول من أن تعمل من ورائه وتتحكم في زمام الأمور السياسية والاقتصادية للبلاد . أما إدريس السنوسي وحاشيته فكانوا خير من يتولى حراسة هذا الستار. وانتهجت هذه الحكومة العميلة أو على الأصح فرض عليها انتهاج سياسة ترمي إلى هدفين: خلق ظروف سياسية غير مستقرة وعزل هذا الجزء من الوطن العربي عن بقية الدول العربية. كل ذلك أجج لهيب الثورة في روح القذافي وجعله أكثر تصميماً وأمضى عزيمة ليعيد الحق إلى نصابه وإلى أهله .

في فجر صباه وفي سبها ألهب حماسته ذلك النضال الضاري الذي كان يقوده جمال عبد الناصر ضد الامبريالية ليس في مصر وحسب بل في كل أنحاء العالم

العربي . أليس عبد الناصر هو الذي قال «دعونا نصنع فكرنا العربي ونتخلى عن أفكار الآخرين »؟ عبد الناصر الشامخ الذي بكته الملايين في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠ هو الذي أرسي الدعائم الأولى للقومية العربية . قال قولته تلك في وقت كانت تتطلع فيه مصر العملاقة إلى مستقبل مشرق زاهر وضع عبد الناصر معالمه الأولى وأخرج بلاده من حقبة حالكة الظلمة .

في ذلك الوقت كانت الأوضاع في ليبيا شبيهة بتلك الأوضاع في مصر ما قبل الثورة . هذا التشابه ترك بصماته على شخصية معمر القذافي الذي كان يحمل تقديراً وإعجابا كبيرين لجمال عبد الناصر فأدرك بروح الثائر الأبعاد الحقيقية للمؤامرة الاستعمارية التي كانت تستهدف تشتيت الصف العربي وعزل ليبيا عن مكانها الطبيعي ثم استخدامها مركزاً لضرب الدول العربية التقدمية التي رأت الامبريالية أن تفرض عليها رقابة مستمرة وذلك لضرورات سياسية واقتصادية اقتضتها مصالح هذه الدول الخاصة .

تكونت الخلايا المدنية الأولى بسبها وكان الهدف الأول هو تغلغل أعضائها في كل المؤسسات والدوائر بهدف تحقيق الثورة شعبياً دون استعمال القوة وكان ذلك بمثابة اللبنة الأولى في صرح الثورة الشعبية التي تفجرت فيما بعد.

وإذا كان الضباط الوحدويون الأحرار هم الذين قاموا بالدور الطليعي في تفجير الثورة ليلة الفاتح من سبتمبر العظيمة ، فإن السمة الأساسية للثورة كانت واضحة منذ تلك المرحلة المبكرة . وهي سمة تعتبر بحق من صلب فلسفتها ذلك أن التفكير في اللجوء الى انقلاب عسكري لم يكن الهدف في حد ذاته . فقد كان معمر القذافي يرمي إلى بلورة العمل الثوري واستمراريته حتى يؤدي إلى نظام جديد في الإدارة . . . نظام يحكم فيه الشعب نفسه بنفسه .

أما الذين جمعهم القذافي حوله ليكونوا الخلية الأولى والآخرون الذين انضموا فيما بعد ، فقد أخذوا على عواتقهم مهمة النضال بعيداً عن أي ارتباط بالتكتلات الحزبية الأخرى التي بدأت تطل برؤوسها آنذاك كتكتل الإخوان المسلمين والبعثيين والشيوعيين والقوميين العرب .

* * * * *

وكان طبيعياً أن يحمل غلاف هذه الطبعة نفس صورة الغلاف للطبعة

الأولى ، كما لا ينبغي أن ننظر إلى هذه الطبعة الثانية باعتبارها سجلاً رسمياً لتاريخ ثورة الفاتح من سبتمبر لأن هذا لا يمكن تحقيقه بين دفتي كتاب واحد . . . بل يحتاج إلى مجلدات .

إنني أتناول في هذه الطبعة الأحداث التي أدت إلى انبلاج فجر ذلك اليوم الذي غير مجرى التاريخ ، آملاً إعطاء القاريء الكريم نبذة عن الظروف والملابسات التي دفعت معمرا إلى الثورة ضد النظام الملكي الذي كان يحكم ليبيا .

إن كل فقرة من هذه الرواية تحكي عن أيام النضال الأولي . . . وحتى قيام الثورة إنما تستند على أدلة وثائقية وحقائق ثابتة جمعتها حقيقة إثر أخرى . . . ووضعتها في أسلوب قصصي ، توخيت فيه الصدق والأمانة .

ولم تأت الأسماء والتواريخ والتفاصيل الأخرى من وحي الخيال ، وإن كنت قد أطلقت لخيالي العنان في الوصف والتعبير لأضفي مزيداً من المتعة الأدبية على هذه القصة الواقعية المثيرة .

(المؤلف)

حسن يوسف الكويتي

الجزء الأول

١ ــ الإعلان

سبها ــ ٢ مارس ١٩٧٧

ما ان أسدل شفق الصحراء نوره الأحمر فوق سماء مدينة سبها حتى اندفعت الفرق الموسيقية والراقصون بثيابهم المزركشة إلى شوارع المدينة وساحاتها ليعزفوا ألحانهم الشعبية على أنغام طبولهم وآلاتهم الموسيقية التقليدية العربية منها والإفريقية .

وانتصبت من خلفهم قلعة سبها التاريخية التي كانت رمزاً للسيطرة الإستعمارية ، وهي شامخة ترقب عن كثب هذه الاحتفالات الشعبية الصخمة وقد بلغت ذروة الروعة والإبداع .

كانت القلعة تمعن النظر وهي تشهد هذه الاحتفالات بصمتها المألوف كما فعلت منذ أكثر من عشرين سنة خلت عندما كان معمر القذافي طالباً في عنفوان الشباب وكان يعقد اجتماعه السري الأول لمناقشة موضوع الإطاحة بالنظام الملكي الفاسد وينظم الخلايا السرية الأولى للثورة التي انبثقت عنها فيما بعد «حركة الضباط الوحدويين الأحرار» . وفي صبيحة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ تحركت طلائع هذه الحركة التاريخية للإطاحة بالنظام المتداعي والسير بليبيا وشعبها العظيم نحو آفاق جديدة من التغيير الثوري المستمر المؤدي إلى تحقيق السلطة الشعبية وحكم الشعب نفسه بنفسه .

وفي قصر الشعب ــ وقبل زهاء الساعتين قريء على الملأ إعلان تاريخي هام ، فقراته موجزة وبسيطة ، إلا أنها عميقة المعنى دقيقة التعبير . وقد قدر لهذه العبارات أن تغير مجرى التاريخ ــ مرة ثانية في هذا الجزء من شمال إفريقيا ــ بل وتترك بصمات لا تمحى على مستقبل أجزاء أخرى من بلاد العالم ودوله . وعلى مسافة غير بعيدة من واجهة القصر جلس القائد إلى وجبة طعام بسيطة ، وإلى جانبه جلس رفاق النضال ــ الذين ظلوا طيلة ثماني سنوات يؤمنون إيماناً لا

يداخله شك بأن ثورة الفاتح من سبتمبر ما فجرت إلا لتحقيق سلطة الشعب ـــ ولم تفجر لمجرد استبدال حاكم بآخر .

وارتسمت على وجه معمر ابتسامة عريضة وهو يستعرض شريط الذكريات الطويل فمنذ عشرين سنة مضت كان يجلس في نفس المكان ومع نفس هذه المجموعة من الرجال المخلصين ليتناول وجبة شبيهة ، في البساطة .

كان الحلم الذي يراود معمر آنئذٍ هو قيام الثورة وتسليم السلطة كاملة للشعب. كان ذلك حلماً جنينيا . ولكن ـــ حتى في تلك الأيام السوالف ـــ توطد عزم معمر ورفاقه ، الذين شكلوا ما عرف فيما بعد باسم اللجنة المركزية للحركة ، على وضع اللبنات الأولى لمسيرة ثورية مخلصة ودؤوبة تطيح بالنظام الملكي وتنطلق بشعب ليبيا إلى الأمام لكى يصبح سيداً على نفسه وليس مسودا .

وها هو الحلم القديم يتحقق اليوم . يومان من النقاش الحر المستفيض وبعدها عقد مؤتمر الشعب العام جلسة له طارئة . فصادق على إعلان سلطة الشعب وأحال البلاد إلى أول جماهيرية في التاريخ . كلمة جديدة لم يكن للقائد بد من تفسير معناها . «فهي من الجماهير . وإنشاؤها يعد إيذانا ببدء عصر الجماهير وتوليها زمام السلطة في البلاد » .

وفي مكان آخر بعيد عن تلك الاحتفالات جلس فلاح تقدمت به سنوات العمر في مزرعته المتواضعة وهو يصغي إلى ما يحمله إليه جهاز مذياعه الصغير من أنباء . ها هو قد عاد إلى داره بعد حصاد يوم شاق ، فالأرض واسعة واسعة . . ممتدة ممتدة . . . لقد كانت فيما مضى صحراء قاحلة جدباء فحولتها يد الثورة إلى أرض صالحة ذات خير ونماء . جلس شيخنا الفلاح وحوله أبناؤه الثلاثة يرشفون من أكواب الشاي الساخن وفجأة يرهف الشيخ سمعه ، لقد نقل إليه مذياعه الصغير نبأ ليس ككل الأنباء كان المذيع يقرأ البنود الرئيسية للإعلان التاريخي الذي إستمع إليه الشيخ لأول مرة :

« . . . يكون الاسم الرسمي لليبيا (الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية) .

« . . . القرآن الكريم هو شريعة المجتمع في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية .

« . . . السلطة الشعبية المباشرة هي أساس النظام السياسي في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية .

« . . . السلطة للشعب ولا سلطة لسواه .

« . . . يمارس الشعب سلطته عن طريق المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية والمؤتمرات الأساسية والنقابات والاتحادات والروابط المهنية ومؤتمر الشعب العام ، ويحدد القانون نظام عملها .

« . . . الدفاع عن الوطن مسئولية كل مواطن ومواطنة وعن طريق التدريب العسكري العام يتم تدريب الشعب وتسليحه وينظم القانون طريقة إعداد الإطارات (الكوادر) العسكرية والتدريب العسكري العام . »

وما أن فرغ المذيع من قراءة الإعلان حتى بادر وليد البالغ من العمر ثماني سنوات وأصغر أبناء الفلاح سناً أباه بهذا السؤال :ـــ

وما هي الجماهيرية يا أبت ؟

أرسل الشيخ تنهدة عميقة ونظر إلى ابنه نظرة مليئة بكل تجارب الدهر ثم قطب حاجبيه الكثيفين المجعدين وقال :ـــ

يا بني ، إن تجارب السنين الطويلة علمتني ما لم أكن أعلم ومنحتني من الرأي صواباً وحكمة. وها هي أيام عظام نستقبلها. الجماهيرية هي نحن، نحن أصحاب هذه الأرض . إني لست معلماً ولا سياسياً ولكني أستطيع أن أقول لك إنني عملت بهذه الأرض التي لم تكن ملكاً لنا لعدة سنوات . لقد كنت أعمل الساعات الطوال بجد وعزيمة في مطلع كل يوم . . . وفي المقابل كنا نحصل على النزر اليسير من الطعام . وقد تعرضنا دائماً لظلم أولئك الذين كانوا يدعون ملكية هذه الأرض .

ارتشف الفلاح الرشفة الأخيرة من كوبه الساخن ثم نظر إلى ابنه وليد مرة ثانية وقال :

كان هذا يحدث لنا في الماضي قبل قيام الثورة وقبل مجيئ الرجل المسمى معمر القذافي ـــ الذي هو ايضاً ابن رجل فلاح مثلك ـــ ليطيح بالنظام الملكي الفاسد ويعيد إلينا أرضنا التي رويناها بعرقنا ودمائنا ـــ

كنت أحس دائما أن هذه الأرض ملك لي ولأمثالي من الفلاحين الذين

يشتغلون في هذه الحقول لينتجوا المحاصيل الزراعية . ولكنا لم نكن نمتلك الشجاعة الكافية لنقف ضد هؤلاء المدعين ونطالبهم برد أرضنا السليبة إلينا . لقد عانينا الكثير نتيجة هذا الظلم وجاءت الثورة المباركة وهأنذا أسمع اليوم أن بلادنا قد أصبحت جماهيرية .

لا تسلني يا بني عن أشياء أجهل الإجابة عنها . إنني أحس يا وليد بأن ما حدث اليوم لأمر ذو شأن عظيم وبداية لعصر جديد يصعب علي إدراكه والاستمتاع بمزاياه بحكم عامل السن . ولكنك يا بني مازلت صغيرا وقلبي يحدثني بأن ما قام به معمر القذافي اليوم سيعود بالنفع العميم علي الجيل الجديد والأجيال القادمة وأنكم لن تعانوا بعد اليوم ما عانيناه نحن ولن تتعذبوا مثلما تعذبنا لأننا تركنا الآخرين يستغلوننا .

حسن يوسف الطويشي

الجزء الثاني

٢ ـــ القائمة السوداء

سرت ـــ أواخر عام ١٩٥٨

داخل جدران محطة الشرطة الصغيرة في سرت كانت المروحة الكهربائية العتيقة التي تكسوها طبقة من الصدأ تخوض معركة خاسرة وهي تحاول عبثاً أن تطرد الهواء الخانق الساخن خارج الغرفة اليتيمة التي كانت تستعمل كمقر رئيسي للشرطة بهذه المدينة .

وخلف معقد خشبي تناثرت فوقه الأوراق والوثائق جلس ضابط الشرطة محاولاً عبثا أن يمنع نفسه من التثاؤب من شدة الضجر والملل فتراه يعمد إلى فتح أقرب ملف تقع عليه يداه ليروح به عن نفسه . ويمر سريعاً على محتوياته المتضمنة لنفس التقارير والتوجيهات التي عفا عليها الزمن دون ما تغيير. لقد أصبحت الحياة بالنسبة له صورة مملة كئيبة ولم يكن يتمنى ساعتها إلا أن تقفز عقارب الساعة فجأة إلى الثانية ظهراً ليتسنى له مغادرة هذا المكان الموحش . ولكنَّه كانت أمامه ثلاث ساعات أخرى من الضجر والكآبة .

تقع مدينة سرت الصغيرة البسيطة المظهر في منتصف الطريق الساحلي الذي يربط بين مدينة طرابلس في الغرب ومدينة بنغازي في الشرق . كان الصمت الرهيب يخيم على هذه المدينة الخالية تماما من أسباب الحياة العصرية وضروبها .

ولذا فقد كانت هذه المدينة التي يشكل البدو الغالبية العظمى من سكانها تعيش حياة رتيبة هادئة لا يعكر صفوها شيء إلا عندما يفكر بعض المسئولين الحكوميين في أداء زيارة رسمية لها لا لشيء إلا لمجرد نشر نبأ هذه الزيارة في الصحف المحلية وكنوع من المنة على سكان هذه المدينة .

أما فيما عدا ذلك ، لم يكن هناك شيء يستحق التسجيل في سرت . أما عمل الشرطة فكان روتينياً كالعادة لا يطرأ عليه جديد .

وفي داخل غرفته العتيقة الطراز جلس ضابط الشرطة الذي تقدمت به السن

وسط هذا الجو الموحش الكئيب . وفي حركة لا شعورية أخذ يطلق العنان لتثاؤباته المرة تلو الأخرى تعبيراً عن حالة الملل الشديدة التي يعاني منها باستمرار . وفجأة تذكر هذا الضابط أن المدينة لم تحظَ بزيارة من أي مسئول حكومي منذ مدة طويلة . وفي حقيقة الأمر كان حكام العهد المباد لا يعيرون هذه المدينة اهتماماً ويعتبرونها كما لو كانت غير موجودة أصلا على الخريطة . لقد أهملت تماماً مثل بقية المدن والقرى الليبية المنتشرة في كافة أرجاء البلاد والمعزولة تماماً عن كافة مظاهر المدنية والحياة العصرية .

مدينة صغيرة تخترقها بضعة شوارع تبدو وكأنها تؤدي جميعها إلى منطقة السوق الذي يزاول فيه الحرفيون والتجار أعمالهم اليومية . وكان السوق هو شريان الحياة لهذه المدينة ومركز تجارتها ومصدر تبادل الأحاديث ونقل الأخبار .

وبعد برهة قصيرة طوى الضابط الملف الذي أمامه ونهض من مكانه ليلقي نظرة على ما يدور في الخارج من خلال نافذة الغرفة . ولكن المنظر الذي وقعت عليه عيناه لم يكن مختلفاً عن ذلك المشهد الذي يمكن رؤيته في أماكن أخرى من مدن وقرى ليبيا . في تلك الأثناء كانت أشعة الشمس المحرقة تلهب المكان عند الظهيرة حتى أضحت حرارتها لا تطاق . لقد خلت الشوارع الترابية من المارة تقريباً عدا بعض رجال من البادية يتقاطرون ببغالهم المحملة بالبضائع إلى السوق أو يسوقون قطعاناً من الماشية أمامهم أثناء عودتهم إلى مزارعهم . كان الانطباع الوحيد الذي ارتسم في مخيلة هذا الضابط هو توقف عجلة الحياة تماماً بهذه المدينة البائسة .

إن النور المشع من المئذنة الخضراء لجامع سرت الوحيد الذي يتطاول وسط مباني هذه المدينة ، يبدو وكأنه العلامة الوحيدة على وجود الحياة الزاهية في سرت . فلم يكن بالمدينة مدارس أو مستشفيات أو عيادات طبية أومراكز ثقافية . لقد ظلت سرت طيلة تلك السنين الطويلة مجرد مدينة صحراوية لم تدخلها مظاهر الحياة والمدنية والتقدم ومعزولة تماماً عن أهم المدن التجارية والإدارية في ليبيا وكانت بحالة لا تحسد عليها .

بعد هذا الاستعراض السريع لما كان يدور في الخارج ، عاد الضابط إلى مكتبه ليجد عقارب الساعة التي كانت أمامه تشير إلى الثانية عشرة والنصف تماما . عندئذ تمنى هذا الضابط أن يحضر زميله المناوب قبل الوقت علي غير عادته

ليجد على الأقل شخصاً يبادله الحديث لقضاء الوقت الذي يمر ببطء شديد. وعند ما لم يجد شيئاً آخر يفعله ، مد يده إلى الملف الذي طواه قبل لحظات وراح يتصفح محتوياته للمرة الثانية . وفي هذه المرة وجد الضابط تقريراً لم يكن قد شاهده من قبل . كان تقريراً مقتضباً ودقيقاً من إدارة الأمن .

حمل هذا التقرير ساعي بريد خاص قبل ثلاثة أيام إلى مركز الشرطة . قرأ الضابط الرقم الإشاري في أعلى التقرير وتفحص محتوياته بإمعان. كان التقرير يتعلق بطالب صغير السن اسمه معمر محمد أبو منيار القذافي . وصف التقرير هذا الشاب الصغير بأنه طالب خطير جداً ولديه أفكار جديدة ومثير للقلاقل .

وتضمنت الورقتان المرفقتان بالتقرير التفاصيل الكاملة عن أسرة معمر وأقاربه والمدارس التي تخرج بها سابقاً والمدرسة التي يدرس بها حاليا . وجاءت في ذيل التقرير ملاحظة خطية وصفت نشاطات هذا الشاب معمر بأنها نشاطات مناوئة للنظام الحاكم وذات طبيعة سياسية .

كما أفاد التقرير أن نسخا مماثلة وزعت على مراكز الشرطة الأخرى بالمنطقة وطالب بفرض رقابة مشددة على تحركات معمر بعد التأكيد على ضرورة مخاطبة إدارة الأمن مباشرة وعلى الفور إذا ظهرت منه اية بادرة قد توحي بأنها ذات مغزى سياسي .

طوى الضابط الملف ، ووضع في حسبانه أن يناقش الأمر مع زميله المناوب .

٣ ـــ عهد الصبا

سبها يوم من أيام صيف عام ١٩٥٩

كاد ثقل دلوي الماء المتدليين من منكبيها العريضين وهما يتأرجحان عند طرفي حبل متين أن يقصم ظهرها . ولكنها واصلت سيرها بخطى وئيدة . على طريق متقد بهجير الشمس ، قدماها تغوصان في رماله المحرقة ، ومع كل خطوة يهتز الدلوان جيئة وذهابا . فتتساقط بضع قطرات جدّ عزيزة . امتد بصرها نحو شجيرات النخيل البعيدة فاطمأنت روحها إلى تلك الشجيرات وهفت إلى قليل من الراحة تخلد إليها تحت ظلالها . الطريق المؤدية إلى كوخها طويل . كوخ صغير من اللبن ، مسقوف بألواح من صاج صديء متآكل قديم لم يقها حر صيف ولا قر الشتاء .

بدأت الشمس ترسل أشعتها اللافحة فاستطال ظل العجوز أمامها على صفحة الرمال المتوهجة . . . لترسم لها صورة غير محددة المعالم تعلو ثم تهبط من فوق رمال الصحراء التي أحسنت الطبيعة نسقها حتى بدت وكأنها لوحة رائعة الجمال . أخذ نسيم البحر يداعب حبات الرمال امامها ولكنه فقد الآن برودته بعد أن قطع كل هذه المسافة ليصلها . وراحت السيدة العجوز ترقب ظلها وهو يسبقها في تثاقل ولم يكن أمامها شيئ أفضل من أن تحطم رتابة حياتها المنعزلة بمثل هذه الرحلة الطويلة الشاقة سيراً على الأقدام .

لم يتناه إلى سمع العجوز في باديء الأمر غير أزيز خافت مالبث أن بدأ يرتفع رويداً رويدا ، وإذ بجسم أسود اللون غريب المنظر يدنو منها ويتحرك بسرعة فوقها ويكبر حجمه على نحو غامض . اقتربت طائرة تونسية من طراز دي ـــ سي ـــ ٣ من مهبط الطائرات الوحيد في سبها . لاحت طائرة الركاب ذات المحركين المروحيين للحظة بين الأرض والسماء ، وما لبثت أن هبطت ولامست عجلاتها الأرض ثم سارت فوق المهبط حتى توقفت .

إلا أن وصول الطائرة التي دأبت على الطيران من تونس إلى سبها مارة

بطرابلس لم يسترع انتباه مجموعة من الشبان جلست القرفصاء تحت أحدى أشجار النخيل .

أما ركاب الطائرة ، وقد كانوا نفراً قليلاً بينهم بعض الفرنسيين ، فقد تنفسوا الصعداء وهم يهبطون من سلم الطائرة العتيق ، واتجه اثنان منهم نحو سيارة «جيب» كانت تنتظر وصولها لتقلهما إلى القلعة . . . أحد الحصون العثمانية القديمة التي شيدها الأتراك لأغراض دفاعية ، وهي لاتزال تقف شامخة فوق تل سبها الوحيد كما لو كانت تحرس المنازل القليلة المتناثرة في السهل الفسيح أسفل التل . كانت القلعة مع المسجد الوحيد الصامت الدليل الوحيد على وجود الحياة في واحة مزروعة في قلب بحر من الرمال الجرداء تعرف بسبها . كان الرجلان يتبعان لحامية فرنسية ترابط في القلعة . بقيت القلعة تحت نير الاحتلال الإيطالي منذ عام ١٩١١ إلى أن استولى الفرنسيون على سبها . . . عاصمة ولاية فزان القديمة . . . في الحرب العالمية الثانية . واستمرت سبها تعاني من ويلات الاحتلال الفرنسي إلى أن أصبحت جزءاً من ليبيا بموجب قرار صدر عام ١٩٥١ .

لم يعر الشبان الجالسون تحت ظلال النخيل أي اهتمام لما كان يجري على أرض المطار إذ كانت عقولهم مشغولة في تلك اللحظة بما هو أهم وأخطر . كان معمر وأصدقاؤه الذين يعدون على أصابع اليد بالمدرسة الثانوية ، أكثر انشغالاً بأحداث السنوات القليلة الماضية في مصر وما تركته هذه الأحداث من آثار بالغة في نفوسهم . فقرار جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس ، بعد أن فجر ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٣ التي أطاحت بالملك فاروق وحكومته والتي أذهلت العالم وحيرته ، ترك أثره العميق على معمر القذافي وحمل الشبان على أن يناقشوا ويحللوا الشخصيات التي ارتبطت ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر بأزمة السويس وفي مقدمتهم عبد الناصر القائد الصلب الذي لا تلين قناته ورئيس وزراء بريطانيا الغامض أنتوني إيدن ووزير خارجية أمريكا المتردد فوستر دالاس ورئيس وزراء فرنسا الغريب الأطوار بيير منديس فرانس وغيرهم . كانت زعامة عبد الناصر وإصرار الشعب المصري تلهبان خيال معمر وتحملانه على التساؤل عن جدوى وجود النظام الحاكم في ليبيا .

أخذ معمر يفكر فيما تريده الدولة الليبية بالفقراء والمعوزين من رجال البادية والقرى المختلفة الذين لم يطرأ على حياتهم أي تغير وفي أحوالهم أي تحسن وهم أشد

الناس حاجة إلى العون . ثم يتساءل عن جدوى اكتشاف النفط في البلاد وعمن سيستفيد من تلك الثروة الطائلة في نهاية المطاف . وامتد تفكيره إلى القوات الاجنبية المرابطه في جميع أنحاء ليبيا . . . إلى القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية التي ما جاءت لحماية مصالح الشعب الليبي ، بل لتلعب دور الحارس الأمين على مصالح الحكومات التي كانت تمثلها هذه القوات .

عاد معمر بفكره إلى عام ١٩٤٩ عندما أصدرت الأمم المتحدة قراراً يقضي بإقامة ما كان يعرف آنذاك « بدولة ليبيا المستقلة ذات السيادة » وأرسلت لجنة فيما بعد إلى البلاد برئاسة أدريان بيلت الهولندي الذي قام بدور المستشار للجنة مكونة من ٢١ عضواً ليبياً يمثلون أقاليم فزان وبرقة وطرابلس تحددت مهمتها بإعلان قيام برلمان جديد .

وفي أواخر عام ١٩٥٢ تم اختيار ستين عضواً ووضع دستور للبلاد ليصبح في ليبيا نظام ملكي دستوري وراثي . واعترافاً بما اعتبره البريطانيون « ولاءً » من إدريس السنوسي ، فقد تم تنصيب الأمير السابق ليكون أول ملك على ليبيا .

أخذ نفوذ الملك وحاشيته من الاصدقاء ورجال السياسية يقوى، وراحوا ينعمون بحياة الترف ورغد العيش بينما يغوص الشعب رويداً رويداً في وحل المظالم الاجتماعية والتفاوت الطبقي الذي لم يكن له نظير في الماضي ولا في الحاضر . وكان معمر ورفاقه يؤمنون بأن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ليبيا قد خلقت جواً مشحوناً بالغضب والسخط أشبه ما يكون بالبركان الثائر وإن لاح هامداً في السطح . ينتظر أول بادرة للتصدع لينفجر وتنطلق منه الحمم ، شأنها في ذلك شأن مصر قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حين كان الثوار يتساءلون عن جدوى وجود الملك وأعوانه .

رأى الطالب البدوي ورفاقه، ممن عقدوا في ذلك اليوم اجتماعاً سرياً في سبها ، رأوا في الثورة فلسفة فريدة تجعلها مغايرة للانقلاب العسكري . فلم تكن الثورة تعني بالنسبة لهؤلاء الشبان نقل السلطة والثروة من حزب حاكم إلى آخر أو من طبقة حاكمة إلى أخرى ولكنها كانت تعني حركة تغيير مستمرة ترمي- إلى تخليص الشعب من عوامل الظلم والجور والتخلف والسير به نحو آفاق جديدة من العدالة الاجتماعية والمساواة . كانت الثورة تعني بالنسبة لهم الرد الوحيد على أحزان الشعب وآلامه . كانوا يؤمنون بأن الإطاحة بالنظام الملكي الفاسد لم تكن غاية في

حد ذاتها بل هي الخطوة الأولى نحو إيجاد نظام جديد للحكم من شأنه أن يعمل في يوم من الأيام علي جعل الشعب الليبي سيداً قوياً ينعم بثروات البلاد وخيراتها . كان معمر ورفاقه تراودهم في ذلك الوقت فكرة قيام الشعب الذي «يحكم نفسه بنفسه» .

كان معمر يدرك أن الثورة إذا ما تفجرت لا بد من حمايتها من القوى المضادة بنفس الطريقة التي كان عبد الناصر يحمي بها ثورته في مصر حين كان الامريكيون على وشك أن يخسروا جولتهم الأولى فيما بات يعرف بعدئذ بالصراع العنيف الواسع النطاق بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية حول زيادة نفوذهما السياسي والعسكري في البحر المتوسط وشمال إفريقيا .

كانت تلك الأفكار تجول بخاطره وهو يناقش رفاقه تحت أشجار النخيل باحثاً عن المزيد من الآراء التي تؤكد اعتقاده الذي تشاركه إياه بحماس متزايد مجموعته الصغيرة المصغية إليه باهتمام بأنه لا بد من أن تجتاح الثورة ليبيا . وكل ما في الأمر هو : متى تحين الفرصة المواتية ؟ ومن عساه أن يكون ذلك الرجل الذي يفجر الثورة ؟

كانت الظروف السياسية المتأزمة في شمال افريقيا مصدر استياء دائم لمعمر ، وقد ذكرته بتلك الرسالة التي سطرها منذ سنوات خلت وهو لم يناهز بعد السادسة عشرة من عمره والتي نشرتها جريدة «فزان» في عام ١٩٥٧ م . في تلك الرسالة كان معمر يبحث عن جواب لما كان يدور في ذهنه من أسئلة مثل : ما مصير النفط الليبي ؟ ومن سيكون المستغل ؟ ومن الذي سيتعرض للاستغلال ؟ . كما تساءل عن مصير بن بيلا ، المناضل الجزائري من أجل الحرية ، الذي اختطفه الفرنسيون وهو في طريقه على طائرة فرنسية من تونس إلى الدار البيضاء ونفي مع أربعة آخرين ليختفوا من مسرح الأحداث .

استمرت المناقشة حتى أخذت الشمس ذات اللون البرتقالي الممتزج بلون رمال الصحراء تغيب في الأفق البعيد . وعندئذ نهض الشبان وتفرقوا في اتجاهات مختلفة ليلفهم المساء ويختفون بسرعة مذهلة في تلك الصحراء الشاسعة الخاوية التي لا يقطع امتدادها سوى مجموعات متناثرة من أشجار النخيل الشبيهة بتلك التي كانوا يستظلون تحتها . وهناك على مسافة بعيدة كان الطريق الطويل الذي يعود بهم من حيث أتوا .

لم يكن ثمة دليل على اجتماعهم السري سوى الأثر الذي تركوه على صفحة الرمال . ذلك الدليل الذي سرعان ما يتلاشى ويتبدد عندما يهب النسيم البارد في المساء ويغير معالم تلك الرمال ويحيلها أشكالاً جديدة

* * * * *

ودع الشبان بعضهم بعضا على عجل وأخذ معمر يسير ببطء نحو الميدان الصغير أمام سوق سبها حيث كانت عربات النقل العتيقة تحمل التمر لتنقله إبان الليل إلى سوق مصراته على مسافة مئات الكيلومترات على ساحل البحر، كان معمر على يقين من أنه سيجد عربة تقله إلى مصراته ومنها ينطلق إلى سرت حيث ينضم إلى أبيه وأمه وشقيقاته الثلاث في خيمتهم بالصحراء ليساعدهم في جني محصولهم حتى يحين موعد العودة إلى الدراسة. لكن الحزن عصف بقلبه عندما تذكر أنه لن يرى مرة أخرى أخاه الوحيد الذي وافته المنية وهو بعد حدث صغير . فقد تألم كثيراً عند سماعه نبأ فراق أخيه ولكنه آمن بقدر ربه وأن لا مرد لقضاء الله .

بيد أن معمرا طفق يفكر فيما سيفعله الشبان الذين كانوا يجلسون معه تحت أشجار النخيل في الأيام المتبقية من العطلة. لقد كانت المناقشة هذه المرة محتدمة وحماسية تتدفق الآراء خلالها بحرية وطلاقة فقد كانوا يستمعون ويناقشون ويعبرون عن آرائهم بصراحة لم يسبق لها مثيل عندما كانت موضوعات سياسية حساسة وخطيرة تطرح على بساط البحث في لقاءاتهم السرية .

وتناهى إلى سمع معمر من على بعد صوت المؤذن يدعو المؤمنين لصلاة العشاء ذلك الصوت الشجي الخاشع الذي ارتفع فوق كل ضجيج السوق حيث كان التجار بثيابهم الفضفاضة التي تدفع عنهم حر النهار القائظ وبرد الليل القارس ، يفرغون ويحملون عربات النقل التي اتخذت مكانها في كل بقعة من الميدان . وكان بينهم الطاعنون في السن الذين قضوا جل حياتهم وهم يحترفون تجارة المقايضة ، يفترشون الأرض ويحتسون الشاي الساخن والقهوة العربية بينما اقتربت منهم جمهرة من الفتيان لا يتجاوز عمر أكبرهم السادسة عشرة أو السابعة عشرة ربيعا يسيرون في كل اتجاه وينادي كل منهم الآخر وهم يساعدون في شحن وتفريغ

العربات ولا يلبثون أن يعودوا في الصباح الباكر إلى مزاولة نفس العمل بنفس الروح والحماس اللذين يتميز بهما شبابهم وروحهم الوثابة .

كان السوق زاخراً بالسلع المتعددة الأنواع كالبسط والجلود والملابس الزاهية الألوان والحلي الذهبية والمعادن المقلدة الزهيدة الثمن والملابس الصوفية المستوردة من إيطاليا والأحذية الإسبانية ، ومنتجات جلدية متنوعـة . وكان المرء يسمع أصوات التجار المتعالية الغاضبة حين لا يعجبهم السعر المعروض ، ثم كلماتهم الرقيقة المعذبة وهم على وشك أن يعقدوا صفقة رابحة ، ووقع الأقدام وصوت الايدي التي تربت على الظهر مبشرة بانتهاء مساومة ناجحة .

وفي ركن من أركان السوق وقف سائق عربة نقل قديمة طاعن في السن يتفحص حمولة عربته من التمور للتأكد من متانة حزمها . ثم قام بشد الحبل الذي كان يلف مؤخرة صندوق العربة وبدا وكأنه راض مطمئن .

دلف السائق داخل غرفة القيادة وراح يلف مفتاح التشغيل إلا أن المحرك لم يدر . فعاود الكرة المرة تلو الأخرى حتى بدأت الحياة تدب في المحرك القديم . لقد كان يقود سيارة مخلفات الجيش القديمة من نوع «بيد فورد» منذ أكثر من ثلاث سنوات ولكنها ما زالت تؤدي عملها بصورة مرضية إلا أنها لم تكن في مثل حالتها قبل بضع سنوات . لقد قضت هذه العربة ريعان أيامها مع الجيش البريطاني قبل بيعها بالمزاد العلني . وبالرغم من الآف الأميال التي قطعتها إلا أنها لا تزال تقوم بمهمتها خير قيام وتنقل البضائع بين سبها ومصراته دون كلل .

اقترب معمر من السائق العجوز وتبادل معه بضع كلمات ثم انعطف إلى الجانب الآخر من العربة وقفز إلى المقعد المجاور للسائق بينما استعدت السيارة لتبدأ على الفور رحلتها وأسند معمر ظهره إلى المقعد الخشن وأعد نفسه لرحلة طويلة مضنية إلى مصراته . تحدث الرجلان قليلاً بينما أخذت العربة تدور حول ساحة السوق لتأخذ طريقها الذي يمتد أسفل القلعة . ولم تمض دقائق حتى بدأت المنازل القليلة المتناثرة تمتزج بظلمة المساء . وخيَّم سكون شامل ، لا تكاد تسمع فيه سوى أزيز السيارة .

لم يعر الطالب الثائر انتباهاً يذكر للمناظر الممتدة على طول الطريق المنعزل المتعرج فقد كان الأفق الرملي الممتد أمامها يحجبه أحياناً بل يختفي بمجرد أن تنعطف العربة وتتجاوزه وتتخذ اتجاهاً جديدا . وأخذت تطوف بخيال الشاب الذي ولد

في (أبو هادي) في خيمة في الصحراء على بعد عشرين كيلومتراً جنوب مدينة سرت أفكار عديدة وذكريات متلاحقة . . . . فقد كان أبواه وهما من سلالة قبيلة « القذاذفة » التي سميت باسم أحد الأولياء الصالحين (قذاف الدم) فقيرين يعتمدان – شأنهما في ذلك شأن بقية أهل البادية — على حصادهم السنوى القليل . كان أبوه فلاحاً يرعى قطيعاً صغيراً من الماعز والإبل ويسير وراء الكلأ أينما هطلت الامطار مثل كل رجال القبائل الرحل الذين لا يعرفون الاستقرار في مكان واحد بل يتنقلون في الصحراء الفسيحة المترامية الأطراف الممتدة من مصر حتى المغرب . وظلت قبيلة القذاذفة تجوب الصحراء طولاً وعرضاً دون توقف لسنوات عديدة وتقطع مساحات شاسعة حتى بلغت في بعض الأحيان الساقية الحمراء .

لقد نشأ معمر وترعرع في أحضان القصص التي تركت دون ريب بصماتها على شخصية كل أبناء الصحراء ، كقصص الفروسية والفرسان الشجعان مثل ذلك الفارس الذي قاتل الوحش ذا الرؤوس الثمانية « الهامة » حتى صرعه وأنقذ النجع من الخطر المحدق به . واستمع إلى روايات أبطال من التراث الإسلامي المنسوبة منها إلى فتيان الصحراء . . . . وهم العرب الحقيقيون الذين ولدوا ليعيشوا في هذه الفلوات الشاسعة بعيداً عن أهل الحضر ومعزولين عن الشعوب الأخرى حتى وان جابوا أنحاء الأرض بحرية لا تعرف الحدود .

وتذكر الشاب اليافع وهو يجلس بجوار السائق باستفاضة الروايات التي كان يقصها عليه والده وهو بعد فتى صغير عن طرائف البحر . . . . حكايات المغامرة والرعب التي كانت تسترعى اهتمامه العميق وهو ينصت في تلك الأمسيات الطويلة الممتعة إلى ما يرويه له والده الشيخ .

وتذكر أيضاً كيف اعتادت الأمهات أن يخفن أبناءهن حين يخرجون على طاعتهن بقصص وحكايات مثيرة عن البحر . كان الناس آنذاك يعتقدون أن البحر الذي لا قرار له مصدر خطر داهم ودائم يتهدد حريتهم . ومن ثم آثروا العيش بعيداً عن الساحل قدر استطاعتهم متوغلين في قلب الصحراء بعيداً عن شاطئ البحر وأمواجه العاتية وأخطاره المفزعة .

ولم تغب عن بال معمر طفولته في الصحراء عند تلقيه مبادئ القراءة والكتابة حينما كان يلتف مع غيره من صبية العشيرة حول « فقيه » يفد إلى مضاربهم ، كان

شيخاً ورعا من عادته التجول من مكان إلى آخر يعلم الأطفال القراءة والكتابة ومبادئ علم الحساب وبعض الآيات القرآنية . كان الصبية ينتظرون قدوم الفقيه إلى النجع بفارغ الصبر ليستمعوا منه إلى قصص وحكايات الأيام الخوالي لرجال البادية والتي تدور حول العزة والشجاعة والإباء والكرامة ، تلك الصفات الحميدة التي كان يتصف بها الأجداد .

في عام ١٩٥٤ قرر معمر تقديم طلب للانضمام إلى إحدى المدارس في البلاد في ذلك الوقت فقد تبين له أن العلوم التي تلقاها على يد الفقيه كانت لا تروي ظمأه . ولم يكن التسجيل بالمدارس بذلك الأمر الهين نظراً لكثرة الطلبة المستجدين وقلة الأماكن الشاغرة . وقد اختار ابن البدوي الانضمام إلى الصف الثاني الذي كانت قد بدأت الدراسة فيه واضعاً نفسه أمام تجربة قاسية . فإما الانتقال إلى الصف الأعلى إن هو استطاع الاستيعاب السريع واجتياز الاختبار أو إلى الفصل الفوري إذا ما فشل في إثبات جدارته بالصورة المطلوبة . لقد كان مصمماً على النجاح في القضاء على الصعوبات التي تواجهه وارتفع إلى مصاف الطلبة البارزين في الصف خلال فترة قصيرة . كان زملاؤه أحياناً يقلدونه في لهجته الصحراوية وعادات أهل الصحراء التي نشأ في أحضانها . وتمكن من التقدم والفوز عليهم وجاء ترتيبه الأول بالصف عند نهاية العام الدراسي . إلا أن القدر وقف له بالمرصاد ولم يمكنه من مواصلة الدرس عندما دفعه إخلاصه الشديد تجاه عائلته أن يترك الدراسة مؤقتاً لمساعدة الأسرة في جني الحصاد المبكر . وعندما رجع معمر إلى مقعده بالفصل كان الفصل التالي قد بدأ منذ مدة وقد تم قبوله بناء على توصية من أحد المفتشين في المدرسة . ولكن سوء الحظ أبي إلا أن يرافقه بعد عودته إلى المدرسة. فقد قرر أبوه المسن الانتقال إلى إقليم آخر بحثاً عن مرعى أكثر خصوبة . ولم يكن أمام معمر إلا أن يصحبه ليجد نفسه في سبها . التحق معمر بمدرسة أخرى في سبها ثم انتقل فيما بعد إلى مصراته حيث نجح في إتمام مرحلة الدراسة الإبتدائية . . . . ولكن ليحرم من شهادته لأن والده قرر العودة إلى سبها مرة أخرى بحثاً عن الكلأ قبل موعد حفل توزيع الشهادات الذي طالما انتظره بلهفة بالغة .

ومع حلول عام ١٩٥٧ أخذ معمر يبدي اهتماماً ملحوظاً بالشئون السياسية وسرعان ما وجد نفسه يعيش وسط الأحداث المعقدة التي كانت تشهدها

الساحة العربية في ذلك الوقت لتؤثر عليه فكرياً وعاطفياً وتؤجج خياله وتلهبه . كانت الثورة المصرية التي تفجرت منذ خمس سنوات قد تركت تأثيرها العميق على شخصية معمر شأنها في ذلك شأن الثورة الجزائرية ونضال الشعوب العربية ضد الأحلاف العسكرية التي أخذت تقسم العالم إلى كتل سياسية واقتصادية قوية .

كان معمر يرى في حدة الصراع القائم بين منظمة حلف شمال الأطلسي وبلدان حلف وارسو في منطقة البحر المتوسط خطراً داهماً على مستقبل الأمة العربية . فقد كانت قواعد منظمة حلف شمال الأطلسي منتشرة على امتداد الشواطئ الشمالية والأطراف الجنوبية للبحر المتوسط . وكانت منظمة حلف وارسو تسعى جاهدة إلى بسط نفوذها السياسي والعسكري في هذه المنطقة الاستراتيجية من العالم . لقد أدرك ابن رجل البادية أن صراعاً بين القوى الكبرى سيتفاقم عبر السنوات القليلة القادمة الأمر الذي يؤثر على أمن وسلامة شعوب منطقة البحر المتوسط . وفي أماكن أخرى من العالم كانت أمريكا تمارس نفس اللعبة بهدف بسط نفوذها وخلق أحلاف أخرى مثل الحلف المركزي الذي كان من نتاج فكر فوستر دالاس وزير خارجية أمريكا آنذاك .

كان الخيط الفضي الذي يلوح في الأفق السياسي داخل فكر معمر تلك الوحدة السياسية التي أعلنت منذ عام تقريباً بين مصر وسوريا . كانت الوحدة بالنسبة لهذا الشاب اليافع الجواب الشافي لمشاكل العالم العربي . ولكن يبدو أنه لم يدرك هذه الحقيقة حتى الآن غير جمال عبد الناصر في مصر وشكري القوتلي في سوريا . وربما مرد ذلك إلى أزمة قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر الذي لم يهدد فقط الشعب المصري بل الأمة العربية بأسرها .

كانت الذكريات تطوف بخياله بسرعة مذهلة بينما كانت العربة تطوي الأرض في طريقها إلى مصراته . ظلّ معمر يرمق السائق بنظرة خاطفة بين الفينة والفينة ولكن بصره كان مركزاً على الطريق الضيق الممتد أمامه حيث كان الظلام الدامس يزيد من صعوبة قيادة العربة في تلك الساعة المتأخرة من الليل . استرخى معمر على مقعده لأنه سيصل في غضون ساعات قليلة إلى مصراتة التي سيبحث فيها عن وسيلة نقل أخرى تقله إلى سرت ليجتمع شمله مرة أخرى بأبويه وإخوانه في خيمتهم بالصحراء حتى يحين موعد العودة إلى المدرسة .

٤ ــ تظاهرة احتجاج سبهــا

سبها ــ ٥ أكتوبر ١٩٦١

وتحطم حاجز الصمت الطويل المألوف الذي كان يخيم فوق سماء سبها حين طاف المتظاهرون عبر أزقتها الضيقة المتعرجة بشكل لم تشهد مثله من قبل تلك الواحة المتعزلة في قلب صحراء فزان المكفهرة . . . . تلك المدينة التي تلفها الصحراء المترامية الأطراف والتي شيدت فوق أنقاض مستعمرة قديمة تتالق منازلها القليلة المتناثرة هنا وهناك . أقام العثمانيون هذه المدينة كحصن من حصونهم في هذا المكان المقفر الذي كان في قديم الزمان أيام الفنيقيين والرومان ممراً للقوافل التجارية . كما كانت هذه المدينة مركزاً لتجارة العبيد فيما مضى وعاصمة لولاية فزان . وخلال السنوات التي أعقبت ذلك لم تشهد سبها حدثاً مهماً في تاريخها الطويل كما حدث عندما أعلن فيها على العالم بأسره ميلاد أول «جماهيرية» في التاريخ .

في صبيحة ذلك اليوم أخذ معمر طريقه إلى عنابر النوم بالسكن الداخلي في مدرسته ليجد الطلبة قد أعدوا أنفسهم للقيام بمظاهرة الاحتجاج . فقبل أيام قليلة ذهب معمر إلى المسجد لتأدية صلاة الجمعة . وطبقاً للعرف الاجتماعي السائد فقد كان من غير المألوف أن ينهض أحد المصلين لإلقاء خطبة الجمعة بعد الصلاة . ولكن معمر انتهز هذه الفرصة ونهض لمخاطبة جموع المصلين المحتشدة في المسجد عن الثورة الجزائرية .

وكالعادة فقد كان المسجد مليئاً بجموع المصلين. وفي الحقيقة فإن الكثيرين لم يستطيعوا إخفاء مشاعر الإعجاب الشديد بهذا الشاب اليافع نظراً لما يتميز به حديثه من عزيمة وصدق ثوري . ولكن لم يكن جميع الحاضرين بالمسجد من ذوي النفوس الطيبة لأن رجال المباحث كانوا مندسين وسط المصلين عندما قام معمر بحثهم على التبرع بسخاء لصالح القضية الجزائرية مما دعا رجال المباحث إلى

تدوين النقاط الرئيسية لخطبته وإرسالها إلى الجهات المختصة .

وربما كان هذا هو السبب الذي دعا رجال السلطة الحاكمة والشرطة وقوة الدفاع بأن تعتبر بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا الطالب الثائر هو العقل المفكر وراء الوعي السياسي — إن لم يكن الثوري — الذي بدأ ينتشر في المنطقة . لقد كان في نظرهم المحرك الأساسي لما كانوا يعتبرونه اضطراباً سياسياً في المنطقة . مما زادهم تشدداً في فرض الرقابة عليه عندما أخذ طريقه وسط جموع الطلبة في صبيحة ذلك اليوم من شهر أكتوبر .

في تلك الأثناء احتشد المئات من الطلبة وسط شوارع المدينة للتعبير عما يجيش في صدورهم واستنكاراً لانفصام عرى الوحدة بين مصر وسوريا .

تم تنظيم هذه المظاهرة بإحكام للتعبير عن مدى استياء وسخط الشعب العربي الليبي على قرار سوريا بالانفصال عن الجمهورية العربية المتحدة في الواحد والعشرين من سبتمبر من ذلك العام . بالرغم من رغبة الكثيرين في إبداء استنكارهم والتعبير عن مشاعرهم بصورة علنية إلا أن أعداداً أخرى آثرت الصمت وترددت في إظهار مشاعر الاحتجاج خوفاً من مضايقتها وتعذيبها على يد جـلاد العهد الملكي المقيت ومنظماته السرية الإرهابية المتعددة ذات الصفة المدنية والعسكريـة الموظفة خصيصاً لإخماد صوت الشعب وقمع أية آراء مضادة بوسائل الإرهاب والتعذيب التي كانت تمارسها ضد الشعب البريء المكبل بالأصفاد والقيود .

أمضى معمر أسبوعاً كاملاً في تنظيم تلك المظاهرة التي كانت ترمي أيضاً إلى اختبار قدرة التنظيم السري على استقطاب الجماهير الشعبية كمحك للحكم على مدى تأثير الحركة من خلال نشاطاتها السريــة بغرس أفكارها السياسية في نفس الشعب الليبي وإقناعه بأن مصير الأمة العربية يكمن في وحدة الجماهير العربية وليس في ممارسات التفكك والانفصال التي تسعى أجهزة الحكم الملكي المتعفنة جاهدة للتمسك بها وعدم الخروج عليها .

وقد بدأ الإعداد لهذه المظاهرة يوم ٢٩ من سبتمبر ١٩٦١ حيث اجتمع معمر ببقية الأعضاء المنظمين لها في قرية (حيطة الحجارة) قرب مدينة الشرارة الأولى (سبها) في غابة النخيل وقرروا القيام بهذه المظاهرة . . ثم انطلق المجتمعون إلى كل مكان يجمعون صور جمال عبد الناصر ، ويخيطون أعلام الجمهورية العربية

المتحدة ويكتبون اللافتات وينتشرون داخل الأوساط الشعبية يهيئون الناس للتحرك . . وما أن حلت ليلة الخميس ٥ من أكتوبر ١٩٦١ حتى كانت جميع الترتيبات جاهزة .

وفي تلك الليلة ارتدى معمر عباءة بيضاء وأخذ يتنقل بين الجديد وسبها ليقوم بنفسه بتوزيع اللافتات على الموثوق بهم . فكان يدخل القسم الداخلي مرتدياً العباءة ليطمئن إلى أن كل اللافتات والصور والأعلام قد وضعت تحت النمارق والزرابي وأسرة طلبة القسم الداخلي ليكونوا على أهبة الاستعداد للخروج بها صباحا .

وقد كانت المظاهرة ضخمة لأن الدافع إليها قوى وهو تفجير إحساس الناس بالقضايا الوحدوية واختبار قدرة التنظيم في تحريك الجماهير في وقت مبكر لبدء الحركة .

اعتقدت الحركة أن هدفها الرئيسي تحولها إلى قوة دافعة قادرة على تنظيم واستقطاب الشعب . ولم يكن هذا بالأمر الصعب خصوصاً بالنسبة للأعضاء النشطين لخلايا التنظيم الذين كانوا إلى جانب معمر ، محمد الزوي والهادي فضل وزاؤول السنوسي ومحمد خليل وعلى المهدي وإبراهيم امجاد ورئيس اتحاد الطلبة .

كان محمد الزوي معروفاً بقربه من الطبقة الحاكمة آنذلك ، ولكن ذلك لم يكن ليؤثر على إيمان الحركة في صدق نـواياه الثورية وطموحاته الكبيرة نحو التغيير . وإلى جانب معمر انخرط في التنظيم كل من عبد السلام جلود وحسين الشريف والهادي فضل ومحمد خليل الذي كان عضواً في الخلية السرية الأولى . إن إخلاصه للحركة وقدرته على تجنيد عناصر ثورية جديدة مثل إبراهيم امجاد فاق كل وصف وتقدير .

تمَّ إنشاء حركة التنظيم السري قبل سنتين من قيام المظاهرة أي عام ١٩٥٩ م كحركة سياسية محضة . ولما تبادل معمر التحية مع جماهير الطلبة الغفيرة المحتشدة خارج المدرسة راح يفكر في مدى قدرته على تنظيم مثل هذه المظاهرة لو لم تكن حركة التنظيم السري موجودة كما هي الآن . اعتقد ساعتها أنه لم يكن بمقدوره القيام بمثل ذلك العمل بمفرده . وفي أماكن أخرى من الوطن العربي الكبير الذي لم تكن جماهيره تتعرض لموجات القمع والإرهاب كتلك التي كانت تمارس ضد الجماهير العربية الليبية ، انطلقت مسيرات احتجاج منددة بقرار حكومة دمشق

بالانفصال عن دولة الجمهورية العربية المتحدة وترك القاهرة وحيدة في الميدان. ولكن الأمركان يختلف تماماً بالنسبة لليبيا التي كان يحظر فيها قيام أيّة تنظيمات سياسية أو حتى مجرد إعطاء الجماهير الحق في التعبير عن رأيها في حدث أليم كواقعة الانفصال هذه.

فقبل بضعة أيام فقط تم إلقاء القبض على مجموعة من الأفراد ووجهت إليهم تهم واهية لمجرد الشك في انتمائهم إلى حزب سياسي غير معلن. وكان من آثار فرض النظام البوليسي الصارم وتزايد حدة التوتر أن قيدت نشاطات الحركة إلي حد كبير. كان معمر وبقية أعضاء التنظيم يعرفون حق المعرفة أن الموقف السياسي الذي يسود آنذاك منعهم من التعبير بحرية عن معتقداتهم السياسية وزاد بالتالي من صعوبة القيام بعملهم السري ما دام هدفهم النهائي لم يكن مجرد القيام بالمظاهرات أو إبداء الاحتجاجات ضد النظام الملكي ولكنه كان أكثر من ذلك بكثير. . . . كان هذا الهدف هو الإطاحة بالنظام الحاكم نفسه.

ومما زاد الأمر سوءاً هو قيام النظام الحاكم بمواصلة إحكام الرقابة المشددة والقبض على الأشخاص لأتفه الأسباب. لقد زاد الخوف من الاعتقال والمناخ السياسي الذي كان يسود في تلك الآونة من مخاوف الطلبة بالرغم من تلهف الغالبية العظمى إلي المشاركة في المظاهرة العلنية. إلا أن ازدياد حدة التوتر كان يؤدي أحياناً إلى دفع الطلبة على التراجع والتريث.

في اليوم السابق لقيام المظاهرة أخبر الطالب محمد مازي زميله في الدراسة معمرا بأنه «إذا ما اشتركنا في هذه المظاهرة فإنهم سيوجهون إلينا تهمة الانتماء إلى حزب سياسي ويلقون القبض علينا». ثم أردف قائلا: «إنني أفضل لهذا السبب عدم الخروج إلى الشارع والاشتراك معكم في المظاهرة».

كان المازي من المترددين دائما في اتخاذ القرارات. وكان بعض الطلبة يرون في معمر طالباً مشاغباً ومثيراً للمتاعب وقد انقسم الطلبة فيما بينهم إلى مجموعتين: مجموعة تناصر معمرا الثائر ومجموعة مناوئة لنشاطاته السياسية. لقد ظن أنصار المجموعة الثانية أن تأييدهم لمعمر سيؤثر على دراستهم الأمر الذي جعلهم يرفضون المشاركة في أي عمل سياسي علني.

وعلى الرغم من هذه المشاعر التي أملتها عليهم الظروف السياسية الصعبة فإنهم لم يتعرضوا للنشاطات السياسية لهذا الطالب الثائر. بل وأعجبوا إلى حد ما بما كان

يقوم به لأنهم كانوا يدركون أسوة ببقية زملائهم المساوئ الإجتماعية والممارسات الظالمة للنظام القائم .

لقد كانت مخاوف وشكوك المازي انعكاساً للمشاعر الداخلية لأولئك الذين كانوا رغم إدراكهم الحاجة للعمل الثوري فقد كانوا غير راغبين في أن يكونوا طرفاً في مثل هذا العمل . أما فيما يخص الحركة ونشاطاتها السرية فإنها لم تتراجع وواصلت المسيرة .

شهدت مدينة سبها ميلاد هذه الحركة فوق ترابها عندما أنشئت فيها أول خلية مدنية للتنظيم السري . وبعد مضى سنتين على انبلاج هذه الحركة انضمت إليها الآلاف من الجماهير المتعاطفة معها وأنشئت الخلايا الأخرى في أماكن متعددة من البلاد مثل مصراته ودرنة والزاوية وطرابلس .

كلما تزايد عدد أولئك الذين يعدون أنفسهم للاشتراك في المظاهرة بات معمر أكثر إدراكا من أي وقت مضى أن الحركة قد وصلت بالفعل إلى طريق طويل وشاق . ومع أن الظروف المحيطة قيدت إلى حد كبير عمليات الحركة إلا أنها كانت قادرة على تعبئة أفراد الشعب للانخراط في صفوفها . لم تكن الحركة بعد قد نظمت عملياتها ولم يكن بمقدورها العمل بحرية . وكانت تعيش ظروفاً غاية في الدقة والصعوبة . اخترق المتظاهرون شوارع المدينة وهم يهتفون ويرددون الشعارات ويلوحون بأعلام الجمهورية العربية المتحدة ويرفعون صور جمال عبد الناصر والشعارات التي تعبر عن إيمانهم وتأييدهم للوحدة العربية ويرددون الولاء لعبد الناصر كزعيم للأمة العربية . وارتفعت مئات الأعلام للجمهورية العربية المتحدة بألوانها الأسود والأبيض والأحمر في صبيحة ذلك اليوم المشهود عندما اخترق الطلبة شوارع سبها .

وهكذا ، كانت تلك المظاهرة ربما أكبر وأول تحدٍ خطير من نوعه لحكام العهد المباد وبداية لظهور الحركة على الساحة . ولم تخفَ على معمر النتائج المتوقعة لهذه المظاهرة . ومع أن المتظاهرين لم يقوموا بإدانة النظام الحاكم مباشرة إلا أن المظاهرة ما كانت إلا تأييداً للوحدة العربية في وقت كان فيه الملك إدريس والمقربون إليه من الوزراء ورجال حاشيته يبدون معارضة شديدة للوحدة العربية.

كان الرد بقسوة وعنف على قيام المظاهرة متوقعاً منذ البداية ولم يكن يشغل بال المتظاهرين في الحقيقة سوى الأبعاد غير المنظورة .

في تلك الآونة كانت قوات الأمن في سبها منهمكة في وضع اللمسات الأخيرة على خطتها لاحتـواء المظاهرة . ففي اليوم السابق لقيام المظاهرة كانت قوات الأمن تعمل في محاولة يائسة لحل رموز الإشاعات التي ترددت بأن شيئاً كبيراً سيقع في المدينة في صبيحة اليوم التالي .

تناهت إلى مسامع صالح بن على من قوات الدفاع في فزان أخبار تلك الإشاعات ولكنه كان عاجزاً عن التصرف تماماً نظراً لعدم وجود الدليل الملموس لديه . وما دام الحال كذلك فإن الأمر لا يعدو أن يكون أكثر من إشاعة .

كان هذا أيضاً نفس رأي علي بن صالح رئيس مركز شرطة سبها الذي بدت عليه أمارات الانزعاج والقلق لأنه بالرغم من مركزه الحساس كرئيس قسم الشرطة فقد كان متعاطفاً مع المتظاهرين وغير قادر على البوح بمشاعره .

كان صالح في براك عندما بدأت الإشاعات تحوم حول قيام المظاهرة ، فاتصل بمساعده في سبها ليبحث معه الترتيبات الامنية الضرورية . اتخذت ترتيبات بسيطة لمواجهة الموقف تمثلت في اندساس عدد من رجال الأمن وسط المتظاهرين دون مضايقتهم وعدم استخدام العنف إلا إذا شعروا بأنهم فقدوا زمام المبادرة والسيطرة على سير وتوجيه المظاهرة . علم صالح قبل يوم أن المظاهرة ستكون سلمية . ونظراً لكونها في نفس الوقت غير مشروعة حسب رأي حكام العهد المباد الذين حظروا كافة أشكال التجمعات العامة ، فقد تقرر عدم إعطاء المتظاهرين الفرصة بعد أن صدرت أوامر مشددة لرجال الشرطة تقضي بعدم السماح للمتظاهرين من الاقتراب من المباني الإدارية بما في ذلك محل إقامة والى سبها ومبنى الشرطة ومقر المجلس التنفيذي والمجلس التشريعي .

كانت التعليمات واضحة في صد المتظاهرين وإلقاء القبض على قادتهم إذا ما حاولوا الاقتراب من أي مكان من هذه الأماكن . وما أن تجمهرت أعداد كبيرة من الطلبة إيذاناً بانطلاق المظاهرة حتى طغى الانفعال على النظام وعلا صخب الجموع الزاحفة غير مكترثة بالتعليمات الصادرة إليهم حول الطريق الواجب عليهم اتباعه واتجهوا صوب المباني الإدارية بمنطقة «القرضة» حيث مقر قصر الوالي .

استدعي صالح من براك إلى سبها فوراً ليجد نفسه في موقف صعب الإحتمال ممزّقاً بين العواطف الجياشة التي يكنها نحو المتظاهرين وبين استيائه الشديد من الواجبات التي يفرضها عليه مركزه الرسمي في الحكومة . وسرعان ما أدرك أنه

إذا ما زحف المتظاهرون لمداهمة قصر الوالي فإن رجال الشرطة لن يكون أمامها خيار سوى اللجوء إلى القوة لفض المظاهرة والقبض على أولئك الذين يعتقد بأنهم قادتها وعلى رأسهم الطالب معمر.

كان الحل الوحيد أمامه للخروج من هذه الأزمة أن يعمل على تغيير خط سير المظاهرة قبل أن تصل إلى مقر الوالي. انطلق صالح في سيارته بسرعة جنونية فوق الشوارع الصحراوية غير المعبدة حتى حالفه الحظ في الوصول إلى ساحة القصر في الموعد المحدد ليرى قوات الجيش المدججة بالسلاح ورجال شرطة فض المظاهرات بخوذاتهم الفولاذية وهراواتهم المميزة في حالة تأهب قصوى يسدون جميع المنافذ المؤدية إلى قصر الوالي. أدرك صالح بحاسته السادسة أن الهجوم على القصر لم يكن مخططاً له من قبل وأن المظاهرة قد خرجت عن الهدف المحدد لها في الأصل. حاول صالح فض المظاهرة.... وكاد يفقد حياته. تجاهلت الجماهير الزاحفة أوامره المفتعلة ودفعته بعنف أثناء تقدمها وهي تسحق بلا هوادة كل ما من شأنه أن يعترض سبيلها. وفجأة سقط صالح على الأرض وارتطم جسمه بأرضية الشارع وأخذ يطلق صرخات، سرعان ما تلاشى هذا الصوت وسط هتافات المتظاهرين الذين كان رد فعلهم الفوري أن يدوسوه حتى الموت ــ كفريسة سهلة وسط الزحام والفوضى ــ ولكن العنف لم يكن من نهج الطالب معمر في أي وقت من الأوقات. وقف الطالب الثائر بجوار صالح ومد له يد المساعدة لينقذه من نهاية حتمية. وعندما عجز رجال الشرطة المحلية عن السيطرة على الجماهير الغاضبة الزاحفة، استدعيت شرطة فض المظاهرات المرابطة على أهبة الاستعداد في ضواحي سبها. وتقدمت الشرطة بملابس الميدان والهراوات لشطر المظاهرة إلى ثلاثة أجزاء متفرقة.

وما لبثت أن كبرت المظاهرة حجماً حتى وصل مجموع أفرادها إلى ما لا يقل عن أربعة الآف شخص في مدينة قليلة السكان كهذه لكسر الطوق الذي فرضته قوات الشرطة حول مركز المدينة. في تلك اللحظات علت هتافات المتظاهرين مندِدة بالإقليميين والانفصاليين الذين اشتد نفوذهم في البلاد فأخذوا يعمقون انقسام ليبيا التي كان الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية قد قسموها فيما بينهم وظفر المنتصر والمهزوم على حد سواء بنصيب من الغنائم. ثم اندفعت مجموعة من المتظاهرين صوب الطوق الذي فرضته شرطة فض المظاهرات وراحوا يرشقونهم

بالحجارة وما تصل إليه أيديهم عندما حاولت تلك القوات الإمساك بزمام الأمر مرة أخرى .

هنا تقدم من معمر أحد رفاقه في التنظيم السري وهو محمد الزوي ليشير عليه بالتخفي وسط الجماهير المحتشدة التي توفر له الحماية النسبية المؤقتة إذا صدرت الأوامر بالقبض عليه . كان الزوي على يقين من أنه لو خرج معمر من وسط الجماهير الزاحفة فإن الشرطة ستسارع بالقبض عليه في الحال .

أصيب معمر للوهلة الأولى بالذهول عند سماعه الأخبار السيئة وسأل الزوي عن المصدر الذي استقى منه معلوماته . فأخبره صديقه بأن رجال الشرطة كانوا يتحرون عنه ويستفسرون عن مكانه . وقال له من البديهي جداً أن رجال الشرطة لا يتحرون عن شخص إلا إذا كانت لديهم التعليمات بإلقاء القبض عليه خاصة وأنه قد سبق لهم أن ألقوا القبض على نحو عشرين طالباً واقتادوهم إلى مركز الشرطة . تذكر معمر الأساليب الوحشية التي تمارسها شرطة فض المظاهرات ضد المعتقلين وتضرع إلى الله أن يجنبهم شرور التعذيب أثناء الاستجواب .

أما المظاهرة فقد حمي وطيسها واشتد وتجلى بوضوح عجز قوات الشرطة على احتواء الأعداد المتزايدة من التظاهرين . كان الطالب الثائر وسط المتظاهرين عندما اقترب منه لدهشته نائب مدير الشرطة الذي انقذ حياته قبل قليل من موت محقق شاقاً طريقه بصعوبة بالغة نحوه . لقد جاء إليه ليخبره بصفته أحد قادة هذه المظاهرة كي يعمل على الحيلولة دون توجه المظاهرة نحو المباني الإدارية خشية أن يؤدي ذلك إلى نتائج لا تحمد عقباها . كما طلب من معمر العودة بالمتظاهرين إلى اجتماع شعبي . تمعن معمر في كلمات صالح وقرر أن يأخذ بنصيحته خصوصاً وأن المسيرة قد حققت الآن أهدافها وأنه يكون بذلك قد أوفى بدينه لصالح الذي حذره من العواقب الوخيمة للمظاهرة فيما لو تواصلت المسيرة تجاه مركز الشرطة.

* * * * *

في آخر النهار احتشد الطلبة والعمال الذين شاركوا في المظاهرة قرب السور القديم لسبها . إن الهتاف المدوي الذي ساد جو المظاهرة خلال الساعات القليلة الماضية قد انحسرت حدته الآن وعاد الهدوء النسبي يخيم على سماء المدينة من جديد .

ومع غروب الشمس شرع معمر في إلقاء خطابه إلى الجماهير المحتشدة ليشن فيه هجوماً عنيفاً على وجود القوات الأجنبية والقواعد العسكرية على أرض الوطن . كانت البلاد في تلك الآونة ترزح تحت نير القواعد الأجنبية حيث القوات الأمريكية تحكم قبضتها في طرابلس وفي خمس قواعد عسكرية أخرى في البلاد من بينها قاعدة « هويلس » أكبر قاعدة عسكرية أمريكية خارج حدود الولايات المتحدة الأمريكية . كان أفراد القوات العسكرية الأمريكية يقومون بطبع نقودهم ، وحولوا مدينة طرابلس إلى نقطة انطلاق لكافة مؤسساتهم . كما كانت الهيمنة البريطانية قوية على البلاد حيث قام الإنجليز بتعزيز وجودهم في المنطقة الشرقية وإنشاء قاعدة ضخمة في طبرق بالإضافة إلى المنشآت العسكرية في بنغازي . وكذلك الأمريكان كانوا لا يفكرون مطلقاً في التخلي عن بسط نفوذهم وسيطرتهم على البلاد .

وفي فزان المتوغلة جنوب البلاد ، كان الفرنسيون يبسطون نفوذهم على هذه البقاع لاستخدامها كنقطة مراقبة على قواعدهم المنتشرة في القارة الإفريقية . كما كان الإيطاليون يعيشون داخل البلاد لحماية مصالحهم الخاصة والسيطرة على تجارة البلاد وعلى مساحات شاسعة من الأرض التي احتلوها في أعقاب غزو « بنيتو موسوليني » للبلاد .

تحدث معمر عن التهديد الذي يفرضه تواجد القواعد العسكرية الأجنبية على الحقوق الأساسية للشعب الليبي نحو الحرية قائلا : « إن الشعب الليبي مطالب بالذود عن حقوقه التي لا يمكن تحقيقها إلا من خلال توحيد نضال الشعب المشروع » .

كما طالب جميع القادرين بالمساهمة بخمسة قروش لإرسال برقيات تأييد إلى جمال عبد الناصر في القاهرة للتنديد بالقوى الانفصالية داخل سوريا وتأكيد إصرارهم على مواصلة العمل في سبيل تحقيق الوحدة العربية . إلا أن مستخدمي البريد رفضوا إرسال البرقيات خوفاً من مساءلة الحاكم . ولكن ذلك الرفض لم يمنع معمر من حث المستخدمين على أداء هذه الخدمة الجليلة مستنهضاً مشاعرهم وهممهم الوطنية ومسئولياتهم القومية إذا قاموا بهذا العمل .

وأخيرا أخذت كلمات معمر طريقها إلى الآت الإبراق لتقوم بنقلها إلى قائد الشعب المصري في القاهرة .

٥ ــ ودُفِع الثمن

سبها ــ ٦ أكتوبر ١٩٦١

في حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً انطلقت سيارة « الفولكس واجن » التي يقودها الحاج حمد ، سكرتير والي فزان ، إلى مبنى القسم الداخلي لمدرسة سبها الثانوية لاستدعاء معمر للمثول أمام « البي » . كان الحاج حمد غير راضٍ عن المهمة التي أوكلت إليه ولا يعرف ما الذي يريده « البي » من هذا الطالب الثائر في هذا الوقت المتأخر من الليل . طرق الحاج باب الحجرة وفتح له الباب طالب آخر يدعى بلقاسم الواولي الذي سأل الحاج باقتضاب عما يريده . فأجابه سكرتير الوالي بأنه يريد التحدث إلى معمر ، فقال له بلقاسم وهو يرمقه بنظرة ملؤها الريبة والشك « لقد خرج قبل قليل » .

أدرك الحاج حمد أنه لا فائدة ترجى من مواصلة الحديث في هذا الموضوع وآثر السكوت لأنه كان موقناً بأنه لن يحصل على مزيد من المعلومات حول مكان وجوده من بلقاسم أو من أي طالب آخر . راح الحاج يفكر في أحداث الأربع والعشرين ساعة الماضية وهو عائد إلى سيارته في وقت مبكر جداً من صبيحة يوم قارس البرودة .

تناهت إلى مسامع « البي » محمد سيف النصر أخبار المظاهرة التي لم تكن تعجبه . كان البي طاغية مستبداً وبالرغم من عدم حصوله على مركز رسمي محدد إلا أنه كان يملك صلاحيات مطلقة نظراً لكونه أخ الوالي وخال رئيس المجلس التنفيذي . وقد كان البي مكروها في المدينة وخصوصاً بين أوساط الطلبة نظراً لنزعته الانفرادية المطلقة ومحاولاته المستمرة لقمع نشاطات الطلبة لإرضاء الطبقة الحاكمة وللإبقاء على سلطته المكتسبة .

وفي واقع الأمر لم يكن الحاج حمد تابعاً للبي وإنما كان سكرتير الوالي مما جعله في مركز حساس للغاية . وعندما عاد بسيارته من القسم الداخلي لم يستطع إخفاء

مشاعر عدم الرضا للسير قدماً في مواصلة هذا العمل الموكول إليه ونظراً للنتائج الضارة التي أدرك أنها ستحل بأولئك الذين قاموا بالتخطيط والاشتراك في المظاهرة وخصوصاً ما ينتظر معمر الذي كان ينظر إليه بأنه العقل المدبر لمسيرة الإحتجاج .

بدأت متاعبه في اليوم السابق عندما طرق أحد رجال المخابرات باب داره بعد منتصف الليل بعشرين دقيقة تقريبا . كان الطارق حاد اللهجة وهو ينقل إليه رسالة من مدير المخابرات ينبئه فيها برغبته في التحدث إليه بعد علم إدارته بأن طلاب المدرسة المركزية كانوا يخططون للقيام بمظاهرة كبيرة وأنها تريد من الحاج حمد أن يمنعهم .

سأل الحاج رجال المخابرات عن المظاهرة التي يتكلمون عنها فأجابوه بأنها مظاهرة احتجاج على قرار حكومة دمشق بالانفصال عن دولة الجمهورية العربية المتحدة . ثم قالوا له : «أنت تعرف تماماً أن مثل هذه المظاهرات التي تلهب المشاعر السياسية لدى الجماهير محظورة في بلادنا وأنه لا داعي لإبداء مثل هذه الإحتجاجات» .

وبسبب مقدرته على الخطابة . فقد كان معمر في نظر رجال شرطة العهد المباد ومخابراته مثيراً للقلاقل والمتاعب . لقد ورد اسمه منذ أكثر من سنتين في التقارير الرسمية بانتظام وكان رجال الأمن لا يساورهم أدنى شك في أن هذا الطالب البدوي الشاب هو المنظم الرئيسي للمظاهرة. كما شاهده المخبرون أثناء قيامه بقيادة المظاهرة عندما حاول المتظاهرون الزحف على مقر الوالي ولم ينجه من القبض الفوري سوى تحذير محمد الزوي. ولكن المهلة التي أعطيت له لإرجاء تنفيذ قرار القبض عليه كانت قصيرة. وبمجرد انتهاء المظاهرة استدعى رجال المخابرات الحاج حمد ليوكلوا إليه هذه المرة مهمة أكثر وضوحاً وتحديداً من سابقتها وهي العثور على معمر وإحضاره إلى البي . وحرصاً منه على كسب الوقت لإرضاء ضميره ومشاعره المخلصة التي كان يكنها للطلبة، أخبر الحاج رجال المخابرات بأنه لا توجد لديه سيارة وأنه سيحتاج لسيارة للعثور عليه . وكلما استمر في المراوغة مع رجال المخابرات كان يعرف أن لديهم معلومات وافية عن هذا الطالب . فقد أخبروه بأنه يمكن تواجده في واحد من ثلاثة أماكن إما في القسم الداخلي أو على عنوان معين في منطقة القرضة أو عند والديه . ولما وجد أن لا

جدوى من إضاعة المزيد من الوقت والمراوغة ، قرر الحاج الذهاب إلى المدرسة أولاً للبحث عن الشاب الثائر .

وبينما كان يقود سيارته نحو منطقة القرضة أدرك الحاج بقلبه المؤمن الكبير أن يد البي الطويلة القاسية ستصل إن عاجلاً أو آجلا إلى هذا الطالب ورفاقه .

كان الوقت متأخراً وعقارب الساعة تشير إلى حوالي الساعة الواحدة صباحاً عندما كان معمر عائداً إلى القسم الداخلي بعد حضور اجتماع للحركة في منطقة القرضة . في بادئ الأمر كان يحس بأن السيارة تبدو وكأنها تلاحقه من على بعد فقرر بينه وبين نفسه الا يعير أدنى اهتمام للأمر لأن مجرد رؤية سيارة تسير في سبها في وقت متأخر من الليل إما أن يكون حدثاً نادر الوقوع أو مشكوكاً فيه . بدت المسافة تضيق بينه وبين ملاحقيه بسرعة وسرعان ما تبين له صدق حدسه . كانت سيارة ألمانية الصنع ولم يُخف من بداخلها غرضهم الرئيسي من هذه الجولة المشبوهة بأنهم كانوا يتعقبونه .

وبعد ثوان وصلت السيارة إلى جواره وناداه صوت ليس بغريب عليه قائلا : إن البي يريد أن يراك . فهم الطالب الثائر الرسالة جيداً فلم يكن هناك في سبها غير « بي » واحد معروف . ثم سألهم مستغرباً عن سبب طلبه في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل وعما إذا كان ضرورياً الذهاب إليه توا .

فأجابه سائق السيارة بأن المسألة عاجلة وأنه يريده في الحال . وأخبره الحاج بأن مخبراً ذهب للبحث عنه ولم يجده . أدرك الطالب الثائر أن لحظة المكاشفة وظهور الحقيقة باتت قريبة ولم يساوره شك في أن العواقب ستكون سيئة بالنسبة له رغم عدم معرفته سبب استدعائه .

أخذ معمر طريقه داخل السيارة بشعور ممزوج بالاستسلام النفسي والتحدي ، وانطلقت السيارة مسرعة على طول الشارع الضيق لسبها حيث مقر إقامة سيف النصر الذي كانت تحرسه قوة من أفراد قوة الدفاع . وما أن وصلت السيارة إلى بوابة المبنى حتى طلب منها التوقف . لقد أخبرهم أحد افراد الحرس الذي كان يمتشق رشاشاً متدلياً على خاصرته ومسدساً على الجانب الآخر بالانتظار . وبعد برهة قصيرة رفع الحاجز وسمح للسيارة بمواصلة السير ببطء داخل ساحة مقر إقامة سيف النصر .

اصطحب الحاج حمد الطالب الثائر إلى غرفة الانتظار . وفي تلك اللحظات

أدرك هذا الطالب أن الحاج كان سكرتير الوالي . جلس الاثنان صامتين على كرسيين وهما يشعران بأنه لا داعي الآن لمبادلة الحديث . وبعد مرور بضع دقائق وصل البي ونهض الحاج وهمس في أذن مرافقه كن مؤمناً والله معك . دخل معمر دون وجل إلى مكتب البي الفاخر حيث بدت صورة البي المتدلية من الحائط وكأنها تملأ المكان . نظر البي إلى الطالب الجالس أمامه وبعد مرور لحظات اختار البي الوقت المناسب ليقطع هذا السكون المطبق مخاطباً إياه : أين كنت ؟ . كان هذا السؤال غير المتوقع مفاجأة له ولكنه استمر صامتاً لا يجيب . وكان السؤال الثاني الموجه من سيف النصر بمثابة اتهام : هل كنت بالقسم الداخلي تعد العدة لتنظم هذه المرة مظاهرة تأييد للجزائر ؟

كان سيف النصر يوجه أسئلة عشوائية ولكن معمر تنفس الصعداء عندما أدرك أن استدعاءه الفوري لم يكن يتعلق باكتشاف اجتماعاتهم السرية التي تمت فيها مناقشة موضوع الإطاحة بنظام الحكم عن طريق تحريض الشعب على التغيير . حاول معمر إبعاد التهمة المسندة إليه مخبراً البي بأنه لا أساس لهذه التهمة من الصحة وأن كل ما قاله غير صحيح . وما أن سمع سيف النصر هذا الكلام حتى بدأ يسب ويزمجر ويهدد ويتوعد ثم قال : ماذا أنت ؟ أطالب علم . . . . أم قائد شعبي ؟ وكيف تجرؤ على تحدي السلطة والنظام ؟ ثم صرخ سيف النصر وهو يصب جام غضبه على الطالب الجالس أمامه قائلا :

لماذا أنت مشاكس هكذا ؟ وماذا تتوقع أن تكسب من وراء قيامك بهذه المظاهرات ؟ أو من الحملة التي نظمتها من أجل « الحرية » ؟ وما كان من معمر إلا أن يؤثر الصمت ويبقى مستمعا . ثم قال سيف النصر وهو غير قادر على التحكم في أعصابه بحنق : لقد نبهت أهالي فزان كيف يفتحون عيونهم ويفهمون أشياء كانوا يجهلونها تماماً من قبل . لقد صار هؤلاء الناس العبيد يجرؤون على رفع أصواتهم أمامنا وعلى معارضتنا .

ثم أخذ سيف النصر يبحث عن كلمات أخرى ليتفوه بها حتى جادت قريحته بهذا القول : « ما شأنك أنت والوحدة العربية ؟ لقد قمت بالأمس بقيادة مظاهرة وستقوم غداً بقيادة مظاهرة ثانية وهكذا دواليك . . . » .

ماذا ستفعل يا ترى لو تم طردك من المدرسة ؟ . . . . ماذا ستفعل إذا أمرتهم أن يطردوك ؟ وماذا سيحدث لك ؟

بدأت عواقب المظاهرة تتكشف أمام معمر . لقد حرك قرار انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة مشاعره إلى حد يستحيل معه أن يقف موقفاً سلبياً . ولكن توقيت إعلان الاستنكار والتنديد بهذا الحادث لم يكن محكماً تماما . فليبيا كانت تمر بمرحلة عدم استقرار واضطراب والإرهاب البوليسي يفرض على الشعب ليل نهار وحالة الطوارئ أعلنت بعد القبض على عدد كبير من الحزبيين الذين ينتمون إلى حزب البعث . بعد كل هذا كانت السلطات تتشبث بأي شئ يقع بين يديها حتى ولو كان الأمر مظاهرة طلابية ليصبوا جام غضبهم وينتقموا بقسوة ودون هوادة .

فكر معمر ملياً ثم نظر إلى سيف النصر وقال : «إذا أصدرت قراراً بطردى فإني سأمتثل لهذا الأمر لأن وجودي لا يتوقف على إقامتي في سبها ، ولكن طردي ليس لديكم ما يبرره وهو مجرد إجراء تعسفي من جانبكم لا أكثر ولا أقل .

اغتاظ سيف النصر عند سماعه هذا الرد الجريء ثم حملق في وجه معمر وقال : ماذا تعني بكلمة تعسف ؟ لماذا لا تنظر في ملفك لترى بنفسك ما به . هل تريد أن ترى ملفك الشخصي ؟

كان العرض مغرياً وفرصة أمام معمر ليرى ما الذي تعرفه السلطات عن أفكاره وميوله السياسية . التفت الطالب الثائر نحو البي وقال :

إذا ما وجد هذا الملف عندكم فدعني أراه . كان لجواب معمر أثر غير متوقع علي سيف النصر . قفز البي من على مقعده وظهر كرجل على وشك أن يفقد اتزانه تماماً وبحركة سريعة التقط سماعة الهاتف واتصل برئيس إدارة المباحث عبد السلام مسيك وراح يزمجر بعصبية على الهاتف عندما علم بأنه لم يكن موجوداً لا في البيت ولا في النادي . ثم ألقى السماعة من يده بقوة هزت مع ارتطامها بالجهاز جميع محتويات المنضدة وأمر عندئذ الطالب الثائر بمبارحة مكتبه . لقد واتت هذا الطالب البدوي فرصة الحصول على ملفّه لدى الشرطة عندما كان سيف النصر يستشيط غضباً ، هذا الملف الذي تضمن بدون ريب سجله وأعماله السياسية ، ولم يمنعه من ذلك سوى عدم وجود مسيك .

وما أن خطا معمر خطوات قليلة خارج مكتب سيف النصر حتى ناداه البي بصوت عال قائلا له : «ستكون هذه آخر مرة أراك فيها» .

ادرك معمر وهو يسير عائداً إلى البيت أنه قد دفع لتوه الثمن النهائي إلا وهو

الطرد من المدرسة . كان ثمناً غالياً في وقت لم يكن الحصول على العلم فيه بالأمر الهين ولا في مقدور أي شخص . وسيواجه الطلبة الآخرون الذين قاموا بدور رئيسي في تنظيم المظاهرة إلى جانب معمر نفس المصير الذي لقيه .

وبينما هو يمشي في الطريق عائداً إلى مقر سكن أبويه لينبئهما بالأخبار السيئة عن طرده إذا بأربعة مخبرين يطوقونه ويمنعونه من مواصلة السير حتى بادرهم معمر قائلا : ماذا تريدون مني ؟ فأجابوه أن البي يريد التحدث إليه . تظاهر معمر في بادئ الأمر بأنه لم يقابل البي راجياً إياهم تأجيل المقابلة إلى صباح الغد لأن الوقت متأخر جداً في هذه الساعة . ولكن المخبرين رفضوا ذلك رفضاً قاطعاً وأبلغوه بأن البي يريد التحدث إليه قبل الفجر . حاول الطالب الثائر أن يستمر في نفس اللعبة معهم ولكنه سرعان ما تبين له أن المخبرين لن يتركوه وسبيله إلا إذا أخبرهم بأنه قد عاد من عند البي لتوه .

ساد حيّ المنشية حيث يقطن والداه وأخواته جَوّ من الخوف المشوب بالقلق بعد غروب شمس ذلك اليوم عندما قام المخبرون بعدة زيارات إلى منزلهم للاستفسار عن مكان ابنهم . وما أن وصل البيت حتى شاهد أمارات الحزن والقلق بادية علي وجه أمه عائشة . أخبرته والدته عن زيارات المخبرين المتكررة للمنزل وحكى لها معمر ما دار في مكتب البي . وأدرك معمر أن أمامه بضع ساعات حتى مطلع الفجر ليعلم رسمياً بقرار طرده من مدرسة سبها المركزية .

٦ ـــ بريق الأمل

طرابلس ـــ بعد شهرين من مسيرة الاحتجاج

اتخذ معمر طريقه وسط الأزقة الكثيرة المتعرجة داخل المدينة القديمة في طرابلس لا يدري ما الذي يخبئه القدر له ولخططه الرامية إلى التغيير والتطهير. كان قرار طرده من مدرسة سبها المركزية عقبة في طريقه ولكنها لم تكن بالمشكلة التي يصعب التغلب عليها. وما أن استقر به المقام في طرابلس لفترة وجيزة حتى راح يفكر في الفرصة المواتية له لتكوين خلايا اخرى في هذه المنطقة من البلاد. كانت تلك الافكار تجول بخاطره عندما كان يشق طريقه بصعوبة عبر أزقة المدينة القديمة التي نالت حظها هي أيضاً من ويلات الغزاة فقد تبادلها الغزاة سالفاً عن سالف حتى دخلها الأتراك العثمانيون عام ١٥٥١ واستقروا بها إلى أن غزتها الجيوش الإيطالية عام ١٩١١.

اطمأن معمر عقب استدعاء «البي» له إلى أن السلطة الحاكمة تجهل تماماً حركة التنظيم السري. لقد بات موقناً الآن بهذه الحقيقة التي يرجع الفضل في اطلاعه عليها هذا «البي» من غير أن يدري. في نظر السلطات الحاكمة لم يكن هذا الطالب الثائر ورفاقه سوى جماعة مشاغبة ليس إلا. ولم يفكروا لحظة واحدة بأنهم فتية ثوريون عقدوا العزم على السير قدماً نحو تغيير الأوضاع السائدة في البلاد.

اعتقد الطالب الثائر أن قرار طرده من مدرسة سبها المركزية ربما يدون في ملفه الشخصي وسرعان ما راح يفكر في السعادة التي يحس بها سيف النصر وهو يتصور خطأً أنه قد تخلص نهائياً من طالب متمرد.

لقد استطاع خلال إقامته القصيرة في طرابلس أن يتصل بعناصر جديدة وأن ينشر أفكاره الثورية في أوساط الطلبة في المدينة والمناطق المحيطة بها بنفس السرية التي دأب عليها أثناء وجوده في سبها. كانت نتائج اتصالاته في طرابلس مبشرة

للغاية وحققت نتائج إيجابية كما حدث في سبها . كان العمل يسير سيراً حثيثاً بصدد تكوين خلايا جديدة بعد أن اتخذت الترتيبات اللازمة التي تمكنه من الإتصال بالتنظيمات الثورية الأخرى التي تركها مؤقتاً وراءه في سبها ومدن أخرى في المنطقة كدرنة وسرت ومصراته .

وبالطبع فقد كان طرد وإيقاف عدد من الطلبة من النتائج الحتمية للمظاهرة . بالرغم من اعتقاد معمر في باديء الأمر أن تشتت شمل رفاقه سيضر بالحركة نفسها إلا أنه أدرك فيما بعد أن تسرع « البي » في اتخاذ قراره قد أمد الحركة بجانب مضيء آخر .

لم يكن البي أو رجال الشرطة والمباحث في فزان يدركون أن مسيرة الخامس من أكتوبر نظمتها حركة سرية تكرس نفسها للإطاحة بالنظام الملكي . كانوا يعتقدون أنها من تدبير حفنة من الطلبة ألهبت مشاعرهم أحداث خارجية تجري في أماكن أخرى من الوطن العربي وأن طردهم من المدرسة سيلقنهم درساً لن ينسوه أبداً ويخمد عزيمتهم الثورية .

وعلى الرغم من انزعاج والي سبها وقلقه البالغ فإن الحل لم يكن بالنسبة له بالأمر الصعب . كان معمر يقود مجموعة من الطلبة تعمل باستمرار على تثوير الشعب في وقت كانت فيه السياسة المتبعة لدى اجهزة النظام الحاكم الإبقاء على البلاد محايدة . . . . أو بعبارة أخرى متخلفة قدر الإمكان ليتمكن المستغلون من الإستمرار في جني خيرات البلاد الزراعية والنفطية بعد استكشاف النفط . اعتقدوا أن طرد معمر وإحكام الطوق حول أقرب الناس إليه من زملاء الدراسة سيؤدي في اعتقاد الوالي إلى طي صفحة من الصفحات المقيتة لهم .

ولهذا السبب قام «البي» عقب اجتماعه بالطالب معمر مباشرة باتخاذ الإجراءات التي أدت لطرده من المدرسة ووقف عدد آخر من رفاقه عن الدراسة . كانت وثيقة الطرد والوقف الموقعة من وزير التربية والتعليم محمد انجومه تنص على ما يلي :

«قرار صادر عن وزير التربية والتعليم محمد انجومة إلى مدير مدرسة سبها المركزية» .

بعد التحية ، ،

بالإشارة إلى التقرير المقدم منكم ومن نائب مدير مدرسة سبها المركزية ومن

مراقب القسم الداخلي بخصوص الطلبة الذين قاموا بمظاهرة ٥ أكتوبر ١٩٦١ ، فإني أنقل إليكم العقوبات التي نراها ضرورية للتطبيق ضد الطلبة التالية أسماؤهم لارتكابهم أعمالاً لا تتمشي مع واجباتهم الدراسية :

١ ــ معمر أبو منيار القذافي : الطرد من المدرسة مع حرمانه من الدراسة في مدارس الولاية .

٢ ــ المدني الصديق : الطرد من القسم الداخلي بكافة المدارس الحكومية بالولاية .

٣ ــ مصباح الغول : الطرد من القسم الداخلي بكافة المدارس الحكومية بالولاية .

٤ ــ علي أبو غيله : الطرد من المدرسة والأقسام الداخلية لمدة (١٥) يوماً مع إخطار ولي أمره بنص القرار ومطالبته بأن يتكفل بتعنيفه وتأديبه .

٥ ــ إبراهيم اجاد : الطرد من المدرسة وحرمانه من الإقامة في القسم الداخلي لمدة (١٠) أيام وإخطار ولي أمره بنص القرار ومطالبته بأن يتكفل بتعنيفه وتأديبه .

٦ ــ عبد الرحمن الصيد : الطرد من المدرسة لمدة (١٠) أيام وإخطار ولي أمره بنص القرار ومطالبته بالتكفل بتعنيفه وتأديته .

٧ ــ الهادي فضل : الطرد من المدرسة وحرمانه من الإقامة في القسم الداخلي لمدة (١٥) يوماً وإخطار ولي أمره بنص القرار ومطالبته بالتكفل بتعنيفه وتأديبه .

٨ ــ جمعة عبد العزيز : الطرد من المدرسة وحرمانه من الإقامة في القسم الداخلي لمدة أسبوع وإخطار ولي أمره بنص القرار ومطالبته بتعنيفه وتأديبه .

٩ ــ علي البشاري : الطرد من المدرسة وحرمانه من الإقامة في القسم الداخلي لمدة أسبوع وإخطار ولي أمره بنص القرار ومطالبته بالتكفل بتعنيفه وتأديبه .

لقد تم اتخاذ العقوبات أعلاه تطبيقاً لنص القرار الوزاري رقم (٥) الخاص بالعقوبات التأديبية للطلاب . ويطلب من مدير المدرسة المركزية بسبها ومراقب القسم الداخلي العمل على تنفيذ ما ورد أعلاه في أقرب وقت ممكن .

مع وافر الاحترام ،، ،،

محمد الجومة

ناظر التربية والتعليم

قام رجال الشرطة بتوقيع العقوبات على طلبة آخرين حتى قبل صياغة وتوقيع الوثيقة التي تحدد مصير الطالب معمر ورفاقه الثوريين . فما أن أوشك معمر على الانتهاء من إلقاء خطابه في اعقاب مسيرة الاحتجاج في سبها حتى شن رجال الشرطة حملة الاعتقالات . وفي تمام الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم وصل عدد الطلبة المعتقلين إلى ثمانية وأربعين طالبا . لقد تم إعتقالهم بتهم واهية ووجهت إليهم تهمة القيام بمظاهرة غير مشروعة ومخالفة لأوامر الشرطة . واتهم البعض برشق رجال الشرطة بالحجارة وآخرون بإصابة مدير قوات المباحث عبد السلام عبد الله بجروح . وقد استمر اعتقالهم إلى ساعة متأخرة من الليل بعد أن أخذت أقوالهم وتم استجوابهم على يد رئيس الشرطة ووزير العدل الذي حضر إلى سبها خصيصاً لهذا الغرض . وبعد ذلك أطلق سراح جميع المعتقلين باستثناء اثنين منهم هما عبد السلام الشافعي ومعمر عبد السلام. كان الأخير معروفا لدى رجال الشرطة بعد المحاولة الجريئة التي قام بها في شهر مارس من العام الماضي لاطلاق سراح مجموعة أخرى من الطلبة كانت الشرطة قد ألقت القبض عليهم خلال مظاهرة أخرى .

وإلى جانب نجاح الحركة في تأكيد فعاليتها على تنظيم الشعب وإلهاب مشاعره الوطنية التي طالما حاول حكام العهد المباد إخمادها . فقد استطاعت إرباك وقلقلة مختلف الدوائر الرسمية في البلاد ، وأصبح رجال الشرطة والمخابرات والأمن يلقون باللائمة على بعضهم البعض ولم تعترف تلك الإدارات بأنها أخذت على حين غرة أو أنها كانت غير قادرة على منع المظاهرة قبل انطلاقها أو احتوائها بعد ذلك .

وفي تقرير مرسل إلى وزير الداخلية كتب نائب مدير شرطة سبها محمد الشريف ما يلي :—

«سعادة معالي وزير الداخلية»

سيدي ،

يشرفني أن أرفع إلى سعادتكم التقرير التالي :

في الساعة الثامنة إلا ربعاً من صباح هذا اليوم قام الملازم أول علي صالح رئيس شرطة سبها بالإتصال بي في منزلي ليخبرني عن خروج مظاهرة من مدرسة سبها المركزية . فأسرعت على الفور إلى مقر القيادة وقمت بتعبئة القوة المطلوبة ووزعت عناصرها على المواقع الاستراتيجية . وبعد قيامي بهذا العمل اتصلت بسعادتكم وابلغتكم بهذا الحدث وأمرتني أن أترك المظاهرة تواصل مسيرتها لفترة قصيرة على أن أفرقها بعد ذلك لأن الحكومة الاتحادية محايدة تجاه مشاكل العالم العربي الخ . . . وبعد أن وصلت إلى الحي الجديد عاد المتظاهرون واكتظوا وسط الشارع الرئيسي المؤدي إلى مقر الشرطة والمدرسة . ثم مالبثوا أن عادوا مرة أخرى واتجهوا إلى حي القرضة . وبعد ذلك اتصلت بوزارة التربية والتعليم ولم أجد أحدا من المسئولين في عمله غير مفتش المدارس القرآنية ، فرجوته أن يبلغ المسئولين بالأمر ومحاولة حث الطلاب على العودة إلى مدرستهم وانهاء المظاهرة . ولكنه اخبرني بأن مدير المدرسة/الوافي القاضي موجود بالوزارة فاتصلت به وأخبرته بأن يقوم من ناحيته ببذل مساعيه الحميدة والتدخل لإنهاء المظاهرة ووعدني بأن يبذل قصارى جهده . ولسوء الحظ استمرت المظاهرة بعد ذلك حتى اقترب المتظاهرون من قصر الوالي ورشقوا قوات الشرطة بالحجارة . عندما سمعت هذه الأخبار ذهبت بنفسي إلى المتظاهرين لأقودهم إلى المدرسة . لقد رجونا الطالب معمر بإنهاء المظاهرة وأخبرني أنه سيقودها إلى المدرسة الثانوية ولكني رفضت وطلبت منه التوجه إلى المدرسة المركزية وإنهاءها هناك .

إن هذه المظاهرة لم تكن ضد سياسة هذه الدولة ، إلا أن خروج المظاهرة التي اشترك فيها الطلبة والموظفون دون الحصول على إذن مسبق من السلطات المختصة أدهشني ، الأمر الذي يتضمن عدم اكتراث وخروج على القوانين والأنظمة السائدة . لقد أصبح طلاب مدرسة سبها الثانوية والإعدادية مصدر إزعاج للأمن وللنظام العام . إن أفعالهم يمكن أن تعرض أرواح وممتلكات المدنيين لخطر

حقيقي . إن استفزازهم لرجال الشرطة ورشق رجالنا بالحجارة بات أمراً لا يمكن احتماله والسكوت عليه . لقد حاولوا فرض إرادتهم عندما قاموا بقيادة المظاهرة نحو منطقة « العويه » .

سعادة الوزير ، أرجو من سعادتكم الإتصال بالجهات الرسمية العليا للعمل على تطبيق إجراءات صارمة ضد الطلبة لردعهم حتى لا تتكرر مثل هذه الافعال الطائشة في المستقبل . لقد قمنا بكتابة عدة تقارير في الماضي ضد المتظاهرين ، ولسوء الحظ لم تتخذ ضدهم أية إجراءات .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير

محمد الشريف
نائب رئيس الشرطة

كما أرسل نائب رئيس الشرطة تقريراً آخر إلى رئيس الشرطة الجنائية وصف فيه الاحداث التي جرت في الخامس من أكتوبر بما يلي :—

صاحب السعادة رئيس الشرطة الجنائية المحترم

انطلقت مظاهرة كبيرة في الساعة السابعة والنصف من صباح هذا اليوم من مدرسة سبها المركزية . وفي أثناء اختراقها شوارع المدينة انضمت أعداد كبيرة من المواطنين إلى جموع الطلبة . وكان المتظاهرون يرفعون علم الجمهورية العربية المتحدة وشعارات أخرى . لقد علمت بأخبار المظاهرة من الملازم أول علي صالح ، رئيس شرطة سبها ، عند الساعة ٤٥ : ٧ من صباح هذا اليوم . وما أن سمعت بالنبأ حتى هرعت إلى مقر القيادة . إن صنع علم الجمهورية العربية المتحدة وكتابة الشعارات وتنظيم المظاهرة لا يمكن تفسيرها إلا بأن المظاهرة قد سبق الإعداد لها منذ أسبوع على الأقل وأنت تجهل هذه الحقيقة . إن من واجب رجال المباحث أن يكونوا أول من يعلم ويكشف التنظيم السري للمظاهرة والجرائم أو أي مسألة قد تمس السياسة العليا وأن تعمل على إحباط أي عمل كهذا . ولكننا نأسف أشد الأسف لعدم حصولكم على معلومات مسبقة عن هذه المظاهرة . أين رجال المباحث وما هي وظيفتهم ؟ إنك مطالب بإبلاغ رجالك بأن

يكونوا أكثر حرصاً وحذراً في المستقبل والكشف عن كل ما من شأنه أن يعرض الأمن والنظام للخطر قبل وقوعه .

مع أطيب تحياتي ،
المقدم محمد الشريف
آمر الشرطة بالوكالة

ظن رجال الزمرة الحاكمة في سبها أنهم قاموا بتأدية واجباتهم على الوجه الأكمل بمجرد تدوين هذه الوقائع التي توصلوا إليها طي تقاريرهم وأنهم سينامون قريري الأعين بعد طردهم للطالب معمر ورفاقه من الولاية . ولكن خابت كل ظنونهم واعتقاداتهم وفي الحقيقة فإنهم لم يكونوا أكثر خطأً من اليوم .

أدى طرد الطالب معمر من المدرسة إلى خلق مشكلة آنية سرعان ما تغلب عليها عندما حط به المقام في المدينة القديمة بطرابلس ذات الأزقة الكثيرة الزاخرة بأعداد جمة من الحرفيين الذين يعملون بجد وعزيمة ليحيلوا المواد الجلدية والنحاسية الخام إلى تحف مصنعة رائعة . وبينما هو يسير وسط تلك الأزقة راح معمر يفكر في إنشاء خلايا سرية جديدة إلى جانب تلك التي سبق تكوينها في زليطن والخمس وجنزور .

إن العقوبات القاسية التي أنزلتها السلطات الحاكمة بالطلبة في سبها في أعقاب قيامهم بمظاهرتهم ، لم تؤثر على الحركة ولم توقف مسيرتها ولكنها على العكس من ذلك تماماً فقد أعطتها دفعاً جديداً وعزيمة قوية على مواصلة العمل ونشر مبادئها في أماكن أخرى من ليبيا المترامية الأطراف .

٧ — البديل

مصراته — يوم في أوائل عام ١٩٦٢

ما أن غادر الطالب معمر مكتب مدير مدرسة سبها المركزية حتى أدرك مدى قربه مرَّة أخرى من المصائب الشخصية. لقد استراح منها لفترة وجيزة بسبب جهود السنوسي النجار الذي كان شخصاً متفهماً وربما ميالاً إلى التعاطف نحو العزيمة الثورية التي لا بد وأن استشفها في شخص هذا الشاب الثائر.

بدت أمارات الانفعال والغضب واضحة على معمر وهو يندب حظه المتعثر الذي لم يسعفه لمواصلة تعليمه ، ولكنه استطاع هذه المرة أيضا التغلب على هذه المشكلة بثقة وإيمان . غادر ابن رجل البادية المدرسة في ظهيرة يوم شديد الحرارة وراح يمشي وهو يتصبب عرقاً إلى أن وصل إلى السوق في قلب المدينة حيث الباعة الطاعنون في السن يجلسون القرفصاء ليبيعوا حصادهم الذين قضوا بقية ما تبقي لهم من عمر في إنتاجه .

بعد طرده من سبها وإقامته القصيرة في طرابلس واصل العمل في تنظيم الخلايا السرية ، قرر معمر أن يشد الرحال إلى مدرسة أخرى في مصراته . إن هذه المدينة التي توجد في موقع أكثر قرباً من مدينة سرت ، مسقط رأسه لم تكن في وقت من الأوقات مدينة مزدهرة إلا بعد قيام الثورة وانشاء ميناء بحري بها فقد أفقدتها أهميتها موانئ طرابلس المكدسة بالبضائع والمكتظة بالحركة التجارية.تقع مدينة مصراته على الساحل الجنوبي للبحر على بعد مائتي كيلومير شرقي مدينة طرابلس ، لقد كانت مدينة مصراته سباقة دائما لاحتضان الغايات والأهداف النبيلة بكرم وسخاء. إن عدم احتراف أهلها للتجارة وابتعادهم عن الزراعة أدى إلى ضآلة ثرواتها أو انتعاشها ، وفقاً لقدرة أهلها على استصلاح أقصى ما يستطيعون من الأرض الزراعية ليعيشوا في صراع مستمر مع ظروف مناخية قاسية لا ترحم .

وبينما كان معمر يسير في الشارع قرب المسجد المؤدي إلى السوق راح يفكر في

الرتابة المملة التي تمر بها الأيام دون أن تحمل في طياتها أي تغيير وبدأ يؤنب نفسه لأنه سمح لعواطفه بأن تطغى على أعماله .

* * *

هب طلبة الفصل واقفين في حركة بدت من الدقة كأنها حركة آلية باستثناء طالب واحد عندما انفتح الباب وارتطم بجدار الفصل ليدلف منه المفتش جونسون ، الذي لاحت على وجهه أمارات الثقة بالنفس المشوبة بالغطرسة . جال المشرف على تعليم اللغة الإنجليزية ببصره يرمق الطلبة بعين فاحصة ما لبثت أن تركزت على معمر الذي ظل جالسا .

حاول المفتش في بادئ الأمر إغفال ما حدث له متظاهراً بعدم اهتمامه وإن كان الضيق قد استبد به بغير حدود .

وبحكم مهنته فقد طاف مفتش اللغة الإنجليزية البريطاني الجنسية دولاً عديدة كانت تقع تحت النفوذ البريطاني قبل مجيئه إلى ليبيا . وكان حلم الامبراطورية البريطانية مازال يراوده مما أدى إلى عكس هذه الأفكار والمعاملة على شعوب تلك البلدان .

حاول جونسون دون جدوى أن يغض الطرف عن معمر ثم راح الطالب الجرئ يلوح بسلسلة مفاتيح أمام عيني المفتش الشاخصتين . . . سلسلة عادية بسيطة بأحد طرفيها صورة صغيرة لجمال عبد الناصر وفي الطرف الآخر مفتاح . أخذ جونسون يعي تماماً ما يرمي إليه هذا الشاب ، إذ لم يكن قد غاب عن ذهن المفتش البريطاني ثورة مصر في عام ١٩٥٢ وأزمة قناة السويس في عام ١٩٥٦ . كان المفتش جونسون شديد التعصب للسياسة الاستعمارية البريطانية . لاح جلياً أن معمراً لم يعد قادرا على كبح جماح ما يعتمل في أعماقه من غضب وثورة. إنه يستطيع أن يرى بوضوح نظرات الازدراء تنطلق من عيني جونسون . ولكنه لم يكن يدرك بعد السر وراء هذه النظرات الحاقدة . كان جونسون أول اجنبي يواجهه في حياته . أحس معمر بنظرات الاستياء المنبعثة من جونسون ولكنه كان يشعر أيضاً بأنها متبادلة .

أطبق الصمت على الغرفة ولم يغب عن بال جونسون أنه قد أوقع نفسه في ورطة لأنه إذا سمح لهذا الطالب بأن يبقى متشبثاً بمكانه وعدم النهوض احتراماً له فإنه سيفقد السيطرة على بقية طلاب الفصل . وتمنى لو أنه تجاهل الموقف

تماما . وفجأة صاح بصوت عال قائلاً لمعمر «انهض وغادر الفصل» نهض الطالب من على مقعده ودس السلسلة ببطء داخل جيبه وبدأ يسير نحو الباب . وما أن وصل نصف الطريق حتى توقف فجأة عن السير والتفت نحو المفتش وهو يقول له بلهجة عنيفة «إنك أنت الذي يجب عليك أن تغادر نهائيا ، ليس هذه الغرفة بل البلاد» .

وبعد أن دلف إلى الممر الخارجي الطويل وقف منتظراً خارج الفصل وهو موقن بأن ما حدث له قبل لحظات لن يمر دون رد فعل . وبالرغم من غضبه الشديد إلا أنه كان يحاول الابتعاد قدر الإمكان عن الأمور السياسية العلنية في ذلك الوقت بالذات . لقد علمته تجاربه السابقة أنه من الأجدى له أن يبتعد عن ذلك لتلافي حدوث اصطدامات أخرى مع السلطات المدرسية التي يجب الإعتماد عليها إن أراد إكمال مرحلته الدراسية سواء أرضي بذلك أم لم يرض .

بذل معمر تضحيات جمة في سبيل تحصيله العلمي من جانبه شخصياً ومن جانب والده المزارع الذي كان بحاجة ماسة إلى مساعدته للعمل معه في المساحة الصغيرة من الأرض التي قام باستصلاحها لكسب معيشته . وبالمقارنة مع العديد من الشبان الآخرين الذين هم في مثل سنه ، كان يحس بأن الله منحه قدراً كبيراً من حسن الطالع وسعده ، فقد أتاح له فرصة الدراسة التي طالما تاق إليها . وأدرك أن من واجبه ألا يضع العراقيل أمام نفسه . بعد اليوم كيلا يضيع تعب السنين السابقة هدرا .

وبينما هو مستغرق في هذه الأفكار إذ بأحدهم يستدعيه للمثول أمام مدير المدرسة الاستاذ السنوسي النجار . أيقن الثائر بأن مفتش اللغة الإنجليزية لا بد وأن قام برفع تقرير عن سلوكه في الفصل إلي المدير . إلا أنه شعر في الحقيقة بارتياح عميق وهو يجلس في غرفة المدير المتزن الهاديء الطباع . كان المدير يجلس خلف مكتبه المتواضع كما لو كان قد أمسك بزمام الموقف وهو يسدي بنصائحه الأبوية الصادقة إليه . قال المدير للثائر الجالس أمامه : إنني أنصحك يا بني بعدم الانفعال السريع والسيطرة دائماً على نفسك ، ثم أردف قائلا : «افعل ما يفعله عبد الناصر» .

شعر معمر بارتياح عميق لأن الموقف لم يتفاقم إلى الحد الذي كان يتصوره ، وما أن غادر مكتب المدير حتى انطلق صوب الميدان الكبير الذي كان يشكل النقطة الرئيسية في سوق مصراته . . . إلا أنه توقف لبضع دقائق للتحدث إلى

ناسخ كبير في السن يجلس القرفصاء داخل دكانه الصغير تحت سقف أحد الأقواس الضخمة التي كانت العلامة المميزة للسوق . كان الشيخ الطاعن في السن يقوم بكتابة وقراءة عشرات الرسائل والوثائق للأميين الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى لسكان المدينة . استمر الحديث لبضع دقائق ثم واصل السير بعيداً عن صخب السوق حتى وصل إلى صف من أشجار النخيل الباسقة وجلس ليستريح تحت ظلال نخلة فارعة الطول ليتناول طعامه المدسوس داخل جراب قديم للجيش كان قد ابتاعه أثناء إقامته القصيرة في طرابلس .

منذ تأسيس الخلية السرية الأولى في سبها بدأت حركة التنظيم السري تتصاعد يوماً بعد يوم . وبالرغم من إثبات الحركة مقدرتها على تنظيم الشعب ، كما حصل خلال مظاهرة سبها ، الا انها لم تكن قادرة على التوغل داخل المؤسسات الكبرى في البلاد .

كانت فكرة معمر الأولية أن يقوم الرجال المنخرطون في الخلايا السرية بمحاولة التوغل داخل كل إدارة ومنظمة حكومية وخصوصاً في الموانئ والمنائر والإذاعة . . . حيث تم بالفعل دخول بعض العناصر إليها من أفراد الخلية الأولى . . . بهدف تجنيد أعضاء جدد للعمل من الداخل لإجراء التغيير المرغوب في البلاد . فلم يكن في نية معمر أو الأشخاص الذين التفوا حوله اللجوء إلى استخدام القوة لتحقيق أهدافهم .

وعلى العكس من ذلك تماماً ، فقد كان يفضل تكوين منظمة قوية للسيطرة على كافة المراكز الرئيسية والعمل على تحقيق العدالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لجميع أفراد الشعب . وبعبارة أخرى فقد كان معمر يعتقد أن بإمكانه تحقيق تغيير في البلاد لا عن طريق العمل العسكري بل من خلال إيجاد نظام حكم شعبي يتم إعداده بإتقان يرمي إلى تنصيب الشعب الذي أفرز الخلايا الثورية ليكون على رأس الإدارات والمنظمات الجوهرية في البلاد لكي يتمكنوا من وضع سياسات جديدة وقيادة البلاد نحو مسار وآفاق جديدة .

بدأ أعضاء الخلايا السرية الأولى العمل نحو هذا الإتجاه المنشود . وبالرغم من شدة تحسبهم وتصميمهم على أداء واجباتهم ومن تحقيق بعض النجاح . . . فإنهم سرعان ما أدركوا أن استمرارهم على هذا النحو ربما يؤدي إلى نتائج عكسية لأن الظروف المحيطة وعوامل أخرى غير متوقعة ستجعل من المستحيل على أعضاء

الخلايا السرية التغلغل داخل المؤسسات الكبرى وخصوصاً داخل المكاتب الحكومية الواسعة الانتشار. فلم تكن الأسباب مستعصية الفهم والإدراك . . . كانت الثروة والسلطة متركزة في يد حفنة من الناس وبات واضحاً للعيان أن الطبقة الحاكمة لن تقوم فقط بمجرد رفض الإنضمام إلى التنظيمات الشعبية التي تسعى إلى إصلاح الوضع السائد في البلاد بل ستعارض بكل ما أوتيت من قوة أي شخص يحاول ان يقف في طريقها ليسلبها امتيازاتها التي كانت تنعم بها على حساب الشعب .

وإلى جانب ذلك لم يعم الفساد واللامبالاة بالحاجات الحقيقية لأفراد الشعب الجهات العليا في الإدارات الحكومية فحسب ، بل كان كالداء المستشري الذي لم تسلم حتى الجهات الأقل شأناً من الإصابة به . وساد البلاد جو مشوب بالفوضى حيث بات المترفون الذين كانوا يتقلدون المناصب العالية في الإدارات الحكومية أو القابعون خلف مكاتبهم الفاخرة في مؤسساتهم الخاصة من أشد الناس معارضة لأي تغيير من شأنه أن يحد من سرعة انطلاق عربة اللصوص التي كانوا بداخلها .

كانت هناك مصالح شخصية كثيرة وأخرى متعارضة معها على أعلى المستويات في الإدارة حتى بات معها التغلغل المذهل الذي انتهجه معمر ورفاقه الثوريون كوسيلة لتغيير نظام الحكم السياسي والإداري في البلاد ، يبدو معرضاً للفشل الأكيد .

عمّ الفساد البلاد بشكل مخيف لم يسبق له مثيل حتى صار كالسرطان الخبيث الذي ينتشر في جسم المصاب بسرعة مذهلة يصعب معها الحد من تفاقمه معرضاً مستقبل البلاد وشعبها للخطر ويقف حاجزاً منيعاً يصعب اجتيازه بالوسائل التقليدية .

أدرك معمر بمرارة أن كل ما كان يسعى جاهداً إلى تحطيمه وسحقه قد بات يثبت وجوده بكل خزي وخسة . وأمام هذه الحقائق المفجعة كان لا بد من التخلي عن خطة التغلغل الشعبي داخل المؤسسات الرئيسية في البلاد والبحث عن بديل آخر وأخيراً اهتدى معمر إلى هذا البديل. اعتقد الشاب الثائر أن الرد الحاسم يكمن في الجيش . . . عن طريق استخدام القوات المسلحة في البلاد كوسيلة لقلب النظام الملكي وتولي مقاليد الحكم في البلاد وقيادة الشعب نحو الأفكار والمبادئ الثورية .

٨ ـــ الأيـام العصيبــة

القاهرة ـــ يوليو ١٩٦٢

راح محمود ألني ينتظر أمسية مليئة بالعمل إستعداداً لإلقاء محاضرة بعد بضعة أيام إلى مجموعة من الطلبة في إحدى المدارس الثانوية بالمدينة. كان محمود معجباً بمادة التاريخ التي كان يقوم بتدريسها منذ سنوات طويلة. وأراد أن يراجع في تلك الأمسية المذكرات التي كان قد أعدها لمحاضرته. وقبل الرجوع إلى شقته السكنية المتواضعة التي كان قد استأجرها في إحدى ضواحي القاهرة. عرج علي مكتب البريد لاستلام| بريده اليومي. استغرب محمود عندما وجد بين رسائله رسالة من ليبيا. ومما زاد في استغرابه استطاعته تمييز خط الكاتب على ظرف الرسالة الذي كان خط أحد طلابه الذين قام بتدريسهم في تلك البلاد.

قاوم محمود دافعاً مفاجئاً حثه على قراءة الرسالة أمام صندوق البريد، ولكنه قرر إرجاء قراءتها حتى يصل إلى شقته. إلا أنه لم يستغرب محتويات الرسالة أو السبب الذي دعا الطالب معمر إلى الكتابة إليه.

كان محمود يتذكر تماماً ذلك الشاب الثائر الذي أعجب به كثيرا، إذ عادت به الذاكرة إلى الوراء . . . إلى العام الدراسي ١٩٥٨/١٩٥٧ عندما كان يعمل مدرساً لمادة التاريخ في مدرسة سبها الإعدادية. كان محمود مرتبكاً مثله في ذلك كمثل المدرسين الآخرين عندما يدخلون الفصل لأول مرة ليلتقوا بطلابهم الجدد وسرعان ما تذكر أنه قرر يومها أجراء اختبار ذكاء للطلبة من خلال إلقاء محاضرة قصيرة. ونظراً لإلمامه التام بالموضوع الذي كان يقوم بتدريسه، شرع المدرس يخبر الطلبة بأن التاريخ قد علمنا أن الصراع بين القوى الرجعية وبين القوى التقدمية سيؤدي حتماً الى انتصار القوى الأخيرة. تذكر محمود الصمت المطبق الذي ساد المكان وتذكر أيضاً الطالب الثائر الذي كان يجلس في الصفوف الخلفية للفصل وهو يطلب الإذن بالتحدث رافعاً يده اليمنى.

سأل الطالب معمر المدرس الجديد «ألم تهزم القوى التقدمية أبدا؟» فأجابه المدرس :

«قد تهزم القوى التقدمية مؤقتا، ولكن هزيمتها لن تدوم طويلا. وبعبارة أخرى فإذا ما خسرت القوى التقدمية معركة إلا أنها ستكسب الحرب في النهاية» .

اعترف محمود بأنه كان مندهشاً لهذا السؤال وأخذ يمشي ببطء داخل الفصل ليرقب عن كثب كيف سيكون رد الفعل عند الطالب معمر وهو يستمع إلى الإجابة حيث بدا وكأنه راضٍ تماماً عنها . كانت هذه بداية العلاقات الطيبة بين المدرس وطالبه .

جالت هذه الخاطرة وذكريات أخرى كثيرة بفكر محمود عندما جلس على أريكة مريحة داخل غرفة صغيرة في شقته المستأجرة . كان يستعملها كحجرة مطالعة ومكتبة . . . وفض الرسالة ليخرج الورقتين المرسلتين إليه من معمر .

وبدأ محمود بقراءة محتويات الرسالة بتمعن وروية وفجأة تغيرت معالم وجهه وبدا الامتعاض واضحاً عليه عندما قرأ نبأ طرد معمر من مدرسة سبها المركزية والمصاعب التي ألمت بهذا الطالب الثائر .

تذكر المدرس عندها ما سبق وأن قاله للطالب معمر :

«ستصبح في يوم من الأيام إما بطلاً أو سجينا» . حدث ذلك في أعقاب الزيارة غير المتوقعة التي قام بها الفتى الثائر وأفضى إليه خلالها بطريقة ذكية جداً بميوله الثورية . كان ذلك في أمسية يوم قارس البرودة . . . من تلك الأيام المعدودة لذلك الطقس العاصف الذي كان يهب على المناطق الصحراوية في ليبيا . كان محمود قد عاد لتوه إلى المنزل عندما سمع طرقة غير متوقعة على باب منزله . وكمْ كانت دهشته عندما وجد الطارق الطالب معمر وصديقه حسين الشريف الذي كان يرافقه دائماً كما لو كان ظله . أذن محمود لهما بالدخول وقبل بامتنان الهدية التي حملها معمر إليه . . . والتي كانت صندوقاً خشبياً صغيراً مليئاً بالتمور الطازجة التي تشتهر بها منطقة فزان .

طلب محمود إلى تلميذيْه الجلوس، فترددا قليلا قبل أن يجلسا على أريكة وضعت على أحد جوانبها صحف مصرية كانت قد وصلت مؤخراً من القاهرة . بدأ الحديث رسمياً في باديء الأمر ، ولكن المدرس شعر بأن شيئا ما لا يدرك كنهه بعد يجول بذهن الطالب الثائر يريد أن يقوله له دون أن يدري كيف يفاتحه به .

وبعد أن شجعه مدرسه على البوح بما لديه ، دس الطالب يده في جيبه وأخرج منها قصاصة ورقية ليسلمها إلى محمود .

مازال محمود يتذكر الأسئلة الثلاثة التي احتوتها تلك القصاصة الورقية. ثلاثة أسئلة تبدو بسيطة ولكنها تحمل في طياتها أموراً جد خطيرة ، لم تترك أدنى شك في ذهن أستاذه المصري لمادة التاريخ بأن معمرا ، ذلك الطالب الذي كان يفكر ويقرأ كثيراً لم يكن سوى قائد ثوري في بداية الطريق .

في تلك القصاصة ، كتب معمر الأسئلة التالية :

. . . ما هو التنظيم الهرمي وما هي أنجع وسيلة لتشكيله ؟

. . . هل هنالك إمكانية لقيام الثورة في ليبيا ؟

. . . إذا ما حدث وأن قامت الثورة في ليبيا، فهل تهب مصر لنجدة الشعب الليبي ؟

اهتز محمود بقوة من شدة وقع هذه الأسئلة ، ولكنه قرر الإجابة عنها بأقصى ما يستطيع. شرح المدرس للطالب الثوري مبادئ التنظيم الهرمي ومقدار العمل الذي يحتاجه تشكيل بنيانه الذي تتبوأ فيه القيادة القمة وكيفية تنسيق أنشطة الإدارات المختلفة الأقل شأناً في التنظيم . كما بين له ضرورة الإبقاء على إدارات التنظيمات مستقلة عن بعضها البعض وفي بعض الحالات الإبقاء على بعض الإدارات مجهولة تماماً لدى الإدارات الأخرى .

شرح محمود الواجب الصعب الذي ينتظر القيادة المركزية للحصول على الكفاءة القصوى والتنسيق الأمثل. أنصت الشاب المتحمس لشرح مدرسه باهتمام بالغ دون أن يقاطعه في الكلام كما لو كان يستوعب كل كلمة كان يتفوه بها مدرس التاريخ الذي أخبره أيضاً بأن كل ثورة تحتاج بلا شك إلى دعم وتأييد الجيش لها .

أما أذا حدث وأن وقعت ثورة في يوم من الأيام في ليبيا فإن مصر لن تقف مكتوفة الأيدي وستدعم أي حركة ثورية في ليبيا .

ارتسمت علامات الارتياح والسعادة على وجه معمرعند سماعه هذا القول .

كان مدرس مادة العلوم بالمدرسة شعلان عبد الخالق موجوداً بالصدفة أيضاً بالغرفة معهم في زيارة عائلية لزميله محمود. وقد لاحظ شعلان أن الطالب معمر كان هادئ الطبع ويبدو سعيداً تماماً لهذه الجلسة بعكس صديقه حسين الذي

بدت عليه علامات التململ وعدم الارتياح بعض الشيء .

وعندما أتم محمود الإجابة عن الأسئلة الثلاثة سلَّم الورقة إلى شعلان وسأل معمر هذا السؤال :

«هل أطلعت أحداً غيرى على محتويات هذه الورقة» ؟

فأجابه معمر بالنفي بينما راح شعلان يضرم النار بها حتى تحولت إلى رماد خوفاً من أن تقع بطريق الخطأ في يد شخص آخر وعند هذه اللحظة نظر محمود إلى معمر وقال له :

«من الأفضل لنا جميعاً من الآن فصاعداً أن تبقي الأسئلة وإجاباتها راسخة في أذهاننا .

كانت هذه الزيارة فاتحة عهد جديد من التفاهم بين الطالب ومدرسه محمود . أخذ معمر يزور مدرس التاريخ بانتظام ويحصل منه على الصحف والمجلات المصرية من بينها جريدة الأهرام ــ لسان حال الحكومة الثورية في مصر آنذاك ــ ومجلة روزا اليوسف ومجلة صباح الخير . وما أن أدرك محمود الإهتمام الكبير الذي كان يبديه معمر نحو الاطِّلاع حتى بدأ يزوده بالمزيد من الكتب السياسية من المركز الثقافي المصري في طرابلس ومن مكتبة المدرسة . وقد علم فيما بعد أن هذا الطالب الثائر كان يعير تلك الصحف والكتب بدوره إلى طلبة آخرين حاثاً إياهم على قراءتها وتحليل محتوياتها ليعقد بعد ذلك جلسات لمناقشتهم فيما قرأوه .

صادف محمود خلال خبرته الطويلة التي قضاها في تدريس مادة التاريخ الآفاً من الطلبة ولكنه لم يصادف أحداً مثل معمر الذي يمتلك قدرة كبيرة على التركيز العميق وتذكر ساعتها الأوقات الطويلة التي كان يقضيها الطالب المتحمس في فناء المدرسة وهو يسير دائب الفكر واضعاً كعادته يده اليمنى في جيب معطفه . تراءى لمحمود في بعض الأوقات أن باستطاعة الطالب معمر أن يفصل نفسه تماماً عن كل ما يدور حوله والتركيز بأفكاره كما لو كان على بعد مئات الأميال من مكانه .

كان محمود يقسم طلابه الى ثلاث مجموعات مختلفة . فمنهم مجموعة لا تكترث على الإطلاق للدراسة والتحصيل العلمي وتشعر بالضجر حتى من مجرد الإستماع إلى الدروس العادية في الفصل . وهناك مجموعة أخرى أكثر استجابة وإقبالاً على

تلقي العلم والاستفادة من المجموعة الأولى . أما المجموعة الثالثة فإنها قادرة دائماً على استيعاب دروسها في فترة قصيرة نسبياً كما لو كان لديهم الاستعداد الفطري على تخزين المعلومات لاستخدامها فيما بعد لزيادة معرفتها . وكان معمر في نظره من المجموعة الثالثة .

* * * * *

ابتسم محمود وهو يطوي الرسالة التي استلمها من معمر ووضعها في نفس الظرف البريدي . لقد أدرك تماماً المشاعر التي كانت تدور بخلد هذا الشاب اليافع كما أدرك أيضاً أن المصاعب التي تواجهه كانت عويصة إلا أنه واثق تماماً من نجاح معمر في التغلب عليها . ولم يندهش عندما انبأه معمر أنه لن يتخلى عن أفكاره الثورية أبدا وتمنى ساعتها لو استطاع أن يقابل معمرا ليقول له هذه المرة فقط : «ستكون في يوم من الأيام بطلا» .

٩ ــ الحركــة

طلميثه ــ ٩ أغسطس ١٩٦٤

كان يوماً شديد الحرارة حتى بمقاييس الطقس في شمال القارة الإفريقية ، فزخر الشاطئ واكتظ بمن تقاطروا إليه من المدن والقرى المجاورة يبحثون في لهفة عن ملاذ يقيهم حرارة الصيف اللافحة . كان الشاطئ يعج بالأمريكيين العاملين في شركات النفط والجنود البريطانيين الذين وفدوا إليه من معسكراتهم القريبة في بنغازي وطبرق ، ولفيف من الإيطاليين أصحاب الإقطاعيات الشاسعة من الأرض الزراعية التي استولوا عليها في طرابلس والمناطق المجاورة ، والأثرياء الليبيين المترفين وعدد ضئيل من القرويين الذين تقاطروا بدورهم إلى الشاطئ القريب في صبيحة أول يوم من أيام عيد الفطر .

انطلق بعض رواد الشاطئ يسيرون الهوينى أو يتمايلون تمايل النشوان طرباً أو يجلسون القرفصاء على امتداد شاطئ يأخذ بالألباب لروعة رماله الناعمة الذهبية بينما أخذت أمواج البحر المتلاطمة تكشف ولا تلبث أن تحجب الآف الوجوه الباسمة الضاحكة وهي تعلو وتهبط معانقة رمال طلميثة برتابة تكاد تبعث على الملل .

وفي ظل الأكواخ العديدة بألوانها المتباينة البديعة التي انتشرت على امتداد الشاطئ جلست مجموعات من النساء والرجال تتجاذب أطراف الحديث ، بينما انطلق الأطفال في فرح ومرح يصيحون ويلعبون ، يركض الواحد منهم خلف الآخر أو يتشاجر مع غيره على نحو يدفع بذويهم الذين ضاقوا ذرعاً بتصرفاتهم ، إلى انتهارهم في رقة ولطف... حشد متباين من البشر تضيع معالمه في بحر خضم من الوجوه المتباينة والأصوات المتنافرة التي بدت وكأنها تفسد الهدوء المخيم على الأطلال التاريخية المنتصبة فوق رمال طلميثه .

كانت المدينة تعرف قبل القرن الثالث الميلادي بمدينة «المرج» إلى أن جاء الملك

طلميثه الثالث ليخلع اسمه على هذا الميناء الزاخر بالنشاط التجاري ، بعد زواجه من الأميرة « بيرينيس » أميرة شحات . ولما جاء دور الرومان ليحتلوا معظم شمال إفريقية أصبحت طلميثه عاصمة شحات وأخذ سكانها يتزايدون وعلا شأنها عندما أصبحت عاصمة للولاية قبل القرن السابع الميلادي . ولم تفقد طلميثه سحرها وأهميتها في ظل الحكم العربي فموقعها الاستراتيجي على امتداد ساحل البحر المتوسط مع ما تضمه من حصون وقلاع أضفى عليها أهمية عسكرية كبيرة .

فوق هذا الشاطئ راح معمر يجول ببصره تتنازعه مشاعر وأحاسيس داخلية امتزج فيها الحذر مع حُب الاستطلاع وهو يشق طريقه على عجل صوب قوس الأتراك لحضور اجتماع سري كان من المقرر عقده بعد ظهر ذلك اليوم واضعاً في اعتباره أن أعضاء الحركة أو على الأقل السواد الأعظم منهم قد سبقوه إلى المكان المحدد . وسرعان ما اختفى وسط الجماهير الصاخبة دون أن يلحظه أحد ليتخذ مكانه بين بقية الضباط الوحدويين الأحرار .

* * * * *

بات معمر أكثر اقتناعاً من أي وقت مضى باستحالة القيام بالثورة دون اللجوء إلى الجيش كوسيلة للإطاحة بالنظام الملكي الحاكم .

وقد تم إنشاء الحركة لتحقيق هذا الهدف المنشود . وانطلاقاً من هذا المفهوم الثوري الجديد قام الشاب الثائر بتشكيل اللجنة المركزية التي أصبحت عضويتها حكراً على الطلبة العسكريين . كانت اللجنة المركزية تمثل القيادة العليا في « التنظيم الهرمي » للحركة . وفي قاعدة التنظيم وجدت « اللجنة الشعبية » التي كانت تعمل بمنأى عن اللجنة المركزية . واجهت اللجنة الشعبية في بادئ الأمر الكثير من العقبات والصعاب ولم تكن مهمتها يسيرة وسهلة حيث أدى جو الخوف الذي غذاه الإرهاب والقمع في البلاد إلى عدم انتشار أعضائها وتغلغلهم في صفوف الشعب وأصبح أمراً في غاية الصعوبة على عكس ما كانوا يتمنونه .

كان الجو مازال مشحوناً بالخوف والتوتر خصوصاً وأنه لم يمضِ وقت طويل بعد على أحداث يناير عندما أطلقت قوات الامن النار على جماهير الطلبة الثائرة مما أدى إلى مقتل وجرح أعداد كبيرة منهم . كانت « الجريمة » التي ارتكبوها هي

قيامهم بتنظيم اجتماع لتأييد أول قمة عربي يعقد في تاريخ الأمة العربية في الرابع عشر من ذلك الشهر.

ما أن أتم معمر دراسته في سبها ومصراته حتى قرر الالتحاق بالكلية العسكرية وتشجيع الأعضاء الآخرين في الحركة بأن يحذوا حذوه. وبالرغم من ذهاب بعضهم إلى الجامعة إلا أنهم عاهدوه على الولاء للأهداف التي أقسموا عليها. واستمر الاتصال بين أعضاء التنظيم حتى بالنسبة لأولئك الذين اختاروا إتمام دراستهم الجامعية خارج البلاد مثل محمد الزوي. وفي الحقيقة فإن وجود البعض في الخارج قد أصبح فيما بعد حركة وصل مهمة بالنسبة للحركة للاطلاع على مجريات الأحداث خارج البلاد. كان محمد الزوي وغيره من أعضاء التنظيم يرسلون الكتب والمطبوعات الأخرى ذات الفائدة الكبيرة والنفع الأكيد للحركة.

كانت الاستعدادات للإطاحة الفعلية بالنظام الملكي الحاكم مازالت تسير ببطء وحذر شديدين. كان ذلك إجراء ضرورياً بسبب قيام السلطات الحاكمة في البلاد باتخاذ جانب الحيطة والحذر أكثر من أي وقت مضى خوفاً من تسرب الأفكار الثورية المعادية لهم من عبر الحدود الشرقية.

في تلك الآونة، كان جمال عبد الناصر يقود مصر إلى ثورة لم تشهد الأمة العربية لها مثيلاً من قبل. ولا شك أن الأحداث الثورية الجبارة التي كانت تجري على الساحة المصرية وجدت وقعاً سيئاً لدى السلطات الحاكمة في ليبيا. فقد كان حكام العهد الملكي يخشون من أن ينتشر «داء الثورة» عبر الحدود إلى ليبيا ويؤجج لهيب الثورة في نفوس الجماهير الليبية ويستقر في بلد عربي غني بثرواته الطبيعية والتقليدية. والآن وبعد مضي عشر سنوات على قيام الثورة في ليبيا، انعكست الصورة تماماً فباتت مصر السادات تخشى على نفسها من ثورة الفاتح من سبتمبر وأفكارها القومية التقدمية.

أخذت السلطات الليبية تفرض إجراءات صارمة وعنيفة على كل من تسول له نفسه القيام بأي نشاط يمكن وصفه في قاموسهم السياسي بأنه نشاط هدام. اتخذت الاحتياطات الأمنية المشددة وفرضت رقابة على جميع المطبوعات الأجنبية وخصوصاً الواردة منها من مصر. وجرى تعتيم إعلامي مقصود على كل ما كان يدور خارج الحدود. كانوا يخشون المظاهرات ويعاملون المتظاهرين

بوحشية وهمجية ويطاردونهم أينما ذهبوا ليوقعوا بهم أشد أصناف التعذيب. كان الطلاَّب في نظر تلك السلطات يحملون أفكاراً ثورية الأمر الذي دعاهم إلى تشديد الرقابة عليهم فانتشرت قوات الشرطة السرية تجوب البلاد طولاً وعرضاً لتراقب عن كثب كافة النشاطات السياسية التي كانت تجري في البلاد.

وفي الجزائر الواقعة غربي البلاد كانت الرياح تأتي بما لاتشتهيه سفن الطبقة الحاكمة في ليبيا. فعبر الحدود الغربية كانت هناك ثورة شعبية عارمة أشعلت «الشرارة الأولى» لثورة المليون شهيد التي سرعان ما امتد لهيبها إلى كافة أرجاء البلاد.

إن تأثر معمر الشديد بالأحداث التي كانت تجري في الجزائر ومصر جعلته أكثر اقتناعاً وإيماناً بأن الرد الوحيد على آهات الشعب الليبي يكمن في الثورة، الأمر الذي دفعه إلى بذل كل ما في وسعه لتحويل الحركة، التي كانت تعتبر في ذلك الوقت حركة عسكرية، إلى قوة ثورية حقيقية.

في داخل الثكنات العسكرية التي نجحت الحركة في تشكيل خلاياها السرية مضى أعضاؤها في مواصلة عملهم المحفوف بالمخاطر لتجنيد عناصر جديدة وعقد الإجتماعات السرية المنتظمة لتخطيط النمط النهائي الذي كان على الثورة انتهاجه. في تلك الأثناء بدأوا في طبع منشوراتهم السرية لتوزيعها على كافة أرجاء البلاد وراحوا يتحينون الفرصة المناسبة للحصول على أكبر قدر ممكن من التأييد عند اندلاع الثورة ضد السلطات لكي يفتحواباب الأمل والرجاء على مصراعيه أمام الشعب الليبي.

كان الرجال المعروفون باسم الضباط الوحدويين الأحرار الذين شكلوا نواة الحركة العسكرية منهمكين في التحضير ليوم الخلاص ودحر المستبدين الطغاة. في تلك الأوقات العصيبة استطاع أعضاء الخلايا العسكرية المنتشرون داخل القوات المسلحة أن يضعوا أيديهم على معلومات غاية في الأهمية ثبتت جدواها فيما بعد بالنسبة للحركة.

وفي ذات الوقت كانت الخلايا السرية العاملة تحت قيادة اللجنة الشعبية تقوم بتنفيذ برنامج تجنيد العناصر الجديدة على خير وجه. وبالرغم من إبداء الكثيرين رغبة أكيدة للانضمام إلى الحركة إلا أن أعداداً أخرى اتخذت جانب الحياد وآثرت الابتعاد بسبب الظروف الصعبة التي كانت تمر بها البلاد في تلك الفترة. لجأت

اللجنة الشعبية إلى الإدارات والمؤسسات الحكومية مثل : وسائل الإعلام والقضاء التي كانت مصدراً خصباً لضم عناصر جديدة لها . كانت مهمتها شاقة وعسيرة في تلك الحقبة التي لم يكن أحد يستطيع خلالها التعبير عن آرائه بحرية تامة حتى أمام زملائه لأن المرء لم يكن يعرف العناصر المندسة وسط الجماهير من منظمات الشرطة السرية الإرهابية .

وبرزت على الساحة مشاكل أخرى تستوجب حلولاً سريعة وخصوصاً المالِيَّة منها . كان الضباط الوحدويون الأحرار يعملون بحرية تامة ولا يحصلون على أي دعم مالي من أي مصدر خارجي مهما كان نوعه .

ومع أن أحداً لا يستطيع إنكار حقيقة نقص عناصر الحركة والحاجة الملحة إلى تجنيد عناصر جديدة ليقوى ساعدها ويشتد ، إلا أن العناصر الحديثة العهد كانت تخضع إلى رقابة مشددة قبل السماح لها بالانخراط في الحركة . وإيماناً منهم بوحدة وانسجام الفكر ، قام الضباط الوحدويون الأحرار برفض كل شخص يشتبه في إنتمائه السياسي . وكذلك كان الأمر بالنسبة لأولئك الذين كانوا يميلون إلى تشكيل حركات منشقة أو يتخلون عن الأهداف الرئيسية للحركة حيث تبذل جهود مضنية في بادي الأمر لإقناعهم على التراجع . أما إذا أصروا على التمسك بأفكارهم وآرائهم المنشقة فكانوا يمنعون من الانخراط في التنظيم .

لم يكن في نية معمر الإطاحة بالنظام الملكي لمجرد استبدال حكامه بمجموعة جديدة من الحكام . وفي الحقيقة فقد قام هذا الشاب الثائر برسم خط فاصل وواضح بين معنى الثورة ومعنى « الانقلاب » ففي رأيه أن « الانقلاب » مجرد محاولة للحصول على السلطة وغير مقترن بأية مبادئ أو فلسفة معينة . أما الثورة فكان يرى فيها مجرد وسيلة لإجراء التغيير يتم تنفيذها استجابة لنداء الشعب بحيث يستلزم القيام بها ضرورة الإطاحة بنظام الحكم القائم . وتحقيقاً لهذا الغرض المنشود كان لا بد من أن يلعب الجيش دوراً محدداً وقتيا . وما أن ينتهي الجيش من أداء هذا الدور المحدد له حتى تبدأ مرحلة الثورة الحقيقية التي يقودها الشعب بنفسه لإجراء تغيير شامل في البلاد نحو إيجاد صيغة فريدة للحكم الشعبي تتلخص في أن يقوم الشعب بحكم نفسه بنفسه .

ألهبت جميع هذه الأسباب عزيمة الثوريين المخلصين لبذل المزيد من التضحيات تقرباً ليوم الخلاص وخلق مجتمع ليبي جديد ، لم تعد تحكمه شرذمة

من الطامعين واللصوص ولا يرضى بغير الشعب حاكماً ولا سيدا . وفي الحقيقة كان هؤلاء الرجال الثوريون يؤمنون إيماناً شديداً بقوة الشعب لدرجة أن الضباط الوحدويين الأحرار قرروا إمكانية الاعتماد على الشعب في النهوض ضد الجيوش الأجنبية إذا ما قررت القوات البريطانية والأمريكية التمسك بقواعدها العسكرية ورفضت الخروج من البلاد عندما تقع الثورة .

لم يستبعد معمر إمكانية وجود تنظيمات سرية أخرى تخطط لشن انقلاب عسكري في البلاد مما دعاه إلى الإصرار على عدم إجراء أي اتصالات معها لأنها ستكون — في حالة وجودها — تعمل على الإطاحة بالنظام الملكي لأسباب وأهداف تختلف تماماً عن تلك التي تؤمن بها الحركة .

كان اجتماع طلميثه أول اجتماع تعقده اللجنة المركزية التي تم تشكيلها مؤخرا . ومنذ تأسيسها قام أعضاؤها بالانخراط في الكليات العسكرية كما فعل معمر ورفاقه بعد أن أكد عليهم ضرورة القيام بذلك مما خلق صعوبة كبيرة في ترتيب أي اجتماع بين أعضائها إلا أثناء إجازاتهم حتى لا تثار الشكوك حولهم .

وعملاً على تجنب الفضول الذي قد يبديه زملاؤهم في الكلية العسكرية أو أقاربهم وأصدقاؤهم ، فقد تم التوصل إلى قرار يقضي بعقد اجتماعات اللجنة المركزية خلال العطلات فقط إلا إذا جد طارئ ملحّ .

هيأت عطلة العيد مزيداً من الوقت لأعضاء اللجنة المركزية — ولكن ذلك كان على حساب قضائهم العطلة مع ذويهم مخالفين بذلك العرف الإجتماعي السائد خصوصاً أثناء الأعياد الدينية المهمة . إلا أن ذلك لم يكن بالترتيب الأمثل لعقد اجتماعاتهم لأن «الاجتماعات الأعياد» قد أخذت تثير عقبات أخرى أمامهم .

وبينما شرع أفراد المجموعة في مناقشة ما يعترض سبيلهم من معضلات تحت أشعة شمس طلميثة ، بات واضحاً أن لا مناص من التغلب على العقبات العديدة إذا ما أريد لحركتهم أن تستمر في القيام بمهمتها كما ينبغي . كان عليهم ممارسة الانضباط الذاتي ليكونوا قدوة لغيرهم خصوصاً وأنهم يمثلون القيادة التي تعلو قمة التنظيم الهرمي إذا ما أرادوا بلوغ الغايات السامية التي يناضلون في سبيل تحقيقها . ومن ثم وضعوا بعض القواعد ليلتزم بها جميع الأعضاء فحظروا شرب الخمر وارتياد أماكن اللهو وتعهدوا بالرجوع إلى القرآن الكريم كمصدر من مصادر الهداية والمشورة .

قدم اقتراح من أحد الأعضاء يقضي بضرورة قيام اللجنة المركزية بعقد اجتماعاتها بمنأى عن المدن الرئيسية في البلاد ليتواروا عن العيون الفاحصة والآذان المصغية . كان اقتراحاً صائباً في حد ذاته ولكن السفر مسافات طويلة تفصل طلميثة عن المراكز الرئيسية في البلاد خلق لهم مشكلة لا يستهان بها ، فبعض الذين كانوا يجلسون مع معمر على شاطئ طلميثة جاءوا من بنغازي القريبة نسبياً على بعد مائتي كيلومتر تقريباً من مكان الإجتماع ، وآخرون قدموا من طرابلس على مسافة ألف وخمسمائة كيلومتر إلى الغرب وغيرهم من سبها في قلب الصحراء الليبية ومنهم من جاءوا من البيضاء أو أماكن نائية أخرى .

كان الكثيرون يقطعون بعض المسافة سيراً على الأقدام والبعض الآخر عبر وسائل ركوب متقطعة لأن الذين كانوا يملكون سيارات خاصة قلة لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة .

لم يكن هناك مخرج لحل معضلة السفر سوى شراء سيارات خاصة . كان هذا الاقتراح يبدو للوهلة الأولى سهلاً ولكنه كان في الحقيقة صعب التنفيذ لأن دخول أولئك الرجال المتواضعة لم تكن تسمح لهم بشرائها . كما أنه لم يكن لدى اللجنة المركزية أية مصادر دخل على الإطلاق سوى الدخل الشخصي لأعضائها .

كانت الأجور التي يحصلون عليها تكفيهم فقط لكي يعيشوا حياتهم العادية. لذا قرروا ألا يستجدوا أي دعم مالي من أي مصدر كان . اتفق أعضاء اللجنة المركزية بالإجماع على أن مثل هذه الخطوة ستعرض أهدافهم الأساسية للخطر . إنَّ عدم اعتمادهم على أي جهة جعلتهم في موقف يمكنهم من العمل باستقلالية تامة دون الخضوع للضغوط الخارجية .

أخذ عدد الذين احتشدوا على الشاطئ يتضاءل رويداً رويداً عندما بدأ نسيم البحر العليل يهب على طلميثة وشرع الرجال والنساء والأطفال يحزمون امتعتهم وملابسهم وأدواتهم ويقفلون عائدين إلى ديارهم . ولم يصر على البقاء حتى ساعة متأخرة من الليل سوى نفر قليل . راح معمر مع صحبه يراقبون في صمت هذا التغيير عندما خلا الشاطئ من الأجساد التي لفحتها حرارة الشمس وعاد إلى ألوانه الطبيعية . وما لبث أعضاء اللجنة المركزية أن نهضوا بدورهم واتجهوا صوب خيمة كانوا قد ضربوها على مسافة منهم ليتخذوا منها مقراً لهم خلال الأيام القليلة لاجتماعهم ، بعدها يغادرون طلميثه ليتفرقوا في أنحاء البلاد حيث يقضون إجازة

عيد الفطر مع ذويهم . كان هؤلاء يجتمعون ويأكلون وينامون تحت أشجار النخيل القريبة من الشاطئ ، وكان بعضهم يفضل مضارب البدو على بعد كيلومترات قليلة أو التلال العارية التي تميزت بها هذه المنطقة من ليبيا .

على أن ما لم يكن يعرفه معمر وبقية الضباط الوحدويين الأحرار في ذلك الوقت هو أن الأمور كانت ستأخذ طريقاً أفضل في المستقبل غير البعيد ، إذا تسنى حل المشكلات الأقل أهمية ، وإن كانت لا تقل بعثاً للضيق ، عن طريقة إنكار الذات وبمساعدة ضباط آخرين ما كانوا وقتئذٍ أعضاء في اللجنة المركزية . كانت الحاجة الملحة إلى المال تشكل عقبة كئوداً للجنة ولم تكن الحالة المالية لغالبية الضباط الوحدويين الأحرار بوجه عام ميسورة ، ومع ذلك تقرر بالإجماع إنشاء صندوق واستخدام الأموال لشراء ما تحتاجه الحركة من عربات للتنقل من مكان إلى آخر . كان معمر سعيداً بهذا الاقتراح الذي تقدم به عدد كبير من أعضاء اللجنة لأنه عكس روح التعاون والتضحية بين أعضاء الحركة في سبيل تحقيق آمالهم الثورية .

لم يتخذ قرار نهائي في اجتماع طلميثه حول الاقتراح المقدم بإنشاء الصندوق ، وعندما أثير الموضوع للنقاش في اجتماع آخر تقرر أن يتم تحصيل الأموال عن طريق المساهمة الاختيارية للأعضاء . استجاب بعض الضباط الوحدويين الأحرار على الفور وقرروا التبرع بمرتباتهم .

وبفضل هذا الصندوق تسنى حل الكثير من المشاكل المالية التي كانت تواجه الحركة ولم تستخدم أموال الصندوق في شراء العربات كما كان مقررا ، بل تم استخدامها لأغراض أخرى منها على سبيل المثال ، دفع مصاريف السفر جواً عند اضطرار أحد الأعضاء القدوم على وجه السرعة من منطقة نائية لحضور اجتماع مهم .

١٠ ــ النشاط الســري

سرت ــ أوائل سبتمبر ١٩٦٤

لم يألُ الطالب الثائر جهداً خلال مرحلة الدراسة الإعدادية التي قضاها في سبها أو أثناء مرحلة الدراسة الثانوية بمدارس سبها ومصراته ، في شرح أبعاد الموقف المضطرب المتقلقل الذي كان يعم البلاد إلى رفاقه الطلبة . في تلك الفترة بدأ معمر في طبع وتوزيع المنشورات السرية إلى جانب قيامه سراً بتوزيع كتب الثورة المصرية ــ التي يرجع الفضل في حصوله عليها إلى محمود ألفي مدرس مادة التاريخ المصري ــ وبيانات عن الاستراتيجية العسكرية المصرية كتبت بخط يد جمال عبد الناصر .

كان معمر يعتقد بأن مادة التاريخ التي كانت تدرّس في المدارس الليبية لم تكن لتعكس الصورة الحقيقية لماضي الأمة العربية . لقد أرغم الطلبة الليبيون على تعلم محتويات كتب التاريخ التي لم تكتب على يد المؤرخين العرب بل كتبها أجانب أعطوا فيها عن عمد ، صورة مشوَّهة عن الوقائع والأحداث التاريخية الصحيحة للأمة العربية .

ولم يساوره شك في أن تاريخ الأمة العربية قد شوه عن قصد وإصرار من السلطة الحاكمة لخلق جيل جديد من الليبيين يجهلون تماماً تراثهم الحضاري التليد . إن الجهل بتاريخ الآباء والأجداد يخلق جيلاً جديداً لا يرتكز على أي مفخرة أو ماضٍ مما يجعلهم مطيّة سهلة الركوب لمن يملكون القوة والسلطة ، الذين رفضوا بسبب نزعتهم الرجعية قيادة ليبيا وشعبها نحو مستقبل أكثر تقدما .

ولم يغب عن بال معمر التآمر المكشوف بين القوى الكبرى لضمان بسط نفوذها السياسي والاقتصادي والحصول على موطئ قدم لها في منطقة البحر المتوسط والعالم العربي من خلال استمرار وجود الصهيونية في فلسطين المحتلة والعمل الدؤوب على تحطيم القوى العربية التقدمية . لقد ثبت له ساعتها أن الوحدة العربية

هي المنفذ والأمل الوحيد للأمة العربية لأنه رأى بوضوح أن أي خروج عن وحدة الصف العربي أو أي صراع بين العرب أنفسهم سيعود عليهم بالضرر والنفع لأعدائهم .

بالرغم من تنازع هذه الأفكار فقد استبدت به رغبة ملحة في زيارة أبويه ، فقد انقضى وقت طويل على رؤيته أباه وأمه وشقيقاته الثلاث. بيد أن الطقس لم يكن ملائماً للقيام بمثل هذه الرحلة المضنية إلى أطراف الصحراء المترامية ، إذ اجتاحت البلاد عاصفة هوجاء وأثارت الغيوم الكثيفة السوداء دون سابق انذار قادمة من جهة البحر. وما هي إلا لحظات حتى تفجرت السماء الملبدة بالغيوم في موجة من موجات المطر الغزيرة التي تنهمر في مثل هذا الوقت من السنة .

كان الجو قارس البرودة حين أخذت الرياح تهب على مدينة سرت وتطلق أصواتاً غريبة وهي تزمجر عبر الخليج متجهة نحو الصحراء تاركة وراءها أشجار النخيل تتمايل ، دون أن تعرف حدودا أو تفكر فيما ستخلفه من دمار .

انصرف الضابط الشاب للحظات قليلة عن الأفكار السياسية التي كانت تراوده وشرد بذهنه يفكر في أبويه وفي مسكنهما المتواضع على بعد عشرين كيلومترا حيث يقاسيان الرياح العاتية التي تحيل رمال الصحراء إلى زوبعة لن تهدأ بغير قطرات من المطر لا تلبث أن تستحيل إلى سيل غامر منهمر. وأخذ قصف الرعد البعيد يقترب رويداً رويداً مبدداً كل أمل في قضاء ليلة هادئة ، كما انخفضت درجة الحرارة بنسبة كبيرة .

بلغ معمر سرت في ساعة متأخرة من الليل بصحبة مصطفى الخروبي قادمين من ثكنات «قاريونس» في بنغازي عقب اجتماع اللجنة المركزية حيث جرت مناقشة مستفيضة لإمكانية إعادة تنظيم الحركة وإلقاء مسئولية التخطيط للثورة على عاتق الضباط الوحدويين الأحرار الذين يشكلون اللجنة المركزية . كانت المهمة ، ولا غرو غاية في الدقة وولدت في نفوس أولئك الضباط قدراً من الإحساس بالخطر لما تنطوي عليه من مغامرة جريئة وأخطار جسيمة . وكان قبول الضباط للاضطلاع بهذه المهمة إنما هو تقبل التحدي لما يتمخض عن اكتشافها من عواقب وخيمة . غير أن ما كانوا يخشونه هو أن اكتشاف امرهم قد يعرض للخطر جهود سنوات من الحذر الدقيق بل وقد يقضي عليها قضاء مبرما .

كان لا بد أن يكون التنظيم في ذاته كاملاً أو قريباً من الكمال بقدر ما تسمح

به طاقة البشر مما أدى إلى إنشاء تشكيل عسكري سري يضم الضباط الوحدويين الأحرار الذين هم أيضاً أعضاء في اللجنة المركزية ويوكل إليه مهمة خطرة وهي وضع خطط من شأنها أن تؤدي في نهاية المطاف إلى الإطاحة بالحكومة والقضاء على النظام الملكي في ليبيا بغير رجعة .

مهمة غاية في الخطورة بل لعلها أخطر المهام وأقساها حيث إن السلطات لم تكن قد فرضت حظراً على النشاط والتنظيمات السرية فحسب ، بل كانت تنظر إليها بعين الريبة المشوبة بالخوف على حد سواء . إن الشعور بالخوف الذي سيطر على الطبقة الحاكمة جعل الضابط الثائر ورفاقه في السلاح من الضباط الوحدويين الأحرار يدركون أنه إذا ما امتدت إليهم أيادي المخابرات الطويلة فإنهم لن يجدوا شفقة أو رحمة من زبانية الحكم الرجعي .

إن ما كان يدفعهم للقيام بهذه المهمة الخطيرة العسيرة كان يفوق ما يعترض سبيلهم من عقبات ومخاطر ولم يساورهم أدنى شك في أن الثورة هي السبيل الوحيد لانقاذ ليبيا من شرك التآمر السياسي بعد أن أصبح الوضع منهاراً في البلاد ويسير من سيئ إلى أسوأ وبات مؤكدا أن لا مناص من تجريد الحكام من السلطة بضربة قاصمة . كان هذا هو الأمل الوحيد لشعب لا أمل له سواه .

كانت رحلة معمر من المعسكر في بنغازي إلى مدينة سرت طويلة وحافلة بالأحداث كان معمر ورفاقه في بنغازي عندما يناقشون جدول الأعمال يحسون بضرورة تواجد عضو آخر في اللجنة المركزية وهو الخويلدي الحميدي . ولكن المشكلة كانت وجود الخويلدي في ذلك الوقت بحامية درنة على بعد مئات الكيلومترات غربي مدينة بنغازي . سافر معمر ومختار القروي للقائه في المرج حيث كان الخروبي . ومن هناك انطلق ثلاثتهم إلى سرت . أقيمت نقاط التفتيش عبر مفارق الطرق الرئيسية الأمر الذي دفعهم إلى الافتراق مؤقتاً ثم الالتقاء بعد اجتياز هذه النقاط كانت الرحلة إلى سرت عبر الطريق الساحلي طويلة وشاقة مما دعاهم إلى الاستراحة في قرية قمينس لتناول وجبة بسيطة من الخبز والتمر قبل مواصلة الرحلة إلى سرت للقاء ببقية أعضاء اللجنة المركزية الذين جاء معظمهم من طرابلس .

اتجه ثلاثتهم إلى فندق سرت ليقضوا ليلتهم تحت أسماء مستعارة . وقد كان في وصولهم تلك الساعة المتأخرة من الليل خير لهم إذ لم يكن هناك من يدقق النظر في

بطاقاتهم الشخصية ، فمع التسليم بأن كل مسافر ليل يحمل بطاقته لم يكن موظف الاستقبال حريصاً على مطالبتهم بها .

لم يكن معمر ميالاً إلى الانتظار طويلاً في الفندق ، فقد كان من المقرر أن يصل بعض الضباط الأحرار من طرابلس وقد تستغرق رحلتهم وقتاً حيث أن المسافة التي تفصل بين المدينتين طويلة . ففسر سبب تأخرهم برداءة الطقس التي تجعل القيادة على الطريق الساحلي لمسافات طويلة أمراً صعبا . ومع اقتناعه بهذا السبب إلا أنه راح يستفسر من بعض المسافرين عما إذا كانوا قد شاهدوا حوادث على الطريق ولكنه لم يحصل على جواب شاف . كان الوقت يمر متثاقلاً وببطء شديد وأيقن هذا الشاب الثائر أنه ما لم يحصل مكروه للأعضاء الآخرين فإنهم سيصلون إلى سرت قبل حلول الظلام . مضت ساعتان على حلول الظلام وبدأ يعتريه القلق فقرر أنه من الأفضل عدم البقاء في سرت والسفر إلى طرابلس.

وقبل مغادرة الفندق اتصل معمر هاتفياً بثكنات الجيش في قاريونس للاستفسار عن مكان وجود أبو بكر يونس جابر ، أحد أعضاء اللجنة المركزية . فجاء الرد بعدم وجوده وبرر معمر غيابه ووجوده في سرت بأنه في زيارة عائلية . بيد أن عدم وجود أبو بكر يونس في الثكنات اقتضى تعديلاً طفيفاً على الخطة وبدلاً من الانطلاق نحو طرابلس رأى من الأفضل أن يمضي نحو ضواحي سرت ويعسكر هناك حتى الصباح الباكر .

كان الطقس قد ازداد سوءاً حين شرعت عاصفة قوية تهب وهم منطلقون في طريق شاق يخترق التلال والوديان التي تفصل بين مقر أسرته ومدينة سرت كان «القروي» وقتئذ يقود عربته «البيجو ٤٠٣» التي كانت تواجه المتاعب في تلك الرحلة الشاقة ومالبثت العربة أن توقفت مما اضطر الضابط الثائر ومن كانوا معه أن يقفلوا راجعين إلى المدينة أملا في العثور على وسيلة نقل أخرى .

لما عاد معمر إلى سرت شعر برغبة في زيارة أسرة بالمدينة كان قد تعرف عليها في إحدى زياراته السابقة ، لكنه أحس بخيبة أمل عندما اكتشف أنها برحت المكان لتحل محلها أسرة أخرى . ولما استأذن معمر الساكن الجديد في أداء الصلاة بالمنزل اعتقاداً منه بأن المكان نظيف كعهده به يوم كان يقطنه «مفتاح على» فاذا بالضيق ينتابه والغضب يستبد به حيث ألفى المكان قد تغير تماماً وصار أشبه ما يكون بحانة قذرة ودلف إلى الغرفة التي أعتاد الصلاة بها ليجدها قد تجردت من

الأثاث ولم تعد تضم سوى زجاجات الخمر الفارغة وبعض الأحجار المتناثرة في أرجائها كان يبدو واضحاً أن السكان الجدد قد جبلوا على طينة مغايرة لمفتاح ذلك المسلم الصادق الورع الذي كان لا يسمح بدخول المسكرات إلى بيته . كان معمر شديد الإيمان بالله ويؤدي الفرائض ويجتنب ما نهى عنه القرآن الكريم المصدر الوحيد لإلهامه . لقد ولد في عائلة متدينة تؤمن بأن كتاب الله يرشد الناس إلى طريق الهداية والصواب وإلى معالجة النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

استبد الغضب والحزن بالضابط الثائر ولكنه أدرك أن من الأجدى له عدم البوح بمشاعره إلى الرجل الذي مازال بانتظاره لدخول البيت. إلا أنه عاد من حيث أتى وهو يفكر في استشراء الفساد لدرجة كبيرة في البلاد ومدى انتشار الخمر والموبقات حتى وصل إلى المدن صغيرة كسرت . لقد أدرك أنه لا يستطيع البقاء في هذا المكان بعد الآن ، وكان الليل قد أرخى سدوله على المكان ولا يزال الجو قارسا ، ومع هذا عاد لينضم إلى رفاقه وانطلقوا يجوبون أطراف المدينة ويلتقون بقاطني الخيام الذين أظهروا لهم ما عرف عن هؤلاء القوم من صنوف الكرم والسخاء .

بدأت العاصفة مرة أخرى ومع ذلك استطاع رجل البادية الشيخ أن يجد لهم عربة شحن تقلهم إلى مضارب والد معمر . كانت الطريق وعرة وشاقة إلا أن عربة الشحن نجحت في الوصول إلى المكان الذي أخفقت سيارة « القروي » في الوصول إليه . لم يستطع الفتى الثائر أن يتجاهل ما حدث له في ذلك اليوم ولا أن ينسى اجتماع اللجنة المركزية الذي كان من المقرر عقده ولم يعقد . وراح يفكر في المخاطر التي من المحتمل أن تكون قد حلت ببقية الضباط الوحدويين الأحرار الذين لم يصلوا إلى سرت في الموعد المحدد للاجتماع . لقد أيقنوا أنه من العبث الانتظار بل من الخطورة بمكان البقاء هناك أكثر مما ينبغي . ولم يكن أمامهم سوى العودة إلى « قاريونس » للوقوف على ما حال دون وصول رفاقهم إلى سرت حسب الموعد المحدد .

١١ ــ لغز الصور المتقطعة

بنغازي ــ ٧ أكتوبر ١٩٦٤

كانت أسباب السعادة المادية وأمل العيش في رغد وهناء بعيداً عن ضنك الحياة وقسوتها قد أغرت الكثيرين إلى هجر مساكنهم المتواضعة في أعماق المدن والقرى الصحراوية والهجرة إلى المدن الساحلية ، إلى طرابلس وبنغازي اللتين كانتا كعبة لهؤلاء الفقراء... رغم وجود النفط في البلاد. بدأت الإشاعات تنتشر كانتشار النار في الهشيم لتصل إلى أعماق الصحراء بأن المدن الواقعة عند نهايتي خليج سرت تبشر بالغنى ورغد العيش وتفتن الألباب لسحرها وجمالها، وتجد وقعاً طيباً عند هؤلأ القوم الذين كانوا يعيشون وسط ظروف قاسية وغاية في الصعوبة في الصحراء .

في فترة الاحتلال الإيطالي قام الايطاليون بإجراء مسح جيولوجي للأراضي الشاسعة المترامية الأطراف ليجدوا معادن مختلفة كالحديد والنحاس ويعلنوا عن عدم وجود النفط بكميات تجارية في ليبيا . كان خطأ اقترفوه في حق أنفسهم وندموا عليه كثيراً حيث لم يعد ينفعهم الندم . وما أن وصلت الشركات العالمية للبحث عن النفط في البلاد، حتى راحت تجوب الصحارى والمروج والهضاب بحثاً عن الذهب الأسود... وكانت اكتشافاتها النفطية مغايرة لاكتشافات الإيطاليين. بدأت أول بئر ضخ أنتاجها في البلاد ، وسرعان ما تأكد وجود كميات كبيرة من النفط تجعله المصدر الرئيسي للدخل في البلاد .

كانت الشركات الأجنبية تدرك تمام الإدراك أن نشاطاتها ومصالحها في ليبيا لن تتعرض لسوء مادام الحكم الملكي قائماً في البلاد يأتمر بأمر القوى الاستعمارية الغربية ومادامت القواعد العسكرية البريطانية والأمريكية مهيمنة على ليبيا ، الأمر الذي شجع هذه الشركات المتعددة الجنسيات على استنزاف خيرات البلاد

بهدف تحقيق أقصى قدر ممكن من الربح غير آبهة بسكان البلاد الأصليين وبمصالحهم الضرورية .

كانت ليبيا ضمن قائمة البلدان الأكثر فقراً في العالم عندما منحت استقلالاً صورياً علم ١٩٥٢ ، ولكن اكتشاف النفط في أراضيها رفعها إلى مصاف الدول الغنية لتصبح في موقف تحسد عليه من الأعداء الطامعين . انتشرت آبار النفط كنبات الفطر فوق تلك الأرض الشاسعة وكلما تزايد تدفق الآبار النفطية من جوف الصحراء القاحلة كلما أصبحت الشركات النفطية أكثر تشبثاً وسيطرة بهدف تسيير دفة الاقتصاد الوطني الليبي .

كانت مدينتا طرابلس وبنغازي تعجَّان بآلاف العمال المستخدمين في حقول النفط من جنسيات عالمية متعددة تقاطروا إليها بعد قضاء أيام طويلة وشاقة من العمل المضني في حقول النفط تحت أشعة الشمس المحرقة ، للاستجمام وإنفاق دولاراتهم التي حصلوا عليها بكد ومشقة ، وقد تحولت هاتان المدينتان إلى أماكن للهو والراحة . . . للأغنياء الأجانب والليبيين على حد سواء .

طغت رغبة عارمة لم يعد بالإمكان السيطرة عليها في نيل الثراء السهل الميسور على عدد كبير من القرويين البسطاء الذين اعتقدوا أن بالإمكان تحقيق أمانيهم إذا ما وفدوا إلى طرابلس وبنغازي ، فربطوا أمتعتهم استعداداً لرحلة طويلة لتحقيق هذه الأحلام .

ولكن وقع هؤلاء القرويون البسطاء بين طرفيّ «كماشة» ليجدوا أنفسهم يتخبطون بين صلف وكبرياء المترفين وضغوط احتكارات شركات النفط الأجنبية المصممة على بسط نفوذها السياسي والاقتصادي حتي أضحت الطبقات الحاكمة المتسابقة على نهب خيرات البلاد لا تجد أمامها متسعاً من الوقت لحل مشاكلها .

أما بالنسبة لسكان المدينة والقرويين والفلاحين ورجال البادية فقد كان الذهب الأسود مصدراً لرفاهية وإثراء الغير وسبباً في تعاستهم وشقائهم .

استقبلت هذه الجموع الغفيرة المهاجرة سيراً على الأقدام إلى طرابلس وبنغازي من قلب الصحراء استقبالاً فاتراً وأبعدت إلى خارج حدود هاتين المدينتين لتقيم مدنها الخاصة المصنوعة من أكواخ الصفيح لتعيش حياة تعيسة مهينة .

أخذ هؤلاء يروضون أنفسهم على حياة البؤس والحرمان ليعيشوا في أكواخ واهية مصنوعة من ألواح الصاج الصدئة المهترئة أو الطين ، خالية من المرافق الصحية وضرورات الحياة التي تقيهم برد الشتاء القارس وأشعة الشمس القائظة عندما يحل فصل الصيف .

سار معمر على جانب الضفاف الموحلة للبرك المائية التي بدت وكأنها تشطر مدينة بنغازي إلى شطرين في أحدها حي متكامل مزروع بالأكواخ وفي الشطر الآخر غابة مكتظة بالمباني الخرسانية الشاهقة ، وهي سمة متواضعة من سمات الترف ولا تمثل إلا نسبة تافهة من أموال النفط .

بدا فندق النهضة الشعبي ملفوفاً بالضباب حين لاحت تباشير الصباح وراحت أشعة الشمس المشرقة تتسلل لتشق طريقها عبر السحب الكثيفة التي تظلل مدينة بنغازي . كان الجو ينذر بيوم قارس البرودة عندما هبت نسمة باردة على تلك المدينة الحديثة التي أضحت في غضون فترة وجيزة ثاني مدينة في ليبيا تضم أكثر من نصف مليون نسمة ينتشرون في مناطق متحضرة في وسطها وفي أحياء الاكواخ من حولها .

فبنغازي التي تبعد عن طرابلس قرابة ألف كيلومتر تمتد مسافة لا تزيد عن كيلومتر واحد على ساحل البحر المتوسط والمنطقة المحيطة بها رائعة الجمال خصبة التربة إذا ما قورنت بطرابلس ، ويبدو أن البحر الممتد من مضيق جبل طارق غرباً حتي قناة السويس شرقا ، قد اختار تلك البقعة الرائعة حيث خلقت مياهه المنحسرة وراءها منطقة خضراء لا نظير لها في طرابلس . فعلى امتداد السنة تزهر الأزهار وتتفتح الورود وتجود الأشجار بكل ألوان الفاكهة وتكسو الخضرة مساحات شاسعة فإذا ببنغازي تبدو مدينة مغايرة تماماً لطرابلس .

بيد أن هذه الأفكار لم تخطر ببال معمر وهو يشق طريقه إلى فندق النهضة الذي اختارته اللجنة المركزية مقراً لأحد اجتماعاتها . هرع إلى الفندق عبر شوارع المدينة المكتظة ليجد الكثيرين من أعضاء اللجنة قد سبقوه إليه في عتمة الليل أو في ساعة متأخرة من مساء اليوم السابق . وكان الأعضاء . . . إمعاناً منهم في الحيطة . . . قد تجنبوا السفر معا ، فجاء الكثيرون منهم إما فرادى أو مثان مستخدمين وسائل نقل مختلفة ، فاستقل نفر قليل منهم الطائرة وجاء معظمهم براً إذ كان من الضرورة الملحة في هذه المرحلة المتقدمة من التخطيط ألا يتركوا شيئاً

للصدفة . وكان سكان بنغازي بعددهم المتزايد ، يشكلون عاملاً مساعداً وغير مساعد في آن واحد . في مثل هذا المجتمع الزاخر بالنشاط والحيوية لم يكن تجمعهم يثير كثيراً من الشك والريبة رغم أن وجوه بعضهم كانت مألوفة بحكم عملهم في ثكنات «قاريونس» . وكان الضباط الوحد ويون الأحرار قد قرروا في اجتماع طلميثه قصر الاجتماعات على أوقات العطلة . ولكنهم ما لبثوا أن بدأوا يلتقون في فترات الراحة . وعلى الرغم من أن توسيع نطاق الاجتماعات أتاح لهم المزيد من الفرص لمناقشة خطة الثورة ، إلا أنه خلق بعض المشكلات التي لم يكن التغلب عليها أمراً عسيراً على كل حال ، إذ كان بعض أعضاء اللجنة يسافرون جوا عند الضرورة لمسافات طويلة يقفلون بعدها عائدين إلى ثكناتهم في نفس اليوم ، حيث لم يكن حضور الاجتماعات بين فترات الخدمة أمراً سهلا .

ولما بلغ معمر الفندق وجد معظم أعضاء اللجنة نياماً فوق مقاعد الردهة . لقد كان أمر الحصول على فندق عسيراً في بنغازي حتى في أحسن الظروف ، واليوم فقد كان الفندق مكتظاً تماما .

كان أهم ما في الأمر هو وجود جميع من طُلب إليهم حضور اجتماع بنغازي من الضباط وشرعت اللجنة في مباشرة عملها على وجه السرعة . دام الاجتماع يوماً كاملاً تقرر خلاله أن يقدم كل عضو تقريراً شهرياً عن الذين لا يشكلون جزءاً من الحركة من بين ضباط الجيش ، وخاصة كبار الضباط إذ كانت هذه التقارير ستستخدم كمقياس في وقت لاحق لمعرفة الميول والأهداف الحقيقية للقيادة العسكرية بعد قيام الثورة .

لقد كانت هذه التقارير المتواصلة تشكل ملفاً كاملاً لهؤلاء الضباط ذوي الرتب الرفيعة ، يحوى كل حركة وسكنة لهم كما يحوى ميولهم السياسية واتجاهاتهم . هذا التقييم الواعي الذي أدّى بعد نجاح الثورة إلى كشف الأعداء الحقيقيين لحركة الثورة ومحاكمتهم ، وإدخالهم السجون .

كانت التقارير ترد عند نهاية كل شهر بحسب ما تتطلبه اللجنة المركزية . يسجل السلوك اليومي لكبار الضباط وترصد تحركاتهم بكل الدقة وكل الحرص ، وتمر الأيام وتتكدس المعلومات . . . وتزداد الملفات ضخامة وغزارة . ويجلس معمر ورفاقه إليها ينقبونها تنقيبا . . . ويقارنون ما جاء فيها بمعلوماتهم الشخصية ومعرفتهم لكل من هؤلاء الضباط ، ويمضون ساعات طوال . . . يرتبون هذه

المعلومات ، يمحّصونها تمحيصاً دقيقاً ويعالجونها في صبر لا يعرف الملل إليه طريقا . وكأنهم يعالجون لغزاً للصور المتقطعة . . .

وبذلك . . . يتوصلون إلى نتائج بالغة الأهمية ويدركون حقيقة ما كان يجري في أوساط الجيش العليا .

لقد كان العقل المدبر للثورة يدرك بأن عنصر المباغتة هو أحد العناصر اللازمة لنجاحها. وأنه لابد من الانقضاض السريع على طرابلس وبنغازي والبيضاء وغيرها في آن واحد. وقد أعد بالفعل الخطوط الأولى للاستيلاء على جميع المرافق الحساسة . . . كالمعسكرات الحربية ، ومحطات الإرسال ، والقصر الملكي ، ورئاسة الشرطه . غير أنه كان يدرك أيضاً أن مدينة بنغازي صعبة المنال . فهنا ترابط «قوة دفاع برقة» وهي وحدة دفاعية ضارية تقع تحت إشراف القصر المباشر وأوكل إليها دور الدفاع عن النظام الملكي وشرذمته. اختير أفرادها اختياراً بين أولئك الذين لا يحركون ساكناً بازاء التوجهات العربية بل وربما كانوا في دخيلة أنفسهم أعداء لتيار القومية العربية . كان أفراد هذه القوة ، في غالبيتهم ، من رجال القبائل الصحراويين . زودهم الملك بأحدث أنواع السلاح وأشدها بأسا .

لم تكن طرابلس في واقع الأمر أقل خطورة . فهناك أيضاً «قوات الشرطة المتحركة الرادعة» بيد أن هذه القوة لم تكن في مثل ضراوة «قوة دفاع برقة» من حيث التسليح والعتاد . لقد كان الملك حريصاً كل الحرص على الرفع من قدرات هاتين القوتين وتطويرهما لمواكبة كل ما من شأنه أن يعرض القصر للخطر .

كان معمر ورفاقه يدركون هذه الحقيقة. لقد كان واضحاً أن شكوكاً متصلة تساور الملك وتقضُّ عليه مضجعه حول ولاء الجيش النظامي للقصر. ولهذا السبب لم يتردد لحظة في تزويد «جيشه الخاص» المكون من هاتين القوتين بالأسلحة الدفاعية كلما زود جيش البلاد بأسلحة هجومية . يطلب الجيش مثلاً رتلاً من الدبابات من بريطانيا فيسارع الملك بتزويد جيشه الخاص هذا بمدافع مضادة للدبابات وهكذا .

قلّب معمر ورفاقه الأمر من كل وجوهه ، واستقر رأيهم على أن يفاتحوا بعضاً من كبار الضباط ممن أكدت ملفاتهم إمكانية الاطمئنان إليهم . وكانوا في بداية

الأمر حذرين كل الحذر في خطب ودهم ثم مفاتحتهم بالأمر . . . ولم تكن النتيجة مشجعة. بعض هؤلاء الكبار لم يأخذوا فكرة تنفيذ الثورة التي كانت خططها معدة باحكام مأخذاً جديا . . . بل قابلوا الأمر بالسخرية ، واعتبروه مدعاة للضحك والتندر . أما البعص الآخر فلم يملك سوى تصوير الحالة المزرية التي وصلت حد اليأس والقنوط في صفوف الجيش ولكنهم لم يتحمسوا لفكرة تفجير ثورة مسلحة .

غير أن معمر ورفاقه لم يألوا جهداً في الاتصال بمزيد من ذوي الرتب العالية وكان الحذر والحيطة ديدنهم في ذلك فلم يتقبلوا بحماس فكرة الانضمام إلى تنظيم الضباط الوحدويين الأحرار . لقد كان الهاجس الذي يؤرق بعض هؤلاء هو الخوف من العواقب إذا ما فشلت الثورة . أما بعضهم الآخر كان يخشى القوات الأجنبية الموجودة آنذاك . ولذا فقد ترددوا في الانضمام لحركة الضباط الوحدويين الأحرار خوفاً من رد فعل هذه القوات الأجنبية إذا ما نجحت الثورة بالفعل .

وهناك مجموعة ثالثة ترددت في اتخاذ خطوة جريئة تجاه الانضمام للحركة بسبب العادات القبلية وكانت الأجهزة الأمنية رادعة للحد الذي يجعل الكل يترددون خشية من أية ردود فعل انتقامية .

وعلى كل حال وبالرغم من هذه المحاولات التي لم تكلل بالنجاح ولم تجتذب العدد الذي كان الضباط الأحرار يأملون في اجتذابه من صفوف كبار الضباط ، فإن حقيقة هامة تمثلت لهم بوضوح ، أن هؤلاء الكبار يرفضون التورط في أي عمل يؤدي إلى مراقبتهم من قبل الجهاز الأعلى وانكشاف أمرهم . إلا أن حقيقة أخرى أكثر أهمية تبدت جلية أيضاً للضباط الأحرار وهي التذمر والسخط اللذان سادا في صفوف الجيش .

الكل متهيئ للتغيير، وكبار الضباط تحدوهم رغبة مكبوتة أما الضباط الأحرار فقد استطاعوا أن يدركوا أن هناك من بين الساخطين من صدتهم النعرات القبلية عن احتضان الثورة . فوقفوا غير بعيدين عن الحركة ، ولكن هؤلاء الضباط لم يجدوا تفسيراً لصدود الآخرين . فقد تكونت الحركة من أفراد يمثلون كل قطاعات الشعب الليبي واتجاهاته . من المدائن والقرى ، ومن كل البقاع .

ومن المؤكد أن معمرا أعطى موضوع القواعد الأجنبية حظه من التفكير

والاهتمام ، ولم يكن هناك ما يشير إلى الصورة التي يمكن أن تتدخل بها هذه القواعد إذا ما قامت الثورة . ولكن الثورة بالنسبة لمعمر كانت قدراً لا بد من حدوثه على كل حال .

في طرابلس ، عزز الأمريكيون وجودهم في «هويلس» تلك القاعدة الضخمة ، المستقلة بذاتها ، التي تحتل زهاء الثمان كليومترات مربعة . كل الجنود فيها أمريكيون بالطبع ، لهم فيها منتدياتهم الخاصة . ودور ملاهيهم وعبثهم ، ودور سكناهم ، وحتى عملاتهم النقدية الخاصة . كانت هويلس في واقع الأمر مدينة كاملة قائمة بذاتها . وكان جنودها لا يغادرون أسوارها المنيعة إلا نادرا .

وكانت قاعدة جوية في المقام الأول ومستودعاً للمؤن والذخائر . وكانت للأمريكيين أيضاً قاعدة . خارج طرابلس ، من أحدث قواعد التدريب وأكثرها كفاءة لا سيما ومناخ هذه إلبلاد ممتاز في معظم أيام السنة والرؤية فيه جيدة مما يتيح فرصة التدريب على أساليب الطيران وفنونه ، دون انقطاع ، طيلة أيام السنة .

ولم تكن تفوق هذه القاعدة عدة وعتاداً من بين كل القواعد الأمريكية المنتشرة ، سوى قاعدة « ويس بادن » بجمهورية ألمانيا الاتحادية في أوروبا . وكان آلاف الجنود يُستقدمون من قاعدة « ويس بادن » إلى « هويلس » لتدريبهم . وقد كان عدد كبير منهم إسرائيليين في الزي العسكري الأمريكي . والقاعدتان تحتلان موقعاً استراتيجياً هاما . هويلس في قلب شمال إفريقيا ، وويس بادن على مسافة قريبة تمكنها من ضرب أي موقع في شمال إفريقيا بل وفي منطقة الشرق الأوسط بأكملها بسهولة ويسر .

ومن المؤكد أن قيام الثورة في ليبيا سوف يُفقد أمريكا كل هذه الميزات العسكرية وكان لا بد لمعمر أن يدرك في مثل هذه الظروف أن رد الفعل الأمريكي تجاه هذه الثورة . من الصعب التنبؤ به . فما حققه الأمريكيون لأنفسهم في هذه المنطقة كان أكبر من أن يتركوه دون خلق متاعب فيما إذا قامت الثورة . بيد أنه كان من الصعب التكهن بالصورة التي يمكن أن تجيئ بها هذه المتاعب . فقد كانت لألاعيب السياسة آنذاك طرق متشابكة . وفي غاية التعقيد .

كانت « هويلس » واحدة من خمس قواعد أمريكية في ليبيا . فهناك قاعدة « الوطية » قرب الحدود التونسية التي كانت بمثابة العين الساهرة على مصالح الامبريالية الأمريكية . ليس على حوض البحر المتوسط وحسب وإنما على دول

المغرب العربي أيضا ، لما لها من موقع استراتيجي في وسط الساحل الجنوبي لهذا البحر التاريخي الهام. وكانت «الوطية» منطقة للتدريب «الحي» للقوات الأمريكية المقيمة في هويلس. وبهدف إحكام هذا الثالوث الردعي أنشئت قاعدة ثالثة في تاجوراء بالقرب من هويلس متخصصة في أعمال المراقبة الرادارية والاتصال اللاسلكي.

أما القاعدتان الأخريان فكانتا في راس لانوف وبئر الأسطي ميلاد عمر ، أولاهما لتوجيه سفن الأسطول السادس الاميركي . ويبدو أن البريطانيين لم يرضوا بسواهم بديلا ، فبينما عملت أمريكا على تركيز وجودها العسكري غربي البلاد وطد البريطانيون أقدامهم شرقيها. وكانت أقوى قواعدهم هناك — قاعدة العدم في طبرق كما كانت لهم «استحكامات» عسكرية أخرى في منطقة بنغازي.

بعد مراجعة شاملة ودقيقة للموقف ، لم تستبعد اللجنة المركزية للحركة احتمال أن كلا الأمريكيين والبريطانيين سوف يرفضون النتيجة الحتمية لنجاح الثورة ألا وهي إغلاق القواعد الأجنبية . فهكذا أكدت الأحداث دائماً إذ يكون من العسير محاولة طرد قوى أجنبية إذا ما رسخت هذه القوى وجودها في بلد من البلدان.

دوي آلة الحرب في فيتنام لم يزل يصم الآذان ، سنوات متصلة من القتال الشرس المرير ، وبحار من الدم والدموع ، والأمريكيون باخعون أنفسهم على البقاء.

وفي كوبا تحاول الولايات المتحدة أن تفرض وجودها — بكل الصلف — وبكل العناد . . . وتزرع قاعدة في قلب هذه البلاد التي لم ينهض شعبها وحسب في وجه الطاغية الأمريكي بل ومضى إلى أكثر من ذلك ، ارتضى نظاماً للحكم متعارضاً تماماً مع النظام في أمريكا قلعة الرأسمالية ، وبنفس هذا القدر من الأهمية الاستراتيجية العسكرية والسياسية — وبما يخدم مصالح أمريكا الاقتصادية ، في فيتنام وكوبا وغيرها ، كان الساحل الليبي كنزاً للأمريكيين وللبريطانيين ، ولحلف شمال الأطلسي ، كنزاً في البحر الأبيض المتوسط ، ومعبراً إلى إفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط.

وكما أسلفنا ، لم يكن خافياً تدريب الأمريكيين جنوداً صهاينة — بالزي

العسكري الأمريكي ، كما لم يكن خافياً استخدام البريطانيين قاعدة طبرق لضرب مصر وغزو السويس .

إذن فقد بات مؤكداً لدى الضباط الأحرار تدخل القوات الأجنبية ــ سواء من داخل البلاد أو خارجها .

أضحت البلاد نهباً موزعاً على الدخلاء ، منذ الحرب العالمية الثانية وكان هؤلاء حريصين كل الحرص على المحافظة على هذا الكنز الذي لا ينفد والمعين الذي لا ينضب . انغرسوا في مراكز السلطة ، وفي الجيش وفي جهاز الشرطة تأميناً لمواقفهم وحماية لمصالح دولهم . وكان أبناء البلاد ممن يعملون في جهاز الإدارة مجرد دمى يحركونها في الاتجاه الذي يخدم مصلحة تلك الدول . أما أولئك الذين تربعوا على مقاعد السلطة من أبناء البلاد فقد أعجبهم الحال ولم يرضوا بسواه بديلا ، فهم الأثرياء، والمترفون، والمتسلطون، هم السادة ومن دونهم العبيد . وهؤلاء لن تعرف قلوبهم رحمة ولن تأخذهم شفقة إذا ما فشلت الثورة .

تواصلت المحاولات ــ بلا انقطاع ــ لإخماد روح الحماس الوطني ، ففرضت القيود الثقيلة . وقوبلت مظاهرات الوحدة العربية بوحشية وتعسف ، وكتمت الأنفاس . كان شغل الإدارة الشاغل التخلص من كل صاحب فكر تقدمي ، فحظرت المطبوعات التي تحمل في ثناياها شيئاً عن ثورات العالم ــ وبخاصة الثورة المصرية . وخيم على البلاد جو من الرعب تسبب في إرهاب الرأي العام وكتم صوته تماما . على ضوء هذا الواقع المشحون بالتوتر ، الذي هو أشبه ما يكون بالسكون الذي يسبق العاصفة ، جاء حكم اللجنة المركزية وتقديرها لاحتمالات التدخل المباشر للقوى الأجنبية في البلاد . فلم يكن هناك ما يشير إلى أن السلطات ستتردد في استدعاء هذه القوات لسحق أية اضطرابات فيما إذا اندلع لهيب الثورة . . .

وكانت نتيجة اجتماع بنغازي أن تقابل أية قوة خارجية بالمثل . فقد كان الضباط الأحرار واثقين كل الثقة من مقدرتهم على التصدي لأي عدوان مسلح واحتوائه . أما إذا ما استمر القتال وطال أمده فمن المؤكد أن أفراد الجيش النظامي الرافضين للوضع والساخطين عليه سينضمون إليهم وينصرونهم لا محالة .

وكانت الحركة قد نجحت في استقطاب عدد غير قليل من أفراد جهاز الأمن غير أن دور هؤلاء كان ثانويا .

وكانت هناك مسائل أخرى تثير القلق . وكانت اللجنة المركزية غير راضية تماماً عن أسلوب الاتصال حتى بكبار الضباط بالجيش رغم تعاطفها .

ومن ناحية أخرى فقد أبى عدد من الضباط الانضمام للحركة لدوافع مخلصة ومثالية — وهؤلاء قوبلت مواقفهم بالرضا وبخاصة أولئك الذين كانت لهم دوافع صحية أو أسرية وكان من بين هؤلاء المقدم آدم الحواز، فقد كان يرغب في الانضمام للحركة إلا أن ظروفه الصحية حالت دون ذلك . أجريت له عملية جراحية استلزمت ذهابه في راحة طويلة لمدة عام كامل. وكان المقدم الحواز[1] أحد أنشط العناصر في سلاح الإشارة . وقد سبب له ابتعاده في هذه الفترة العلاجية الطويلة كثيراً من الألم والحزن . لقد كانت حتى متابعة الأشياء عن طريق القراءة محظورة عليه — سيما لو كانت قراءة مطولة . كان يطالب بتزويده بالكتب عندما يزوره معمر والرفاق بالمستشفى ، لقد شد هذا الرجل انتباه الضباط الأحرار ونال إعجابهم . ورغم أنه لم يكن عضوا في الحركة . فقد كان في مخطط الثورة أن يوكل إليه القيام بدور هام عقب نجاحها .

١ — إلاًّ أن المقدم الحواز — خيَّب ظن رجال الثورة فيما بعد . فقد أُلقي القبض عليه في عام ١٩٧٠ متلبساً بجريمة التواطوء ضد الثورة مع موسي أحمد وزير الداخليت وقتئذٍ ، وقُدِّم الإثنان لمحاكمة عسكرية .

١٢ — زيارة إلى بريطانيا

لندن — يوم في مارس ١٩٦٦ م

كانت الأنوار كعادتها متلألئة في سماء البيكادلي فبدا «آيروس» إله الحب عند الإغريق وسط الأبنية الشاهقة المطلة على الميدان . . . أبنية تباينت ألوان واجهاتها لتكشف عما يشترى وما لا يشترى لكل من ينظر إلى اللافتات (النيون) بألوانها المتعددة وأنوارها الوضاءة .

شقت آلاف من مختلف شعوب الأرض طريقها منذ ساعات الصباح الباكرة حتى الساعات المتأخرة من الليل نحو تمثال الحب .

كانت الأصوات الموسيقية تنبعث من إحدى الحانات المنتشرة حول الميدان حيث ازدحم المكان برواد الحانة للاستماع إلى فرقة موسيقية من جزر الكاريبي . تثاقل الهواء في ذلك المكان من شدة الدخان المنبعث من لفافات التبغ ومن كؤوس الجعة وكان يطل على الميدان متجر ضخم لبيع الهدايا التذكارية ، ابتداء من منافض التبغ إلى المقتنيات الثمينة . وبجوار هذا المتجر الضخم كانت هناك دار الخيالة تواصل عروضها المختلفة لمدة ثماني عشرة ساعة في اليوم . وكان معظم روادها من الحانة . ومنذ أيام قليلة افتتح أحد الفنادق المطلة على الميدان مطعماً فاخراً لجلب اهتمام مزيد من السياح بتقديم الوجبات الشهية داخل غرف فخمة في الواجهة الخلفية للفندق .

كان المارة يتدافعون بالمناكب ويصطدم كل منهم بالآخر ليختفي في قلب الزحام بآلاف يدخلون ويخرجون من صف لا نهاية له من المطاعم والحانات وغيرها من أماكن اللهو. بشر يجيئون ويذهبون ، وكتبة يحملون حقائبهم الصغيرة ، وسياح يمتعون الطرف ، وشخص غريب الأطوار أو شخصان يزعمان أن العالم يدنو من نهايته وأن ألف مصيبة ومصيبة تتهدده . كل هذه الجلبة والضوضاء تحيل البيكاديلي إلى مكان يحظى بمثل هذه الشهرة وإلى مجتمع غير

محدود المعالم يأخذ المرء في كل اتجاه وهو ثابت في مكانه دون حراك .

بدت لندن لمعمر كالمغناطيس الذي يجذب نحوه الكائنات البشرية من شتى بقاع الأرض من خلال زيف التقدم المادي . وبالرغم من البريق الخادع لمظاهر الرخاء المزعوم فقد استطاع هذا الشاب الثوري أن يرى الجانب المظلم لهذه المدينة العابثة الماجنة .

كانت جموع المهاجرين الذين استدرجتهم فرص العمل وربما تحقيق الغنى السريع يعانون من الوقاحة البريطانية الرسمية . لقد كان هذا صحيحاً وخصوصاً بالنسبة للمهاجرين ، الذين تدفقوا على البلاد — بطريقة غير مشروعه أو بدونها — من المستعمرات البريطانية السابقة في آسيا ومنطقة الكاريبي . لقد كان بأمكان المهاجرين من آسيا وجزر الهند الغربية أن يصيبوا نجاحاً أكثر في بلادهم عما يحرزونه الآن في بريطانيا حيث كانوا يستخدمون لسبب أو لآخر في أدنى وأحقر الأعمال .

كان الملونون يعملون في كنس الشوارع في لندن وقيادة حافلاتها وغسل الأطباق في المطاعم ويتاجرون في الأعراض من أجل كسب رخيص يكاد يسد رمقهم ويبقيهم على قيد الحياة .

كانت الغالبية العظمى من سكان جزر الهند الغربية وآسيا قد تدفقوا إلى بريطانيا في نهاية الحرب العالمية الثانية . وكانت بريطانيا آنذاك في حاجة ماسة إلى اليد العاملة لإعادة بناء اقتصادها الذي دمرته الحرب . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية ، قامت بريطانيا باستجلاب أعداد كبيرة من سكان مستعمراتها للمساهمة في مساعدة الدولة الأم في استعادة مجدها السابق . وقد اضطرت أعداد كبيرة من أبناء هذه المستعمرات إلى الهجرة بحثاً عن لقمة العيش بعد أن انسدت أمامهم جميع فرص العمل في بلادهم ، وكان لا مفر أمامهم من اتخاذ قرارهم المرير بالهجرة .

ولما حقق هؤلاء العمال المستجلبون الغرض المنشود أصبح يُنظر إليهم على أنهم عبء على الاقتصاد الوطني وبأنهم أهل للأعمال الحقيرة التي ينفر منها البريطانيون . لقد بدأت بريطانيا في تطبيق سياسة التمييز العنصري بكافة أشكالها ضد العمال الملونين المهاجرين إليها .

وعاش المهاجرون الملونون ومازالوا يعيشون حياة الذل والمهانة في مجتمع ينظر

إليهم نظرة التعالي والكبرياء ويعتبرهم أقل درجة وشأوا ، ومن جلدة مغايرة لجلدتهم وبالتالي محرومة من كافة الحقوق الانسانية .

لم يكن المنظر بالنسبة لمعمر مثيراً وإن كانت هذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها من شمال إفريقيا ، وطفق يفكر فيما لهذا النمط الجديد من الحياة الأوروبية من تأثير على نفسه . . . لقد تخرج معمر في الكلية العسكرية ببنغازي في أُغسطس من عام ١٩٦٥ ، وما كاد يمر عام على تخرجه حتى ألفي نفسه ضمن مجموعة من الضباط وقع عليهم الاختيار للخروج في بعثة تدريبية إلى بريطانيا مدتها أربعة أشهر ونصف الشهر . كان قد سمع وقرأ الكثير عن بريطانيا ولكنه في «بيكونسفيلد» حيث الدورة التدريبية على سلاح الإشارة ، أخذ يكون رأياً مغايراً عن الدولة التي سمع بأنها عظمى ، ولما حان الوقت ليغادرها ويعود إلى بلاده كان رأيه قد تغير تماماً ، وإذا بالمقارنة بين بربطانيا المتقدمة وليبيا المتخلفة في ذلك الوقت تلوح وكأنها تنطوي على كثير من المغالاة إذ لم تكن الهوة بين البلدين على نحو ما صورت له من اتساع. وعاد الضابط إلى شمال أفريقيا وهو أشد ما يكون إيماناً بوطنه وأمته ولم تترك بريطانيا خلال هذه المدة تأثيراً يذكر على تفكيره، ونضجت مفاهيمه السياسية وبات أكثر من أي وقت مضي أشد تمسكا بمبادئه التي ألهبت اتجاهاته الثورية قبل سنوات . وكلما تجول معمر وسط الخضم الواسع من البشر وهم يسيرون على غير هدى يبددون أوقاتهم وأموالهم بات أكثر اقتناعاً بأن ذلك المجتمع المتمسك بالتقاليد والثقافة الغربية لا يمكن قبوله بأي حال من الأحوال من شعب جبلت مبادئه الاجتماعية والأخلاقية على تعاليم القرآن الكريم . اعتقد ساعتها أنه لا بد من قيام ثورة في ليبيا مغايرة تماماً لما يجري في لندن التي سقطت في مهوى من الناحية الاجتماعية والخلقية والتي لا يمكن لأي شخص مؤمن وحكيم أن يقبلها لشعبه .

كان الضابط يقضي بعض وقته بميدان «بيكونسفيلد» في العاصمة البريطانية . وكلما مرّ بالقرب من تمثال «أيروس» لفت نظره . فلم تكن هذه هي بريطانيا قبل وقت مضى أو حتى أثناء الثورة الصناعية الأوروبية أو حتى في تلك الأيام الخوالي حين كان الشعب عبداً للمادية العصرية . ولكن لندن لم تكن تختلف عن أية عاصمة أو مدينة أوروبية أخرى ، ففي هذه المدينة أيضاً كان البون شاسعاً بين الحياة فيها وحياة الأرياف . وبقدر ما كانت كآبة لندن وانحلالها يملآن

نفسه بالأسى ، أضحت الأرض التي تكسوها الخضرة وما ينعم به الريف البريطاني من حرية وانطلاقة مصدراً لإلهامه وإذكاء خياله على نحو لم يسبق له مثيل .

تذكر معمر يوم وصوله إلى لندن مع بعض بقية أعضاء البعثة العسكرية كيف اضطروا إلى قضاء أول ليلة في فندق صغير على مقربة من مطار « هيثرو » ليقلهم القطار في صباح اليوم التالي إلى « بيكونسفيلد » حيث الكلية العسكرية التي كان من المقرر أن تكون مقرا لإقامتهم خلال الأربعة أشهر ونصف الشهر التالية . وهناك التقوا بضابط يدعى « الميجور رودنـجـز » من أصل غير بريطاني ، وكان لقاء سيئاً ، بل كان مقدمة لمعاملة أسوأ ، إذ تمادى في أسئلته إلى حد بدا فيه لمعمر بأنه أكثر من مجرد فضولي وما انفك يستقسر عن مفاهيمهم الثورية ومشاعرهم الوطنية . . . . تساءل عن موقف ليبيا من الحركات الثورية ورأي الليبيين في جمال عبد الناصر وعن وجود القوات البريطانية فوق الأراضي الليبية . وظل يلاحقهم بأسئلته حتى لم يعد خافياً على معمر أسلوب الضابط الكبير في التلميح المستمر إلى الوجود العسكري البريطاني في ليبيا معللاً تواجدها حسب رأيه بحماية الليبيين أنفسهم .

كان هذا الضابط يحاول أن يجد تفسيراً لهذا اللغز وكان يعتقد أنه إذا ما احتاج شعب ليبيا الحماية فسيجدها عند القوى الأجنبية التي كانت تحتل البلاد آنذاك .

كانت السياسية الاستعمارية واحدة لا تتجزأ حيث كانت جيوش ما يسمى بالدول العظمى معسكرة في المستعمرات يحدوها أمل واحد ألا وهو تنفيذ وحماية المصالح الاقتصادية والسياسية للدول الاستعمارية . لقد عمدت أجهزة الدعاية المضللة إلى بلبلة أفكار الكثيرين وإيهامهم بأن أي رأي يخالف ذلك المفهوم غير صحيح ، الأمر الذي أدى إلى نجاح السياسة الاستعمارية إلى حد كبير .

لقد كانت الحماية الوحيدة التي تمارسها القوات الأجنبية هي حماية مصالحها الخاصة ولم يكن هناك بد من أن تحقق طموحات الشعب حتى يصبح سيداً لنفسه ويؤمّن حماية فعلية لتراب وطنه .

تردد أعضاء البعثة في الإجابة عن أسئلة الميجور رودنـجـز وتظاهر معمر بأنه لا يجيد اللغة الإنجليزية ليتجنب الموقف الحرج ، وآثر الآخرون الاقتداء به فكانت الإجابة الوحيدة التي تلقاها الضابط بعد محاولاته المتكررة هو ما تفوه به أحد

أعضاء البعثة حين قال : « إننا نؤمن بانتمائنا إلى أمة واحدة فقط وهي الأمة العربية ونرى في جمال عبد الناصر أملنا وقدوتنا » .

لم تكن العلاقات في واقع الأمر ودية بين أعضاء البعثة والمسئولين في مدرسة بيكونسفيلد العسكرية وكان اللقاء مع الميجور رودينجز بداية لفترة طويلة من سوء الفهم المتبادل وبدت أسئلته الماكرة لمعمر مقدمة للعداء السافر والاضطهاد الذي تعرض له مع زملائه طيلة فترة بقائهم في هذه المدرسة . لم يكن ثمة حد لما تعرضوا له من سخرية وازدراء وجاء التحيز والتعصب الأعمى ضد بلدهم أشبه ما يكون بحك جرح ملتهب بقطعة من الملح .

كان من الواضح بجلاء أن أعضاء البعثة لم يحظوا بأي حب في « بيكونسفيلد » بل لم يحاول أحد إخفاء ما يكنه لهم من عداء وبلغ الوضع من السوء حداً كاد أن يحمل معمر ورفاقه على التخلي عن البعثة والعودة إلى أرض الوطن . لقد تحملوا ما لا يمكن لطاقة البشر أن تتحمله ، لكن الأوضاع ما لبثت أن تغيرت على نحو لم يكن متوقعاً حين نقلوا إلى مدرسة أخرى ليلتقوا بطلبة عرب من اليمن والسعودية والعراق .

رحب أعضاء البعثة بالتغيير وأحسوا بارتياح كبير . فلأول مرة في بريطانيا تتاح لمعمر ورفاقه فرصة الالتقاء بمجموعة من الطلبة العرب ، فنسوا ولو بصفة مؤقتة على الأقل ما واجهوه من روح العدوان .

بيد أن ما حظي به معمر وبقية أفراد البعثة من معاملة حسنة في المدرسة الجديدة لم تغير موقفه من المجتمع البريطاني أو تدفعه للتعرف على الاتجاهات والثقافة البريطانية وإن كانت هذه الزيارة تمخضت عن شيء ما فهو أنه قد أكدت من جديد إيمانه بتقاليد وتراث الوطن الذي ولد فوق أرضه ونشأ وترعرع في أحضانه وتحت سمائه .

أحس معمر وهو يعبر ميدان البيكاديلي ، في اتجاه ميدان الطرف الأغر ، بحنين العودة إلى ليبيا فقد انقضى الجزء الأكبر من الدورة وما هي إلا فترة وجيزة يعود بعدها إلى بلاده فقد كان يعتزم الالتحاق بالجامعة الليبية لدراسة التاريخ .

مر معمر بالحوانيت والمسارح ودور الخيالة بأنوارها الساطعة المتلألئة وهو يرتدي الزي الوطني الليبي . لقد كان ، ولا غرو ، الشخص الوحيد الذي يرتدي

مثل هذه الثياب الفضفاضة التي جذبت انتباه المارة وأثارت تعليقاتهم واستفساراتهم .

كما كان يعلق فوق أحد جدران غرفته بالمدرسة الصغيرة صورة لخيمة أبيه في سرت لتذكره بالمكان الذي ينتمي إليه وبالبلد التي يرتبط بها ارتباطاً عميقاً وبمجرى التاريخ الذي سيغيره في المستقبل غير البعيد .

مرت الأسابيع القليلة الباقية وحان الوقت ليغادر معمر بريطانيا إلى أرض الوطن ماراً بايطاليا ، ثاني دولة أوروبية يزورها ، حيث يقضي بها يومين قبل أن يقفل عائداً إلى طرابلس لاستئناف دراسته ومواصلة اجتماعات الحركة السرية التي كانت قد توقفت أثناء غيابه .

١٣ ــ حرب الأيام الستــة

طرابلس ــ ٧ يونيو ١٩٦٧

كان مـازال الوضع في منطقة الشرق الأوسط آنذاك متوتراً للغاية ومع ذلك فقد أصاب اندلاع الحرب العالم بالذهول والدهشة . في صبيحة ذلك الوم تناقلت محطات الإذاعة أخبار القتال في نشراتها الصباحية وأبرزت صحف العالم الحدث الكبير مندددة بالعدوان الإسرائيلي المبيت لا حتلال مزيد من الأرض العربية . ولم يكن هناك أدنى شك في مسار المعركة منذ البداية حينما نسبت وكالة أنباء الصحافة المتحدة (اليونايتد برس) إلى مصادر عسكرية بميدان القتال التقرير التالي :

«أوردت التقارير الواردة من ميدان القتال بمنطقة الشرق الأوسط أن القوات الإسرائيلية توغلت مسافة أربعين ميلاً داخل الأراضي المصرية في الوقت الذي عبرت فيه قوات إسرائيلية أخرى الأراضي الأردنية ، وتحدثت آخر البلاغات العسكرية من راديو القاهرة عن ضراوة الاشتباكات الدائرة بصحراء سيناء وذكر أن القوات الإسرائيلية المعتدية تشن عدوانها على ثلاثة محاور . وقد انحى البلاغ العسكري باللائمة على الولايات المتحدة وبريطانيا اللتين تواطأتا على تدبير العدوان الجوي الواسع النطاق . وذكر أن اسرائيل تقوم الآن باستخدام كل سلاحها الجوي في المعركة بالرغم من تكبد القوات الإسرئيلية خسائر فادحة في الدبابات والطائرات إلا أن مؤيدي إسرائيل يقومون بتعويض إسرائيل عن خسائرها وإمدادها على وجه السرعة بأكثر من الخسائر التي الحقت بها .

وقد أعلن الإسرائيليون عن احتلال أحد مراكز الاتصالات الهامة بقلب قطاع غزة . وإلى أقصى الشمال من غزة تحركت القوات الإسرائيلية عبر القطاع الشرقي من مدينة القدس بعد قتال عنيف بالسلاح الأبيض داخل شوارع وأزقة المدينة

المقدسة . وذكرت إسرائيل أن قواتها الجوية تمسك بزمام المبادرة وتسيطر على الأجواء المصرية والسورية والأردنية .

عاشت العاصمة المصرية اليوم الأول لما أصبح يعرف فيما بعد بحرب الأيام الستة في حالة استنفار تام ، فقد أخذت تطلق صفارات الإنذار بين الفينة والأخرى ودوت أصوات المدفعية المضادة للطائرات وعلت سحب الدخان فوق سماء المدينة وضواحيها .

وأوردت وكالة عالمية أخرى أنباء متوالية عن بداية ما أسمته بالحرب الثالثة في منطقة الشرق الأوسط . وانتشرت أخبار العدوان الإسرائيلي المبيت على مصر وسوريا والأردن انتشاراً سريعاً عبر الأراضي الليبية . وذهل الليبيون عند سماعهم في نشرات الأخبار الصباحية أنباء العدوان الغاشم بينما كانت القوات الإسرائيلية تتقدم عبر جميع المحاور في سيناء والجولان وبات شبح الغزو يهدد المدينة الروحية للعرب المسلمين والمسيحيين على حد سواء ، لقد أخذت القوات المسلحة المصرية وسلاحها الجوي على حين غرة ولم يكن هناك ثمة وسيلة ممكنة لوقف تقدم قوات العدو الذي راحت مدافعه وقنابله تدمر وتحرق كل ما يصادفها دون مقاومة في صحراء سيناء الشاسعة وهي تزحف زحفاً نحو القاهرة والسهول السورية عند أسفل مرتفعات الجولان متجهة إلى دمشق . كان الهجوم الإسرائيلي خاطفاً وخارج أراضي العدو ، ولم يكن هناك أدني شك في أن الصهاينة كانوا يحظون بتأييد الولايات المتحدة المطلق رغم إنكارها وبريطانيا هذا التورط السافر في الحرب . كما نسبت أجهزة الصحافة الغربية التي تخضع لسيطرة ونفوذ المنظمات الصهيونية في كل من لندن وواشنطون إلى متحدث رسمي بوزارة الخارجية الأمريكية قوله أن الموقف الأمريكي تجاه هذه الحرب كان حيادياً في الفكرة والقول والعمل . ولكن التصريح كان متعارضاً مع الموقف الفعلي الذي اتخذته حكومة واشنطن وخير دليل على تورط أمريكا في الحرب هو اشتراك سفينة الاتصالات السلكية واللاسلكية «ليبرتي» التابعة للأسطول السادس المرابطة قرب سواحل فلسطين في تقديم المعلومات عن الجيوش وتحركاتها أولاً بأول إلى قادة الحرب الصهاينة . وقد أدت هذه المساعدة خدمة كبيرة للصهاينة . . . . ناهيك عن إرسال الطيارين من حَمَلَة الجنسية المزدوجة الأمريكية الصهيونية والفنيين والمعدات الحربية التي كانت ترسل عبر الجسور الجوية إلى درجة إفراغ مخازن السلاح الأمريكية .

وفي لندن ، أعلن وزير خارجية بريطانيا جورج براون عن قلق حكومته البالغ لتردي الوضع في المنطقة وزعم أن بلاده لن تنحاز إلى أي من الجانبين قبل معرفة الهدف الرئيسي والتوصل إلى قرار لوقف إطلاق النار .

وبعد مضي أربع وعشرين ساعة على نشوب القتال تعرى الموقف الأمريكي والبريطاني تماماً إذ لم يعد يمكنهما افتعال الحياد وباتت الأمور تنكشف أكثر فأكثر . فهاتان الدولتان هما المسئولتان مسئولية مباشرة عن إنشاء الدولة الصهيونية في المنطقة وتعتبرانها كلب الحراسة لمصالحهما في الشرق الأوسط . . . . تلك المنطقة التي ترفض الدخول في صداقات مع الغرب وتفضل التعاون مع الاتحاد السوفييتي على أساس الند للند والاحترام المتبادل وهذا ما لا تقره السياسة الاستعمارية المستغلة .

أضحى البحر المتوسط منذ زمن ليس ببعيد منطقة للصراعات السياسية بين الدول الكبرى تجوبه السفن والأساطيل الحربية لدول حلف شمال الأطلسي ودول حلف وارسو . إلا أنه كان واضحاً تماما بأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت لها اليد الطولى في هذا البحر حين قامت أمريكا بالتعاون مع حلفائها بإنشاء قواعد عسكرية بالمنطقة وفي المغرب واسبانيا وإيطاليا وتركيا وفي ليبيا أيضا . ومع أن جزيرة مالطا الواقعة في قلب البحر المتوسط كانت قاعدة عسكرية بريطانية إلا أن الأساطيل الأمريكية وأساطيل حلف شمال الأطلسي كانت تزورها بانتظام حتى أضحى وجود هذه الأساطيل شيئاً مألوفاً وطبيعياً داخل موانئ الجزيرة . وكانت لبريطانيا قاعدة جوية فوق الجزيرة تغطي كل المنطقة حتى السودان من برج المراقبة الضخم الذي شيد بميناء لوقا المالطي ، إلى جانب ذلك كانت هناك القوات البريطانية في طبرق والتي تشكل بدورها خطراً مباشراً على الحدود الغربية المصرية . وبالرغم من عدم اعتراف القوى الكبرى بتورطها في الصراع الدائر في المنطقة بين العرب والصهاينة إلا أنه كان استنتاجاً سابقاً لأوانه من أن الموقف في منطقة الشرق الأوسط سيضر بالمنطقة إذا اشتركت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في القتال .

إن معرفة معمر بأن بلاده تؤمّن الحماية لجيوش الدول المؤيدة لإسرائيل والتي لا يقتصر على مجرد مد يد المساعدة لها في حربها التوسعية بل المساهمة الفعلية في هذا التوسعٍ ، لم تكن تضايق معمرا وتقض عليه مضجعه فحسب ، بل كانت عبئاً

ثقيلا يهتز له ضميره الحي ويؤرق جفنه . لقد كان الموقف كله لا يطاق ، وكان الحزن يمزقه ، الموقف السلبي الذي وقفته الدول العربية الأخرى حيث أخذت موقف المشاهد وظلت غير آبهة لما يجري في مصر وسوريا وبالتالي لم تهب لمساعدتها في هذه المحنة . كانت كل هذه المتناقضات تجول بخاطره وهو يتألم في صمت لما أصاب القاهرة ودمشق .

في ليبيا كان الملك إدريس الموالي لبريطانيا واضحاً أشد الوضوح ، لقد كان الملك العميل متورطاً حتى إخمصه في التسابق لإرضاء الحكومة البريطانية التي نصبته ملكاً على هذه البلاد . إن تبعيته لبريطانيا تفرض عليه منطقياً أن يكون تابعاً لأمريكا وإسرائيل . وفوق هذا كله ، فيكفي بريطانيا أنها هي التي خلقت المشكلة الفلسطينية وأنشأت ربيبتها إسرائيل . لقد أدرك معمر أن هذه الحرب لم تكن إلا حلقة متصلة من سلسلة الإعتداءات في الشرق الأوسط . كانت الحرب العالمية الأولي نقطة التحول في تاريخ الحركة الصهيونية عندما تولى جورج وايزمان خليفة ثيودور هيرتزل ، ذلك الصحفي النمساوي الجنسية اليهودي المولد رئاسة الحركة اليهودية التي ظلت تسعى دون كلل لتنفيذ برنامج ثلاثي يرمي إلى إنشاء دوله يهودية وحل ما كان يعرف حينذاك « بالمشكلة اليهودية » لقد اقتنعت بريطانيا شأنها في ذلك شأن الدول الاستعمارية الأخرى ، بأن الوجود الصهيوني في فلسطين هو الكفيل برعاية مصالحها في الشرق الأوسط . في نوفمبر عام ١٩١١ صرح جورج وايزمان بأنه إذا ما دخلت فلسطين ضمن مناطق النفوذ البريطانية وقامت بريطانيا بتشجيع الهجرة اليهودية الاستيطانية في فلسطين « فإن بإمكاننا إرسال حوالي مليون يهودي وأكثر ليحتلوا المنطقة ويصبحوا حراساً لقناة السويس .

وبعد مرور بضعة سنوات على تصريحه هذا ، أجرى وايزمان عدة مقابلات مع اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا آنذاك وأبلغه بأن قيام دولة يهودية في فلسطين سيعمل على إيجاد ما أسماه « بقاعدة اقتصادية سليمة » . وقد أخبر اللورد بلفور أنه في سبيل تحقيق هذا الهدف فإنه لا بد من إنشاء دولة يهودية حرة وذات سيادة في فلسطين . تعترف بها بريطانيا ويعمل على تهجير أربعة أو خمسة ملايين يهودي إلى فلسطين في فترة لا تتعدى الستين عاماً يتم بعدها تهويد فلسطين نهائياً تحت التاج البريطاني .

وجدت الفكرة ترحيباً خاصاً لدى بلفور ـ وزير خارجية بريطانية من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ ووعد وايزمان بأنه سيمنحه القدس بعد الحرب . وكان قد تم تشكيل فيالق عسكرية يهودية لمساعدة الحلفاء في منطقة الشرق الأوسط ـ لتضطلع بدور المخابرات وتبرز أجهزتها. اتجهت أنظار اليهود إلى دراسة المنطقة التي كانوا يزمعون الاستيلاء عليها بمساعدة البريطانيين قبل الإقدام على أي عمل آخر . وكانت الفيالق اليهودية تحت إمرة «فلاديمير جابوتنسكي» الذي دخل القدس عام ١٩١٧ ضمن الجيش البريطاني بقيادة المارشال اللنبي . وفي نفس الوقت وهب وايزمان نفسه لخدمة مقر القيادة العسكرية البريطانية بهدف تطوير الأسلحة والمعدات الحربية .

وفي الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧ أعلن بلفور تصريحه المشئوم بشأن إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين . وقد ذكر وينستون تشرشل في مذكراته أن إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين كان يتفق تماماً مع المصالح الحقيقية للإمبراطورية البريطانية . وقبل حلول هذا اليوم المشئوم كان المسئولون البريطانيون منهمكين بمقر وزارة الخارجية في لندن لإعداد التفاصيل المتعلقة بهذا التصريح . وبناء على الحاح أحد مساعدي الرئيس الأمريكي ويلسون ، فقد تم استبدال عبارة « الشعب اليهودي » بعبارة « العرق اليهودي » في الصياغة الأصلية . كان لهذا التبديل الذي يبدو بسيطاً في مظهره مغزى سياسياً كبيراً ، فهو يعني الإعتراف بالكيان الصهيوني واعطاءه الضوء الأخضر للتعاون الأنجلو ـ أميركي مع الحركة الصهيونية. أخذت الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الحقبة التاريخية تخرج تدريجياً من عزلتها التقليدية واصبحت تتدخل في الشئون الأوروبية وفي منطقة الشرق الأوسط وآسيا . ووجدت الحركة الصهيونية تأييداً قوياً من القاضي « برانديز» الذي كان المساعد الأول للرئيس الأمريكي ويلسون . وفي يناير عام ١٩١٩ حمل برانديز رسالة من وايزمان إلى البيت الأبيض قيل إنها تضمنت في فقراتها العبارة التالية : «إن إنشاء دولة يهودية في فلسطين ، التي ستقوم بريطانيا بإعطائها لليهود بتأييد من أمريكا ، يعني توجيه ضربة مميتة إلى النفوذ الإسلامي ـ العربي ـ الفارسي ـ الألماني ـ التركي في الشرق . ومما يجب التأكيد عليه هو ضرورة خلق ترابط وتنسيق تام بين المصالح الأمريكية والبريطانية والصهيونية » .

ومنذ ذلك الوقت لم تتراجع الولايات المتحدة عن موقفها المؤيد لإقامة الدولة اليهودية وفي نفس الوقت كانت المصالح الاقتصادية لأمريكا قد بدأت في غزو المنطقة . ففي بداية الثلاثينات بدأت الشركات الأمريكية والبريطانية في استغلال النفط في العراق ، وبعد ذلك بقليل امتد نفوذ هذه الشركات الاستعمارية إلى الكويت ودول الخليج . وقد قامت الشركات الاحتكارية الأمريكية بغزو السعودية بعد اكتشاف النفط بكميات هائلة في المنطقة . وكلما ازدادت أرباح الشركات المستغلة زادت بالتالي أهمية وجود إسرائيل للغرب لتكون كلب الحراسة الأمين للمصالح الانجلو ـ أمريكية ، وزاد التحالف العضوى بين القوى الاستعمارية وإسرائيل .

إن القعقعة التي سبقت حرب الشرق الأوسط الثالثة عام ١٩٦٧ قد تم الإعداد لها بإحكام منذ زمن بعيد .

لقد بدأت حركة المقاومة الفلسطينية بداية مشجعة ولكن ولسوء الحظ بقيت الدول العربية منقسمة فيما بينها مما أتاح للأعداء كافة الفرص لاستغلال الموقف لصالحهم . لقد شن الفدائيون العرب الفلسطينيون عمليات عسكرية منظمة داخل المناطق المحتلَّة منذ بداية يناير عام ١٩٥٦ ولكن آثارها كانت محدودة نسبياً وغير مشجعة .

كانت هذه الأفكار والمظالم التي وضعت على الفلسطينيين دون اختيارهم وكان تواجدهم التعس داخل الخيام ومعاناتهم من الفقر والحرمان داخل خيامهم وتصنيفهم كلاجئين مشردين داخل بلادهم من الأمور التي أرقت معمرا كثيراً وعذبت ضميره الحي وكلما زاد تفكيره في القواعد العسكرية البريطانية والأمريكية في ليبيا ، كلما زاد إصرارا على ضرورة شن العمليات التدميرية ضد وجودها عن طريق الخلايا السرية .

كان معمر موقناً بتورط بريطانيا وأمريكا في العدوان على مصر وسوريا . لقد كان الأسطول السادس الأمريكي بمنطقة البحر المتوسط يرابط قرب الشواطئ المصرية لإرسال المعلومات أولاً بأول إلى إسرائيل عن طريق سفينة التجسس (ليبرتي) . كما لعبت القاعدة العسكرية البريطانية في طبرق نفس الدور .

اعتقد الشاب الثائر ساعتها أنه لا يوجد ثمة بديل أمامه سوى الرد بعنف مع بقية رفقاء السلاح من الضباط الوحدويين الأحرار ضد القواعد العسكرية

الأجنبية بكافة الوسائل المتاحة لديهم . فقد قاموا بتأجيل خطة قيام الثورة إلى أجل غير محدد ولكنها لم تهمل . وفي تلك الساعات العصيبة من تاريخ الأمة العربية قرر الضابط القائد والضباط الأحرار وأعضاء الحركة واللجنة المركزية وضع خطة لشن هجوم ضد القواعد العسكرية البريطانية والأمريكية في البلاد . كان معمر يعرف مسبقاً المخاطر التي يمكن أن تنجم عن مثل هذه العملية الفدائية الجريئة ، فقد كان كل خوفه هو أن تؤدي هذه العملية إلى كشف الحركة وتضيع بذلك سنوات طويلة من العمل المضني . ومع ذلك ، وبالرغم من كل هذه المخاطر ، كان مقتنعا في قرارة نفسه بأنه لا بد من توجيه ضربة موجعة إلى العدو في مثل تلك الأوقات الصعبة .

وقع الاختيار على عبد السلام جلود ومصطفى الخروبي ومحمد المقريف وعبد الفتاح يونس لتنفيذ هذه العملية . أما معمر والأعضاء الآخرون في مجموعته الصغيرة . فقد أنيط بهم تقصي إمكانية المدنيين الراغبين في المساعدة لتنفيذ هذه العملية . لقد بدا لهم أن بعض المدنيين كانوا يبدون استعداداً ملحوظاً للتعاون معهم . وكان أول المتطوعين من المدنيين نوري نجم ، شقيق محمد نجم ، الذي رحب بهم لعقد اجتماع في منزله بمنطقة الصابري . حي عبد السلام . في بنغازي حيث كان معمر ومن معه يرتدون الزي العسكري كإشارة مقصودة لتأكيد جدية وخطورة الموقف .

كما قام نوري بتعريف معمر على شخص آخر وصفه بأنه محل ثقة ويمكن الاعتماد عليه والاطمئنان إليه . وجهزت مجموعة من الشبان المتحمسين للاشتراك في العملية بعد أن وفرت كمية المتفجرات. وأعقب ذلك، عقد اجتماعات متتالية اتفق خلالها على مواصلة بذل الجهود للاتصال بأكبر عدد ممكن من المدنيين الذين يرغبون في المشاركة في شرف هذه العملية الكبيرة . وإلى جانب قيامه بإعداد خطة الهجوم على القواعد الأجنبية ، فقد نذر معمر ورفاقه الضباط الوحدويون الأحرار أنفسهم للقيام بواجب تدريب المدنيين وقيادتهم خلال تنفيذ العملية . وقد تم الحصول على أكبر كمية ممكنة من الذخيرة من المستودعات العسكرية بكافة الطرق الممكنة مع مراعاة عدم تعريض الأشخاص للخطر والمراقبة . وقد أنيطت العملية التي كانت ترمي أيضا إلى تدمير المنشآت العسكرية الحيوية . بعبد السلام جلود وعبد الفتاح يونس اللذين كانا يعسكران مع سلاح



في الخيمة . . معمر ووالده أبو منيار . . وجهاز راديو هو همزة الوصل بين البدو والعالم الخارجي .



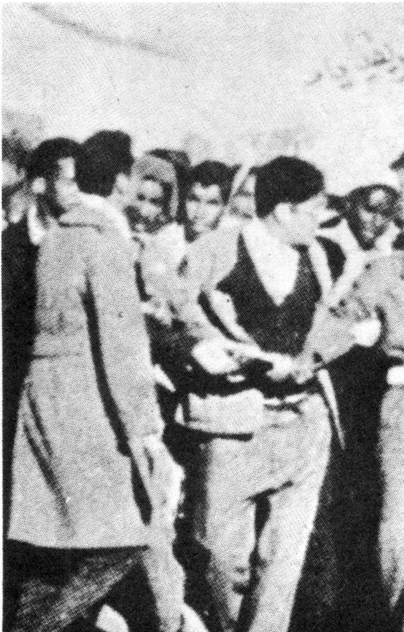
صورة التقطت في عام ١٩٦٤ بمبنى الكلية العسكرية في بنغازي ومعمر القذافي في يسار الصورة .



معمر القذافي يتجول في أحد شوارع لندن وهو يرتدي الزي الوطني إعتزازاً به وارتباطاً بالوطن .



معمر واثنان من الضباط الأحرار — ولقاء في الريف الذي يترك انطباعات عميقة في نفسه .



مظاهرة سبها — بداية النهاية لسني معمر الدراسية في فزّان .



مدينة بنغازي، في أول احتفال شعبي يقام للثورة وأول ظهور علني لمعمر وصحبه من الضباط الأحرار.



الإحتفال الثاني والذي أُقيم في طرابلس . ووعد معمر أثناءه الجماهير بأنه سوف يتم إجلاء جميع القوات العسكرية الأجنبية وقد تحقق الوعد بالفعل ، وأصبحت البلاد تحتفل بجلاء القوات البريطانية والأمريكية كل عام .

ابتسامة النصر على وجه بعض الضباط الذين ساهموا في قيام الثورة

الثلاثاء ٥ /١١/١٩٥٧



من المرج حمل الينا البريد رسالة
لاستاذ احمد المهدى الهونى المدرس
سة المرج يقترح فيهـا تخصيص
فى الجريدة تقدم فيه كل اسبوع
ات وبيانـات عن احدى دول

فد اقتراحك ياسيد احمد فى
المناسب وشكرا .

ا السيد مسعود منصور عمـر
فى عمارة الجنزورى بشـارع
د طرابلس فانه يطلب الينا ان
مراسلا لجريدة فزان فى الجمهورية
سية ولسنا ندرى كيف سيتمكن
وافاتنا باخبار تونس وهو المقيم
ابلس .
على كل حال فاننا لا نمانع فى

نشر مايصلنا منك ياسيد مسعود من انباء تونس اذا كانت هذه الانبـاء (طازة ! !)

والطالب معمر ابو منيار القذافى بمدرسة سبها الاعدادية يسألنا :

١) عن مصير زعماء الجزائر الخمسة الذين قبضت عليهم السلطات الفرنسية فى العام الماضى .

٢) عما حدث لبئر البترول الواقعة فى ارض العوينات .

وجوابنا على سؤالـه الاول ان الزعماء الجزائريين موجودين حاليا فى معتقل بفرنسا وان السلطات الفرنسية تعتزم نقلهم للجزائـر لاعتقالهم ومحاكمتهم فى محاكمها العسكرية .

وان هذه الخطوة من فرنسا تجد

تلقيناخطابا يهنىء فيه بصدور فـزان ويقول :

(.. انه ليسعدنى القول دون خوف من عثار ان فزان ستساعد على نشر الوعى الفكـرى ..)

ويطلب فى نهاية خطابه ان نعينه محرر بالجريدة - ونؤكد لك يا سيد تكبالى ان طلبك هو الان موضع الدراسـة مع كل الطلبات التى وصلت الى هذه الجريدة .

(ومن عقيلةبن محمد غيث الهونى فى طرابلس تلقينا خطابا تضمن عواطفه الطيبة ومشاعره الكريمة نحو (فزان) والقائمين عليها .

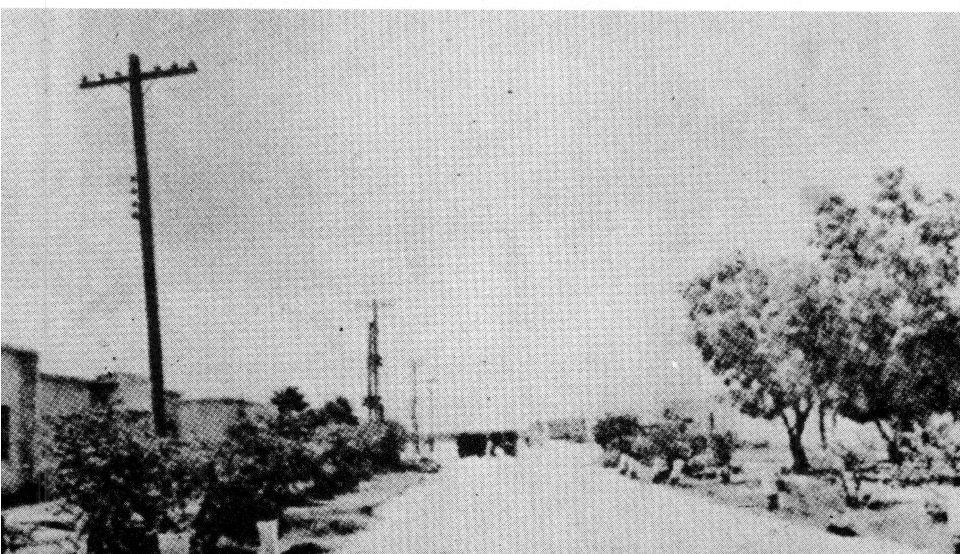
ومن الاستاذ خليفـة على العربى المدرس بمنطقة الجفرة تلقينا تحيـة شعرية لجريدة فزان هذا مطلعها :

لك يا « فـزان » الف تحية
ولك السلام مع احر تهانى !

والاديب عبد الحميد عثمان بـن بركة من طرابلس يدعو الجريـدة

رسالة إلى جريدة فزان . . وكم أثارت سياسات الشمال الأفريقي إهتمام الطالب معمر .

معسكر قار يونس حيث تمركزت طلائع القوات التي بدأت الزحف على بنغازي .



الهندسة في مدينة بنغازي . وفي معسكر قار يونس ، كان معمر منهمكاً في إعداد الخطة العسكرية نفسها وتحديد التاريخ المناسب لها . وفي نفس الوقت أخذ يحاول بلا كلل ، تحريض جماهير الطلبة في بنغازي على القيام بمظاهرة ضد وجود القوات العسكرية الأجنبية في ليبيا . ولكن وفي اللحظات الأخيرة التي سبقت وضع اللمسات النهائية لهذه العملية . ووسط مشاعر الرهبة والقلق الذي سيطر على صباح ذلك اليوم المشهود والمحدد لتنفيذ العملية ، وقع مالم يكن في الحسبان .

فقد صدر قرار مفاجيئ بنقل معمر من قار يونس إلى معسكر الفرناج في مدينة طرابلس لقد سبب القرار لمعمر خيبة أمل كبيرة وهز أعماقه بشدة ، فقد كان الأمر العسكري مفاجأة له . غير أن مفاجأة أخرى ، أشد وأكبر هولاً كانت تنتظره هناك ، فما أن وصل إلى طرابلس حتى أعد له مسكن فاخر يحيط به بستان رائع الجمال مليئ بأشجار الكروم . وقد عومل معاملة حسنة جداً لدرجة التدليل . فلم تكن هناك طوابير التفتيش الصباحية ولكنه أوكل إليه مهمة الإشراف على إنشاء محطة مواصلات سلكية في طرابلس .

وإلى حد ما لم يكن ذلك الوضع يروق معمرا كثيراً ولم يكن له ما يبرره . لقد كان يدرك أن هذه المعاملة الطيبة التي لم يَرَ ويحس بها أو يعشها من قبل في معسكرات الجيش ، لم تكن أمرا طبيعياً أو حتى منطقيا . لقد اقتنع بأن ذوي الرتب العالية في الجيش يدبرون مكيدة ما وأنه مجرد رهينة في هذه اللعبة . أدى قرار نقله المفاجيئ إلى طرابلس إلى عزله تماماً عن مجريات الأمور في تلك اللحظات الحاسمة من تنفيذ العملية التي مهد وأعد لها ضد القواعد العسكرية الأجنبية . لقد أبعده القرار عن بقية أفراد مجموعته في قار يونس في الوقت الذي أصبح فيه تنفيذ العملية ضد القوات البريطانية والأمريكية في ليبيا قاب قوسين أو أدنى . وعلى الرغم من الضيق والمعاناة فقد أحس بأنه يستطيع العمل أو ربما أن يشرع مجدداً في مواصلة عملياته السرية من تلك البقعة المعزولة .

وبعد اتصاله ببعض العناصر الثورية التي تعرف عليها في بنغازي استطاع أن يحصل على أسماء بعض الأشخاص للاتصال بهم في طرابلس والإعداد لعقد اجتماع بهم . وفي سبيل توخي أكبر قدر ممكن من الحيطة وتأكيداً على أنه سيجتمع بالأشخاص المطلوبين فقد أعطيت له نصف ورقة الجنيه وكان على الآخرين أن يبرزوا له النصف الثاني للجنيه نفسه .

كانت طرابلس وقتذاك تعيش قلاقل واضطرابات لم يسبق لها مثيل ، فالعمال مضربون والمنشورات السرية تتداول في كل مكان . وفي مدينة الزاوية ، الواقعة على بعد خمسة وأربعين كيلومتراً غربي مدينة طرابلس ، كان الشعب يعد نفسه للقيام بزحف جريئ على قاعدة «هويلس» الأمريكية بطرابلس . أحس الأمريكيون المرابطون بالقاعدة بالخطر المحدق بهم فقاموا باتخاذ جميع التدابير الاحتياطية فاوقفوا جميع الإجازات عن العاملين الأمريكيين بالقاعدة ومنعوا ممثلي الشركات النفطية الأمريكية المتواجدين في الخارج من القدوم إلى ليبيا . وفي داخل طرابلس تحصن المتظاهرون في أماكن متفرقة واشتبكوا مع قوات الأمن بالسلاح الأبيض على امتداد شوارع المدينة .

مارست قوات الشرطة أقسى صنوف التعذيب والعنف ضد المتظاهرين بناء على التعليمات الملكية الصادرة إليهم من القصر . وقد أسفرت المظاهرة عن وقوع ضحايا وعدة إصابات . كان الجو مشحوناً بالغليان الشعبي بينما كان معمر يحس وكأنه ينام على جمر داخل ذلك المسكن الفاخر الذي وضع فيه رغماً عنه فهو ليس بالمكان الذي يجب أن يكون فيه . لقد شعر بأنه لا بد له أن يكون جزءا مشاركا في هذا العمل الجبار الذي منعه القدر من المشاركة فيه .

تذكر ساعتها أنه كان قد شاهد رزمة من المنشورات السرية في منزل على الفيتوري ، أحد أصدقائه الذي كان قد تناول معه طعام الغذاء منذ وقت قصير فقام بجمع المنشورات وراح يوزعها عبر شوارع مدينة طرابلس بينما كان يقود سيارته بسرعة وفي بعض الاحيان بسرعة جنونية لتجنب أنظار الشرطة لأنه كان يرتدي بزته العسكرية . كانت المدينة تعج برجال الشرطة وسيارات الدورية حتى بدوا له وكأنهم منزرعون في كل مكان وحول كل ركن .

ولكن معمر كان يخفض السرعة كلما رأى جمهرة من الناس ليرمي لهم بمجموعة من المنشورات من شباك السيارة . وبعد ذلك بدأ يزور مدينة الزاوية باستمرار للحصول على مزيد من المنشورات من عدة متاجر صغيرة كانت تخفيها عن الأنظار . وكان يقود مركبته بسرعة فائقة في كل مرة يقوم فيها بتوزيع منشورات في مدينة طرابلس رغم المخاطر الجمة التي يحل وزرها بكل من يقدم على هذا العمل الجريء .

شعر معمر بأن الأمور لن تسير على مايرام إلا عن طريق القيام بعملية عسكرية

لأن الهجوم على القواعد العسكرية الأجنبية بات ضرورة ملحة . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية ، قام بالاتصال بعضو من حزب القوميين العرب وطلب منه تجنيد أكبر عدد ممكن من العناصر للقيام بهذه العملية . لقد أدرك معمر أن العملية لا بد أن تكون بادرة وطنية وأنها ستخدم القضية الوطنية ولا شك إلا أنه لم يكن يقصد من وراء هذا العمل الاتصال بهم والغوص في خضم الجدليات الحزبية العقيمة وكان لا بد من استخدامهم لتنفيذ هدف أسمى وأنبل .

وقد أبلغ عضو الحزب بعدم إرسال أي تقرير إلى المنظمة السياسية التي يمثلها لأنه كان لا بد من قصر المسألة على تنفيذ عملية عسكرية من المقاومة المسلحة ضد القوات الأجنبية في البلاد .

ومع هذا أصيب بخيبة أملٍ عندما نكث ذلك الرجل وعده ولم يحرك ساكناً للمساهمة في هذه المهمة . انتظر معمر الجواب منه بفارغ الصبر دون جدوى ، فلم يكن يريد أن يضيع الوقت الثمين في الاتصال الفوري بالراغبين من الليبيين للاشتراك في هذا الهجوم. وبدلاً من ذلك، فقد علم أنه قد وصل تقرير من ممثل ذلك الحزب إلى حزبه خروجاً عن رغبته. وقد أبلغ معمر بعد انتظار طويل بأنه قد صدرت توصية من الحزب بالترحيب به عضوا في الحزب . لقد سببت هذه الواقعة لمعمر إحساساً مريراً بعدم الرضا والنفور من الأحزاب . وفي نظره كانت العملية العسكرية أسمى من السياسات الحزبية . استغرب معمر بعد كل الذي حصل من السبب الذي يدعو الكثيرين إلى الانضواء تحت راية الاحزاب والخوض في صراعات جدلية عقيمة .

١٤ ــ سوء الفهــم
قينس ــ ٩ أغسطس ١٩٦٨

آثر معمر ورفاقه في ذلك اليوم السفر براً منتظرين وصول الخويلدي الحميدي الذي كان مقره معسكر درنه ، حتى وصل إلى قار يونس ليجد معمرا ومصطفى الخروبي قد أعدا العدة لمواصلة الرحلة معه إلى مدينة سرت لحضور الإجتماع السري للجنة المركزية . كان اليوم يوم جمعة ، وهو عطلة رسمية ، فطلب الضباط احتساب اليوم التالي إجازة لتمتد العطلة ويتسنى لهم الوقت الكافي لحضور هذا الإجتماع المهم إذ كانت مخططات الثورة قد بلغت مرحلة متقدمة شعرت اللجنة المركزية معها بالقدرة على القيام بالثورة إذا ما لاحت الفرصة المواتية .

لم تكن المهمة سهلة ميسورة إذ كان لا بد من الإستيلاء على كلٍ من طرابلس وبنغازي في آن واحد ، وكان من الأهمية بمكان التأكد قبل إعلان «ساعة الصفر» بل وقبل تحديد يوم الثورة ذاتها من أن أكبر عدد ممكن من كبار ضباط الجيش سيكونون مجتمعين في مكان واحد لسيسهل القبض عليهم في عملية سريعة مباغتة .

كان السفر بالبر مهمة تزداد خطورة يوماً بعد يوم بسبب انتشار نقاط التفتيش برجالها المسلحين في مداخل المدن الرئيسية جميعها حيث كانت البطاقات الشخصية تفحص بتمعن وتكثر الإستفسارات الدقيقة عن أهداف الرحلة ، فضلا عما كان يُفرض من قيود جديدة تزيد السفر صعوبة ومشقة . في تلك الأوقات أكثرت اللجنة المركزية من اجتماعاتها للاستفادة من كل لحظة سانحة لدى الضباط الوحدويين الأحرار .

كانت المساحات الشاسعة تفصل بين مدينة ومدينة وبين قرية وأخرى وكانت الوسيلة الوحيدة للاتصال عبر هذه المسافات الطويلة آنذاك طرق ضيقة متعرجة

إذا ما خيم عليها الظلام أصبحت القيادة عملية بطيئة محفوفة بالمخاطر ، لقد بدأ الضباط الرحلة بمجرد وصول الخويلدي من رحلة طويلة قاطعاً مئات الكيلومترات بين درنة ومعسكر قار يونس أما رحلتهم الجماعية فكانت قصيرة إذ لا تبعد قمينس عن بنغازي بأكثر من خمسين كيلومترا .

ولما كان من المتوقع أن يقام حفل زفاف في قمينس، قرر معمر المرور بتلك القرية الصغيرة قبل الانطلاق في طريقهما إلى سرت ، بهدف تغطية تحركاتهم الجماعية متخذين من هٰذا الحفل مبرراً لرحلتهم إذا ما سئلوا عن ذلك في المستقبل خصوصاً بعد تسرب بعض المنشورات إلى داخل المعسكرات . كانت الشكوك تساور معمراً أو تحمله على الاعتقاد بأنهم تحت المراقبة بل ربما هناك من يتعقبهم فكان من الضروري في مثل تلك الأحوال تجنب أية مخاطر لا داعي لها ، ومن ثم كان حفل الزفاف بمثابة العذر للتمويه على اجتماعهم . فالحفل على الطريقة الليبية يمتد إلى ثلاثة أو أربعة أيام متتالية بلياليها مما يمكنهم من حضور الحفل في بدايته ثم الذهاب إلى سرت لحضور الإجتماع والعودة إلى قمينس مرة ثانية قبل نهاية الحفل .

وما أن بلغوا خيمة عوض حمزة في قرية قمينس حتى وجدوا الحفل على وشك البداية، فقد امتلأ المكان بالمدعوين والأقارب الذين جاءوا يقدمون التهاني للعروسين أو لبعضهم البعض وعلا الضجيج وارتفعت أصوات الحاضرين وهم ينشدون الأغاني والأهازيج الشعبية وعلت زغاريد حملة البخور لتطغى على أصوات الحاضرين وتهيأ القادمون لتناول طعام العشاء . وهكذا يمضي الحفل ويستمر الهرج والمرج عدة أيام متواصلة .

راقب معمر ما يجري في الحفل بعدم اكتراث يكاد يبلغ حد الإباء والنفور ، فلم يكن للمآدب والولائم آنذاك مكان في قائمة أولوياته بل كانت الثورة شغله الشاغل مع بقية الضباط الوحدويين الأحرار . وقد كان ذلك يعني توجيه كل جهوده وإمكانياته في اتجاه واحد من أجل تحقيق هدف أسمى وانبل يتعلق بمصير البلاد . كانت تلك الحقبة الزمنية من تاريخ الثورة مليئة بالاستعدادات الضخمة والاجتماعات المتعددة بحيث لم يعد يشغل باله شيئ سوى هذا الهدف النبيل الذي طغى على كل مشاعره وأفكاره . كانت تلك الأيام مقدمة لتتويج يوم الثورة المنتظر الذي من شأنه أن يعمل على تغيير مجرى الحياة الساسية في البلاد بأسرها .

كان عوض حمزة منهمكا في مجاملة ضيوفه ، ولم تكن مهمته يسيرة كصاحب حفل أمام هذا الحشد من المدعوين والأقارب عندما طلب منه معمر التكتم على أمر مغادرتهم للمكان حتى لا يثير غيابهم شكوك الآخرين أو تساؤلاتهم فوافق على الفور بعد أن بحث الضباط الأربعة تفاصيل الاجتماع المقرر عقده واتفقوا مع عوض حمزة على أن يعودوا إلى الحفل وهم في طريق عودتهم إلى قمينس على أنها «زيارة ما بعد الزفاف» .

غادر معمر وصاحباه قمينس في وقت متأخر من الليل قاصدين سرت على طول الطريق الساحلي ليصلوها في ساعة مبكرة من صبيحة اليوم التالي ، وما أن يلغوا المدينة حتى تبينوا أن عدد الأسرّة الشاغرة في فندقها الذي يحمل اسمها ليس كافيا ، خاصة وأن عدداً آخر من الضباط الأحرار سيصل في وقت لاحقٍ ، بل كان محمد نجم وعبد المنعم الهوني وعبد السلام جلود . قد وصلوا بالفعل وتقاسموا غرفة واحدة ولم يكن أمامهم من خيار سوى التكيف مع هذا الوضع . ولكن تشاء الصدف أن يقرر بعض النزلاء مغادرة الفندق تاركين للضباط الأحرار غرفة أخرى .

كان من المقرر أن يبدأ الإجتماع في صبيحة ذلك اليوم في منطقة لا يتردد عليها أحد من سكان المنطقة وتسمى «الزعفران» بحضور عدد من الضباط يمثل كل منهم فصيلاً عسكريا. ونظراً لضخامة العدد الذي كان مقررا له حضور هذا الإجتماع المهم وعلى غير العادة . فقد حرص الضباط على ألا يشاهَدوا معاً بأعداد كبيرة لأن ذلك سيثير ولا شك فضول الآخرين وتساؤلاتهم . كما أنهم لم يحبذوا في نفس الوقت عقد الإجتماع في الفندق خشية أن يؤدي هذا العدد الكبير إلى انتشار الشائعات وبالطبع إلى إثارة فضول نزلاء الفندق ، وهذا مالم يكن يريده معمر .

لم تكن الأمور تسير وفقاً للخطة المرسومة ، وفي تلك الليلة بالذات كان الشك يساور معمرا ، فهو يخشي أن يأتي المجهول بما ليس في حسبانهم وذلك لطول انتظارهم وصول الضباط الآخرين إلى سرت ، وما صاحبه من القلق كان أشد من أن يحتمل في مثل تلك الساعات العصيبة الحاسمة . ولم يقطع تيار هذا القلق الشديد غير جلبة خارج الفندق استرعت انتباه معمر لينسى مؤقتاً لحظات الانتظار المملة . كان الضجيج آتٍ من عربة «مرسيدس» غاصت إطاراتها وهي تقل زوجين وهما يغادران الفندق في المكان المخصص لوقوف العربات . فما كان من أبي

بكر يونس . وهو لا يزال يرتدي بزته العسكرية ، إلا أن اندفع للمساعدة غير مدرك لخطورة ما كان يقوم به . وعبثاً حاول دفع العربة التي كانت إطاراتها قد غاصت تماماً داخل الأرض الرخوة . فلم ترَبقية المجموعة بدا من مساعدة أبي بكر حتى لا تثير الواقعة فضولاً أكثر . ومن حسن الحظ لم تثر بزاتهم العسكرية إنتباهاً كبيراً ومرت الواقعة بسلام باستثناء التلف الذي ألحقته ببدلة أبي بكر يونس .

ما كان لذلك اليوم أن يمر بسلام ولم يلحظ معمر قبل أن يتدخل لفض المشكلة ، كيف بدأت المشادة بين محمد نجم وصاحب الفندق الذي طالب بأجر مضاعف بحجة أنه احتفظ لهم بالغرفة التي تركها الزوجان لتوهما . كان معمر مقتنعاً بأنه ليس من حق صاحب الفندق أن يتقاضى أجراً مضاعفاً ، لكنه كان في نفس الوقت موقناً بأن الرجل الذي لن يعترف بخطأه سيحيل الأمر إلى الجهات المختصة وهو ما كان معمر وبقية الضباط الوحدويين الأحرار يخشونه في تلك المرحلة الدقيقة من خططهم . فحضور رجال الشرطة إلى هذا المكان أمر غير مستحب على الإطلاق حيث إن أسئلتهم ستفضي إلى المزيد من التساؤلات . كان الضابط الثائر يعلم أنه لو استدعي رجال الشرطة لما اقتصر التحقيق على مسألة دفع الأجرة ، وكان لا بد من الروية وتحكيم العقل إذا ما أريد للإجتماع النجاح .

لم يكن ثمة مخرج وأدرك محمد نجم في أسى ، أنه لا سبيل أمامه غير الاعتذار لصاحب الفندق والإذعان لمطلبه وهكذا سويت المسألة واعتبرت برمتها ضرباً من سؤ الفهم وتقبل الضباط ، على الرغم منهم ، أنه من حق صاحب الفندق أن يتقاضى أجراً مضاعفاً بل وأكثر لو أنه شاء ذلك . كان الموقف مثيراً للضحك لكن معمراً كان يدرك تماماً أن صاحب فندق سرت ليس استثناء من قاعدة الاستغلال بل هو القاعدة ذاتها وإن وجد استثناء فهو محدود للغاية . إلا أن التسليم النهائي بمطالب صاحب الفندق ولو على مضض ، أنقذ مهمتهم ووفر لهم الأمان رغم إحساسهم العميق بأنه ما كان يجب الإذعان لمطالب الرجل التي لم تزد عن كونها نوعاً من الابتزاز .

ولما دنا موعد الإجتماع أرسل مختار القروي إلى المدينة لشراء الطعام . وقد وقع عليه الاختيار لأنه لم يكن معروفاً لدى أهل سرت مما يقلل إلى حد كبير من فرص الإلتقاء بالمعارف والأصدقاء وما أن تناولوا طعامهم حتى قرروا التوجه إلى

« الزعفران » حيث كان من المقرر أن يعقد الإجتماع وهو مكان يتناسب وأهدافهم تماماً حيث لا يرتاده أحد .

وهناك طرحت على بساط البحث عدة مواضيع هامة واحتل تنظيم ضباط الصف مكان الصدارة في جدول الأعمال ، تلك المهمة التي أسندت إلى مصطفى الخروبي . كما تقرر القيام بحصرٍ دقيق لقوة الجيش وإمكانياته الفعلية بما يملك من ذخيرة ودبابات وعربات مصفحة وآليات أخرى على أن يتم هذا الحصر في أقل وقت ممكن ليعرض في اجتماع اللجنة المركزية المقبل .

كما بُحث في الإجتماع وضع خريجي الكلية العسكرية داخل الحركة إذ لا بد من توفير الرعاية لهؤلاء الشبان ، كما لا بد أن تعرف اللجنة المزيد عنهم وعن ماضيهم ودوافعهم وأمانيِّهم. كان بعضهم قد تخرج في الدفعة العاشرة والبعض الآخر سيتخرج في المستقبل القريب ، ومن ثم أرادت اللجنة أن تلمّ بأكبر قدر ممكن من المعلومات عنهم وهم بعد في الكلية العسكرية .

وانتهى الإجتماع المطول بعد طرح عدد آخر من القضايا ومناقشتها وسرعان ما تفرق الضباط الذين اشتركوا في الإجتماع كالعادة في ربوع البلاد وعاد معهم أبو بكر يونس الذي كان في إجازه في مدينة بنغازي ، أما معمر فقد قرر أن يزور أبويه في منطقة أبي هادي القريبة من المكان قبل أن ينطلق إلى قمينس ومنها إلى قار يونس . ولم يكن الوصول إلى خيمتهم كالعادة أمراً سهلاً حيث كان الطريق المؤدي إليها متعرجاً ويمر بوديان وأخاديد لا حصر لها ، بل ويمر أحياناً بمنطقة وعرة يتطلب اجتيازها حَذَراً بالغا . كانت الرحلة قاسية كقسوة الحياة في هذه المنطقة من البلاد .

لكن سرعان ما عاد معمر إلى حفل الزفاف في قمينس ليبلغ عوض حمزة وملازماً يدعى الريفي الشريف من نفس كتيبة حمزة بكل ما جرى في لقاء سرت وأوضح لهما مدى أهمية الحصول على المعلومات الدقيقة الكاملة عن القوة الفعلية للجيش ، وحدثهما عما أثير في الإجتماع من موضوعات أخرى قبل أن يستأذنهما في العودة إلى المعسكر في قار يونس .

١٥ ــ الحادثــة

طرابلس ــ يناير ١٩٦٩

كان ذلك اليوم من شهر يناير ملهما ، فالجو مشرق على غير عادته في مثل هذا الوقت من السنة . والدفء منتشر وإن اشتدت البرودة في المساء . ففي طرابلس ينزع الطقس إلى التقلب في هذه الفترة . فإذا بالسماء الملبدة بالغيوم تنقشع في لمح البصر لتحل محلها السماء الزرقاء الصافية ويتعاقب الدفء والبرد في نظام يكاد يبلغ من الدقة ما يتعذر على المرء فهمه أو قبوله. وكالعادة كانت شوارع طرابلس مزدحمة بحركة المرور لينطلق مئات الأفراد مهرولين خارج مبنى البريد في ميدان الجزائر الذي سمي بهذا الإسم تضامناً مع زعماء النضال في الجزائر الشقيقة . غير مدركين للتغيير المفاجئ غير المتوقع الذي من شأنه أن يغير مجرى تاريخ البلاد . ولاح اليوم لكثيرين ممن يرتادون محال الأزياء في شارع الاستقلال أو ممن يمضون الوقت بالمقاهي على جانبي الطريق أشبه بأي يوم آخر ولم يكن هناك ما هو أبعد عن تفكيرهم من حقيقة أن اللجنة المركزية للضباط الوحدويين الأحرار تجتمع في ثكنات القيادة العسكرية لتحديد يوم انبلاج الثورة .

انطلق سكان طرابلس وعددهم نحو ٣٨٠ ألف نسمة في ذلك الوقت ، إلى أعمالهم اليومية كأي يوم آخر بعد أن تكيفوا مع التغييرات التي اجتاحت المدينة خلال عشرات السنين الماضية والتي أحالتها من مدينة عربية نموذجية تعرف «بطرابلس الغرب» إلى مدينة مزدهرة تعد من أهم مدن شمال إفريقية وأعرقها .

وفي الأزمنة الغابرة ضرب حول هذه المدينة سور يرجع إلى الغزوات الرومانية للبلاد وإن كان قد سوي بالأرض منذ زمن بعيد رغم أن آثاراً أخرى لحقب سابقة كالبيزنطيين مثلا ، ظلت قائمة بعد أن تغلبت على عاديات الزمن ، أما طرابلس ذاتها فقد بنيت حول واحة خصيبة ساحرة بين البحر المتوسط في الشمال والصحراء الجرداء في الجنوب . وفي الأطراف الغربية للمدينة حيث واحة المنشية ومقبرة

سلاطين العائلة التركية القره مانلية ، تقف قلعة السراي الحمراء التي بنيت منذ قديم الزمان ــ لدرجة أن المؤرخين لم يتمكنوا من وضع تاريخ محدد لتشييدها ــ شامخة على شاطئ البحر . فإذا بطرابلس مدينة التاريخ والحضارة تعود لتقف من جديد على حافة التغيير الذي سوف يحدثه معمر والضباط الوحدويون الأحرار الذين كانوا سيبحثون آخر التطورات في مخططات ثورة من شأنها أن تطيح بالملك إدريس وتعيد تنظيم الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية للبلاد . كان معمر قد قطعَ شوطاً طويلاً منذ تلك الاجتماعات الأولى التي عقدها إبّان المراحل الدراسية المبكرة عندما كان يتحدث ويناقش رفاقه حول الوضع السياسي في ليبيا والمنطقة العربية. وما كان يبدو له في ذلك الوقت حلماً بعيد المنال أضحى اليوم حقيقة واقعة بعد معاناةٍ وطول أناة .

كانت الخطوط العريضة للثورة قد حددت مع الإهتمام البالغ بالتفاصيل ، ولم تبقَ سوى اللحظة المواتية لتوجية الضربة . . . فلم . يبقَ غير الضوء الاخضر لتنفيذ مخططات الثورة لخلق ليبيا الجديدة التي يتوقون إليها . غير أن تلك اللحظة كانت تدنو بسرعة ، وتحدد يوم الثاني عشر من مارس ــ يوم ميلاد الملك إدريس ــ موعداً لقيام الثورة ، ثم ماليث أن أرجيئ حتى يوم الرابع والعشرين من الشهر ذاته .

لكن المسافات الشاسعة التي تفصل بين أماكن هامة مثل طرابلس وبنغازي والبيضاء ودرنة تشكل للجنة معضلة عسيرة الحل ، إذ كان من الضرورة الملحة الإستيلاء على كافة المواقع التي لها قيمة استراتيجية في آن واحد .

كما كانت وسائل الاتصال المناسبة المتاحة تثير القلق ، وباتت الوسيلة الوحيدة لنقل الرسائل المهمة من مدينة إلى أخرى هي المبعوث أو الرسول ولم يكن هناك ما هو أفضل من ذلك إذا أريد الحفاظ على سرية الحركة والحيلولة دون كشف أمرها . ومع ذلك ساد شعور غريب بضرورة تفجير الثورة قريباً فقد لاحت الفرصة مواتية أكثر من أي وقت مضى .

لقد سبق لمعمر أن بعث مذكرة من أربع فقرات إلى عبد السلام جلود يطلب منه وضع الترتيبات اللازمة للإستيلاء على مدينة طرابلس بمجرد الانتهاء من التقرير الدقيق عن قوة الجيش والشرطة وإمكانياتهما من رجال وعتاد وآليات وذخيرة ، وحمل هذه الرسالة التي كتبها معمر بخط يده، عريف من سلاح الإشارة ، فما كان

من عبد السلام جلود إلا أن رد عليه بأن الضباط الوحدويين الأحرار على استعداد تام لتوجيه ضربتهم . . . . وأنهم بانتظار حلول اليوم المحدد لقيام الثورة بفارغ الصبر .

أصدر معمر بعض التعليمات والتوجيهات الأخرى التي طبعت منها عدة نسخ في «قار يونس» استعداداً لتوزيعها والتي أصبحت تعرف فيما بعد بالمنشورات السرية الأولى حيث كان هدفها تقييم قوة الحركة عن طريق وضعها بمحك العملية وأجريت عدة تقديرات إذ كان لا بد من القيام بتجربة قبل تنفيذ خطة الثورة . حيث كانت البيانات الإحصائية حول الأفراد والآليات والأسلحة والذخيرة لا تزال تجمع . وقد بدا واضحاً حتى في ذلك الوقت أن سيطرة الحركة كانت كاملة بل تجاوزت في سيطرتها كل تصور . وما أن انتهى توزيع المنشورات الأولى حتى أصبحت المهمة التالية للجنة المركزية هي تحديد يومٍ لقيام الثورة نفسها .

* * * * *

اخذ معمر إجازة مدتها خمسة وأربعون يوما ، وكانت أول إجازة له منذ التحاقه بالجيش ، ولما عاد إلى عمله اتضح له أن الموقف مشحون بالتوتر حيث زادت الإجتماعات وكثرت لقاءات الضباط الوحدويين الأحرار التي جرى معظمها بطرابلس بمنزل إقامة عبد السلام جلود بزاوية الدهماني أو بمنزل امحمد المقريف في بنغازي . في تلك الفترة الحاسمة لم يكن أحد ــ باستثناء الضباط الأحرار أنفسهم وجماعة من المدنيين الذين وصفوا بالتشكيل الشعبي داخل الحركة ــ يعلم أن خطط الثورة قد بلغت مثل هذه المرحلة المتقدمة وأن ساعة الصفر قد أزفت .

لم يكن أحد غير هؤلاء على بينة مما يجري وكان الضباط الأحرار مع أعضاء «التشكيل الشعبي» يمثلون قطاعاً عريضاً من بين صفوف الجيش والشعب وكان شغلهم الشاغل إبان لقاءاتهم هو وضع التقدير الدقيق لقوة كل جماعة داخل الجيش بالذات الذي كان متعاطفاً مع الثورة . وقد تم خلال أحد تلك الاجتماعات الاتفاق على موعد للثورة ، وبعد أن ناقش معمر هذه المسألة الحيوية مع جميع الضباط داخل الحركة ، اختير يوم الثاني عشر من مارس موعدا للعملية

الكبرى ، ومع ذلك سرعان ما اضطروا إلى تعديل خططهم عندما تبينوا أنه في نفس اليوم سوف تحيي أم كلثوم حفلاً غنائياً ساهراً بالمدينة الرياضية في بنغازي . ولما كانت أم كلثوم مطربة عربية مشهورة بقدرتها على الغناء ساعات طوالا تمتد من بداية السهرة حتى ساعة متأخرة من الليل ، لم يكن ثمة شك أنها ستجذب أعداداً غفيرة إلى الحفل مما يجعل الموقف غير ملائم للعمليات العسكرية التي تقررت كجزء من الخطة الشاملة الرامية إلى الإستيلاء على بنغازي . فبدلاً من سكون الليل الذي كانت الحركة ترى أنه يعزز من فرص النجاح ، كانت بنغازي ستزخر بأولئك الذين لا تفوتهم فرصة الاستماع إلى مطربة مصر الأولى . ولما كانت حفلاتها تجذب أعداداً كبيرة فإن كثيرين من كبار ضباط الجيش سيتواجدون بالمدينة الرياضية في تلك الليلة . لكل هذه الملابسات قرر معمر إعادة النظر في الموقف وإرجاء خطط القيام بالثورة .

في ذلك اليوم قرر الضابط الشاب مغادرة طرابلس بالعربة قاصداً بنغازي وبرفقته عبد الحميد شعماش وعبد الحميد زايد . كانت الرحلة من طرابلس إلى بنغازي على طول الطريق الساحلي شاقة إذ كان الطريق الجديد في طور البناء مما اضطرهم إلى قطع مسافات طويلة عبر طرق متعرجة تبدو من الضيق أحياناً بحيث يتعذر مرور عربتين متقابلتين في وقت واحد . وفي طريقهم مروا بمدينة الخمس التي تقع في ضواحيها آثار لبدة التاريخية التي ترمز إلى عظمة الحضارات القديمة وتعتبر من أشهر الآثار في منطقة البحر المتوسط . كانت لبدة أيام مجدها زاخرة بالنشاط . . . . كانت سوقاً ومنتدى ومقراً للاجتماعات يقطنها ما يربو على خمسين ألف نسمة تحت حكم الأمبراطور سبتموس سفيروس . بل ويرى بعض المؤرخين أن عظمة لبدة ترجع إلى حضارات سابقة لحضارة الرومان إذ عثروا على ما يدل على أن الفينيقيين استقروا بتلك المنطقة وأن هؤلاء التجار المشهورين وصلوا حتى مدينة صبراتة غربي طرابلس .

مرّ معمر ورفيقاه بمدينة لبده ، دون توقف . وسلكوا طريقاً متعرجة عبر الوديان والوهاد المنتشرة . . . . المنتشرة والممتدة . . . . بلا نهاية . رمالها منبسطة تغطيها من حين إلى آخر أشكال متباينة من ضروب النبت والشجيرات .

غير أن اعتدال ذلك اليوم وصحوه لم يكن يوحي بأنك في هذه المنطقة من

شمال إفريقيا وأنـه على مسافة غير بعيدة ــ تمتد صحراء إفريقيا القاسية ورمالها المحرقة .

وصل الركب إلى ميناء مصراته القديم ، ولم تتوقف العربة ، بل انطلقت في رحلتها الطويلة إلى بنغازي مارة بقرى صغيرة مثل تمينة والكراريم وتاورغاء وأبو قرين والبويرات . وفي سرت أراد معمر أن يتوقف ويزور أبويه فقد مضى وقت منذ أن زار خيمتهما بل قد يمر وقت طويل قبل أن تتاح له فرصة زيارتهما مالم ينتهز تلك الفرصة السانحة .

كانت زيارة الخيمة خاطفة ، وترك معمر أباه وأمه دون أن يشرب ما أعد له من شاي فقد كانت الرحلة لاتزال أمامهم طويلة بينما اقتربت عقارب الساعة من منتصف الليل حين تزداد القيادة صعوبة ويتعين الاعتماد على ذكائهم في العودة من الممر المتعرج الذي يسلكونه إلى الطريق الساحلي . وقطعت العربة مسافات طويلة بينما هم يستمعون إلى المذياع إذا بنبأ مفجع يذاع حول استشهاد عبد المنعم رياض . كان النبأ صدمة قاسية فاستبد بهم حزن عميق وبلا حدود ، لقد استشهد رياض ، رئيس أركان الجيش المصري البالغ من العمر اثنين وخمسين عاما في اشتباك مع القوات الإسرائيلية إذ كانت المعارك المتقطعة لا تزال تنشب على طول الحدود المصرية ــ الإسرئيلية على الرغم من أن حرب عام ١٩٦٧ كانت توقفت قبل ذلك بعامين على وجه التقريب .

ترك النبأ أثره الشديد عليهم فانطلق عبد الحميد شعماش بالعربة بسرعة رهيبة ولاح لأول وهلة وكأن العربة تجري فوق أرض غير ممهدة فما لبثت عجلة القيادة أن اهتزت فأدرك معمر ومن معه أن أحد الإطارين الأماميين قد انفجر واختل توازن العربة . حاول عبد الحميد جاهداً السيطرة على العربة بينما كان معمر يرقبه من مقعده الخلفي وهو يحاول في اضطراب شديد أن يحول عجلة القيادة في الإتجاه المعاكس ، وفي لمح البصر وقبل أن يتبين الركاب حقيقة ما جرى إذ السيارة تنقلب وتتدحرج خارج الطريق مثل الكرة .

طافت بعقل معمر أفكار مشئومة لكن ما أرقه أكثر من غيره هو ذلك المظروف الضخم الذي كان بصحبتهم والذي كان بداخله أوراق المنشور السري الذي كتبه بخط يده على ورق الحرير والتي كانت معدة للتوزيع على الضباط

الوحدويين الأحرار . وأدرك معمر أنه لو عثر على هذا المنشور في حطام السيارة لقضي على الثورة قبل أن ترى النور وكان هذا يعني نهاية عاجلة لسنوات من التخطيط الدقيق فضلاً عن أن العثور على المنشورات قد يضر بمستقبل وربما بحياة أعضاء الحركة الآخرين وظلت العربة تنقلب أشبه ما يكون بكرة ثقيلة كبيرة تتدحرج فوق منحدر سحيق دون توقف ، ولما توقفت أحدثت صوت انفجار مدوٍ .

سارع معمر . وكان قد ألم به دوار وأصابته رضوض ، ولكنه لم يصب بجراح ، إلى استعادة المظروف خشية أن يعثر عليه ممن يهبون لإنقاذهم ، وتبددت مخاوفه عندما تبيَّن له أن عبد الحميد شعماش لم يلحق به ضرر وأن جرحاً طفيفاً في اليد أصاب رفيقهما الثالث . ولم تمضِ لحظات حتى هرع عدد من الأشخاص إلى مكان الحادث الذي تسبب في تحطيم العربة ، ولكن وجود زجاجة ماء مقطرة في خلف العربة المتحطمة أثارت نفور الكثيرين ونسبوا وقوع الحادثة إليها ظنا منهم في ذلك الوقت المتأخر من الليل أنها زجاجة خمر .

لم تكن حوادث المرور والوفيات أمراً غير مألوف في ليبيا وخاصة على الطريق الساحلي . لقد أظهر الذين هبوا لمساعدة معمر وصحبه استياءً واضحاً من شرب الخمر لكن الذي غاب عن ذهنهم هو أن الزجاجة الموجودة بالمقعد الخلفي للعربة لم تكن تحتوي إلا على ماء مقطر كان معمر قد ابتاعها من أبي قرين قبل أن تواصل السيارة رحلتها بعد استراحة قصيرة . وعلى الرغم من أن الموقف كان بالنسبة له مؤسفاً إلا أنه لاذ بالصمت ولم يتسنَ له أن يخبر من هبّوا لنجدتهم بأنه لا يقل عنهم كراهية للخمر وآثر ألا يقول شيئاً حول هذا الأمر رغم ما كان يحس به من ألم شديد حين نسب كل ما حدث إلى الخمر وآثر أن ينسب إلى الزجاجة ما حدث على أن يدافع عن نفسه ومن معه بما ينطوي عليه ذلك الخوض في مزيد من الاستفسارات والإيضاحات عن هدف رحلتهم تلك .

نقل معمر ورفيقاه إلى معسكر أبي التمر في البريقة وفي الطريق أخذ يسترجع أحداث الأيام القليلة الماضية وأدرك أن الحادثة كان يمكن أن تؤدي إلى نتائج لا تُحمد عقباها وهو ما كان عاقد العزم على تجنبه بأي ثمن . ولما بلغوا المعسكر قيل لهم أن التحقيق في الحادثة سوف لا يجري هناك بل في إجدابيا وهي قرية صغيرة تبعد مائة وخمسين كيلومترا من مدينة بنغازي . كانت يد عبد الحميد زائد لا تزال

تنزف إلا أن الجرح لم يكن خطيراً ولم يكن ثمة ما يبعث على القلق بعد أن ضُمِّد ، كما لم يكن في التحقيق ما يثير انزعاجهم حيث كانت العربة ملكا لمعمر الذي ذكر في التحقيق أنه كان يقود السيارة عندما انقلبت بهم تجنباً لأية تعقيدات محتملة .

ومع ذلك اتسمت هذه الفترة من حياة معمر وصحبه من الضباط الوحدويين الأحرار بالقلق والتوتر ، فقد كان هذا وقت اتخاذ القرارات بما تمليه عليهم الظروف للقيام بالإجراءات التي تتسم بالشجاعة . كانت حادثة الطريق خارج حدود سرت سيئة وبالغة الخطورة وكان يمكن أن تكون ذات عواقب وخيمة لقضيتهم الأولى ، وقد أدرك معمر أكثر من أي وقت مضى مدى ما ينبغي أن يكونوا عليه من حذر إذ كان التوازن بين النجاح والفشل دقيقاً على نحو لا يسمح فيه بأقل الأخطاء وأتفهها وإلا تعرضت أهداف الثورة التي كانوا يخططون لها للخطر .



التنظيم الشعبي . . أو الرصيد المؤكد للثورة حيث بدأت اجتماعاتهم منذ أيام التخطيط للثورة .

١٦ ـــ تحركـات مريبــة

طرابلس ـــ ١٨ مارس ١٩٦٩

بدت علامات القلـق مرتسـمة على وجـه معمر عندما استقل إحدى طائرات شركة الخطوط الملكية الليبية في رحلة داخلية لها من بنغازي إلى طرابلس ، بعد أن تعقدت الأمور وتشابكت على نحو خطير ، إذ بات موقناً الآن من أن السلطات الحاكمة تراقبه مع عدد آخر من أعضاء الحركة . لقد بلغ به الضيق في حقيقة الأمر حداً لا يمكن تحمله أو تجاهله .

وما أن انقضت أيام قليلة على وصوله لبنغازي بعد رحلتهم تلك المشئومة حتى اتصل به محمد المقريف ليبلغه بأن تحركات وصفت بأنها مشبوهة بدأت تدب في أوساط المدينة التي هو على مقربة منها . لقد انقضت أوقات عصيبة عاشها معمر مع بقية الضباط الأحرار ومن هم على اتصال ولو من بعيد بمخططات الثورة على أعصابهم ، أوقات مشحونة بالتوتر والقلق .

كان معمر قد آثر هو وبقية أعضاء اللجنة المركزية الابتعاد بقدر المستطاع عن كافة الأنشطة الاجتماعية والإنزواء عن غيرهم حرصاً على سلامة الحركة ، إلا أن ذلك لم يحجبهم بطبيعة الحال عن أن يعيشوا عن كثب مع من كانوا يعانون ويلات السياسة الإقتصادية التي كانت مستشرية في البلاد آنذاك فقد كانت تلك المآسي الوقود الذي يدفعهم نحو المضي قدماً في تنفيذ خطط الثورة . بيد أن ما كان يضايقهم ويؤرقهم هو أن من يعيشون بينهم ويتحدثون إليهم لا يدركون حقيقتهم ولا يعرفون شيئا عن التخطيط الذي يجري على قدم وساق لتقريب يوم الثورة ولا يعون المهمة التي تنتظر معمرا وصحبه من الضباط الوحدويين الأحرار . وبالرغم من ذلك كان معمر مقتنعاً تمام الاقتناع بأنَّ التخطيط للثورة سر لا بد من كتمانه مهما كلف الثمن ، ولم يكن من الحكمة تغليب جانب العاطفة في ذلك الوقت على الرغم من أن ما كان يثلج صدر معمر ورفاقه ويشعرهم بالارتياح والرضا هو

الرجوع إلى الشعب وإبلاغه أن أمراً عظيماً يدبر لصالحه وأن الأوضاع سوف تنقلب عما قريب رأساً على عقب .

ولما تقرر اليوم الثاني عشر من مارس موعداً لتفجير الثورة ، لم يكن هناك من يعرف بهذا الموعد سوى الضباط الذين كانوا سيشاركون في عمليات الإستيلاء وبعض من كانوا يشكلون جزءاً من الحركة الشعبية ، أما رجل الشارع العادي الذي فقد الأمل منذ وقت طويل واستسلم لحياة البؤس المستمرة ، وربما أذعن للتضحيات التي لم يسبق لها مثيل . فهذا الإنسان لم يكن يدري شيئاً عن بريق الأمل الذي أخذ يلوح في الأفق غير البعيد ، بيد أن هذا ما كان ينبغي أن يحدث إذ كانت المخاطر جمة وثمن الفشل باهظا . لم يكن معمر والضباط الأحرار يشكون في أنه إذا ما باءت الثورة بالفشل لكانت دماؤهم وأرواحهم ستذهب ثمناً لذلك ، إلا أنهم كانوا على استعداد للتضحية ودفع هذا الثمن الباهظ في سبيل بلدهم وشعبهم وأمتهم العربية .

أصلح معمر ظهر مقعده وشد حزام الأمان عندما شرعت الطائرة تحلق في سماء البحر المتوسط استعداداً للهبوط ، كانت طرابلس تمتد أمام ناظريه بمينائها العريق الذي كان القراصنة . . . المعروفون بوحشيتهم وهمجيتهم على مر العصور ، يهابونه بعد معركة فيلادلفيا المشهورة التي شتتت شملهم وطهرت البلاد والقوافل البحرية من شرورهم . وبالقرب من الميناء تبدو المدينة القديمة التي أضحت مجموعة من الأزقة والبيوت القديمة التي شهدت تاريخ المدينة . فطرابلس القديمة تختلف تمام الإختلاف عن المدينة الجديدة بمبانيها العصرية المتناسقة على الجانب الشرقي من القلعة الإسبانية ، وهي قديمة قدم التاريخ نفسه تخترقها الآف الشوارع الضيقة المتعرجة التي لا يتسع بعضها لشخصين يسيران جنباً إلى جنب ، كما أنها مركز للحرف القديمة حيث يمارس الطاعنون في السن ما كان يحترفه أسلافهم من صناعات منذ شروق الشمس حتى غروبها . . . . مدينة شرقية ما برح فيها الاسكافيون والصباغون والحدادون والحرفيون المهرة والتجار يعيشون نفس الحياة التي كان يعيشها آباؤهم وأجدادهم منذ أجيال وأجيال . . . . مكان لا تتوقف فيه عجلة الزمن ، ولعل دقات الساعة تعد تدخلاً ثقيل الظل في حياتهم تلك الصامتة التي تسير في أناة وتمضي على مهل .

ولا يحطم سكون المدينة القديمة تلك الدرة المتبقية من حضارة موغلة في

القدم . غير صوت المؤذن وهو يدعو المؤمنين إلى الصلاة خمس مرات في اليوم . إنها في الواقع مدينة تثير دهشة السياح ويتحدى أسلوب الحياة فيها كل تعريف وحضارة لا يفهم كنهها الكثيرون من الأجانب الذين يفدون إلى كافة أنحاء البلاد .

أخذت الطائرة في الهبوط بعد أن طلبت المضيفة من الركاب الكف عن التدخين واشتد أزيز المحرك واهتزت الطائرة عند ارتطام العجلات بأرض المطار وضغط الطيار على زرار خفض السرعة وسارت حتى منتهى الممر . راقب معمر الركاب وهم يتنفسون الصعداء كما يفعل كل إنسان تهبط به الطائرة .

كان الاضطراب بادياً على وجه معمر ، وإن شارك الآخرين الارتياح بسلامة الوصول . فقد قرر أن يطير إلى طرابلس فور أن أبلغه المقريف أن الأمور لا تسير على ما يرام في تلك المدينة . فلقد اتصل الملازم مفتاح علي بالمقريف وطلب منه أن يبلغ معمر بالعودة إلى طرابلس فوراً إذ تناهي إلى سمعه أن سلسلة من تطورات جديدة . ليست في صالح الثورة بدأت تحدث في داخل الجيش .

وسرعان ما ترك معمر المطار إذ كان يعلم أن الوصول إلى المدينة يستغرق قرابة الساعة . إلا أن الملازم خيري نوري كان في انتظاره وانطلقا على الفور إلى دراه حيث علم معمر بالحقيقة وما جد من تطورات .

كانت الأوامر قد صدرت إلى كافة القوات المسلحة المرابطة في مكان واحد وهو معسكر باب العزيزية كما تقرر نقل جميع أنواع الذخيرة ، ولم تكن هذه الأوامر تحمل توقيع أحد غير عبد العزيز الشلحي ، الرجل الذي كان مع أخيه عمر من أقرب المقربين إلى الملك العليل الذي لا ذرية له . ومن ثم سحبت القوات المرابطة في الخمس على بعد مائة وثلاثين كيلومتراً شرقي طرابلس ، وتلك التي ترابط في ثكنات ترهونة على مقربة من المدينة جنوب بن غشير ، وبدت التحركات ذاتها مريبة على نحو ينذر بالخطر وزاد توقيع الشلحي على الأوامر من مخاوف معمر من أن تكون السلطات قد اكتشفت أمرهم وما لاح منذ ساعات قليلة بأنه مجرد شك بات الآن حقيقة بشعة مخيفة . فإذا كان الشلحي وراء تلك التحركات فمعنى هذا أن السلطات والمخابرات العسكرية لا تتخبط . كما أن نقل القوات المدرعة دون علم قادتها جعل الموقف الميؤس منه مدمراً وخطيرا .

هذا فضلاً عن إصدار أمر آخر بسحب جميع الآليات العسكرية المخصصة

للقوات المرابطة في طرابلس ونقلها إلى بنغازي بعد أن تولى قيادتها ضباط غير قادتها .

كذلك أخذ رائد يدعى علي.شعبان والمقدم سليمان الفقي وغيرهما من الضباط الذين يعرف معمر أنهم ينتمون للمخابرات العسكرية يقومون بجولات تفتيشية خاطفة للمعسكرات ، مما زاد من يقين معمر أن المخابرات العسكرية قد اكتشفت الحركة . ومن ثم لم يبقَ أمامه غير سؤال ملح واحد هو : ما مدى ما تعرفه المخابرات العسكرية حقا ؟ لقد كانت الجولات التفتيشية مفاجئة وفي وقت غير متوقع . . . . في الساعات غير الملائمة سواء بالنهار أم بالليل . واشتد إحساس معمر بالتوجس والحذر عندما علم أن عقيداً آخر يدعى عون رحومة مع عدد من كبار ضباط الجيش يقومون بأنفسهم بدوريات في مدينة طرابلس مستخدمين العربات المدنية في تلك الدوريات التي كانت تتم في ساعات متأخرة من الليل وفي الساعات المبكرة من الصباح حيث كانوا يشاهَدون وهم يطوفون بشوارع طرابلس .

ساد الموقف جو من الترقب . . . . شيءْ وشيك الوقوع . لكن ما عساه أن يكون هذا الشيءْ يا ترى ؟ لقد ألحت هذه الفكرة وغيرها من الأفكار المماثلة على خاطر معمر وأخذت تؤرقه إذ بات واضحاً أن المخابرات العسكرية وراء أهداف بعينها حيث تم فجأة توزيع القوات في أماكن جديدة . ووضعت آليات الجيش في معسكرات وثكنات مغايرة ، وطفقت الدوريات تطوف شوارع المدينة . بل بلغت الأمور إلى الحد الذي أصبح معه العقيد «حسونه عاشور» ورجاله ينامون في ترسانة الجيش ومخازن الذخيرة .

لم يعد الموقف خافياً على معمر . فلم تكن المسألة مجرد إحساس يؤرقه بل بات على يقين أكثر من أي وقت مضى بأنه مراقب مع بقية الضباط الأحرار ، وبدا التحول المفاجئ يوحي بأن شيئاً خطيراً يلوح في الأفق . أما الذي لم يكن معمر يعرفه فهو صدور الأوامر بإلقاء القبض عليه ، وكان أمر القبض قد وقع في طرابلس قبل ذلك بثلاثة أيام . إلا أن الأمر لم ينفذ لأسباب لم يعرفها معمر إلا في وقت لا حق من رجال المخابرات أنفسهم الذين طلب إليهم تعقبه . في تلك الليلة لم يقترب معمر من أي معسكر وآثر أن يمضي الليلة في بيت خيرى إمعاناً في الحيطة والحذر .

لقد أحس معمر بأن الموقف يتدهور بسرعة وأن هذا التغيير المفاجئ يتطلب العمل وليس السلبية، وعلى الرغم من تعقيد الموقف وصعوبته دعا إلى عقد اجتماع بمنزل خيرى خالد حضره عدد من الضباط الأحرار . ومن لم يتسنَّ لهم الحضور كانوا على اتصال بما جرى في هذا الإجتماع الذي اتسمت مناقشاته بالتوتر والحماس .

بدت الظروف وكأنها توحي باتباع سياسة جديدة ووضع خطة غير السابقة ، ولاح احتمال المواجهة بالقوة أقوى من احتمال الإستيلاء على السلطة دون إراقة دماء كما كان مقرراً يوم الرابع والعشرين من شهر مارس ، ولعل ما طرأ على الأحداث من تغيير جعل اتخاذ قرار بهذا المعنى حتمياً لا مفر منه . لقد قتل جماعة من الضباط الأحرار التطورات الجديدة بحثا ، وتوصلوا إلى أنه لا مناص من التحرك السريع . ولما انفض الاجتماع كانوا قد اتفقوا على أن يظل يوم الرابع والعشرين من مارس ، أي بعد ستة أيام من هذا اللقاء ، هو الموعد المحدد للثورة .

١٧ — رحلة الملك

بنغازي — ١٩ مارس ١٩٦٩

تمتد مدينة بنغازي ، ثاني أكبر مدن ليبيا على ساحل البحر المتوسط مسافة تربو على الكيلومتر . وقد ازدهرت فأصبحت مدينة عصرية . غنية بتاريخها . زاخرة بتقاليدها ، أسسها اليونانيون واستوطنوها قروناً طويلة وخلعوا عليها إسمها القديم «هسبريدس» ليغيره فرعون مصر اليوناني في وقت لا حق ويطلق عليها اسم زوجته . أما الذي سمى بنغازي باسمها الحالي فهو «سيدي ابن غازي» إحدى الشخصيات الدينية التي لا يعرف عنها سوى أنه استقر في هذه المنطقة من شمال إفريقية في وقت مبكر يرجع إلى عام ١٤٥٠ في طريق عودته من مكة المكرمة بعد أداء فريضة الحج .

قدر لهذه المدينة التي لا تقل عراقة ومجداً عن نظيرتها طرابلس أن تلعب دوراً بارزاً إبان الحرب العالمية الثانية ، فقد تبادلها الغزاة خمس مرات قبل أن تنتصر القوات البريطانية بقيادة الجنرال برنارد مونتجمري . على الجيوش الألمانية والإيطالية في نوفمبر من عام ١٩٤٢ . وعلى الرغم من دستور الاستقلال الذي وضعته بريطانيا يوم الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٩٥٢ ، ظلت القواعد البريطانية باقية في جميع أنحاء المنطقة الشرقية من ليبيا . وبالاضافة إلى قاعدة العدم بالقرب من طبرق أقام البريطانيون في بنغازي ما بات يعرف بثكنات مستشفى (ويفيل) حيث الأحياء الخاصة التي كان يقطنها كبار قادة الجيش وغيرهم من الصفوة مع أسرهم ، كما كانت بعض القوات ترابط في ثكنات (ويفيل) بالإضافة إلى ثكنات أخرى للقوات المدرعة أقيمت في قلب المدينة .

وعلى مسافة ثمانية كيلومترات من بنغازي برزت ثكنات قار يونس حيث كانت ترابط منذ فترة وحدة سلاح الإشارة التي كان معمر أحد ضباطها . كانت قار يونس هي وجهة معمر حين غادر طرابلس إلى بنغازي عقب الإجتماع السري

الخطير الذي عقد بمنزل خيري قبل ذلك بساعات قليلة . وراح الضابط الشاب يفكر في أحداث الساعات القليلة السابقة ويتساءل عن مدى تأثيرها على الثورة بعد أن أدى الانقضاض غير المتوقع على مخازن السلاح والذخيرة والمدفعية إلى تغيير مفاجيء في الخطط التي ظل معمر مع الضباط الأحرار في اللجنة المركزية سنوات طويلة يرسمونها .

كان من الواضح أن المخابرات العسكرية تسعى جاهدة إلى إقناع الجميع بما تتخذه من إجراءات أمنية ولم يخفَ على معمر أن أحد الأشخاص نقل إلى السلطات بعض التفاصيل الهامة عن عمليات الاستيلاء على زمام الأمور في البلاد بل لعل شخصاً من داخل الحركة ذاتها هو الذي قام بنقل هذه المعلومات . حتى وإن كان من السابق لأوانه الجزم بمدى ما تعرفه المخابرات وما لا تعرفه عن الثورة ، إلا أن الفكرة في حد ذاتها كانت مبعث ضيق وانزعاج لمعمر على نحو لم يشعر به من قبل .

أخذت الطائرة تهبط رويداً رويداً فإذا ببنغازي تظهر شيئاً فشيئا . لكن الأراضي المنبسطة والحرارة الشديدة والفراغ الشاسع المحيط بالمطار جعل الجزء الأخير من الرحلة مبعثاً للضجر وإن لاح منظر المدينة من الطائرة جميلا . فعندما أرخى الليل سدوله بدت بنغازي وقد لفتها الأنوار المتلألئة فتسنى لمعمر أن يتعرف على منتزه الميناء الجميل الممتد من قبل البحر وأن يرى الشاطيء وقد هجره رواده . كما كان إستاد «الرابع والعشرين مٍن ديسمبر» أو ما يعرف بالمدينة الرياضية ، يسبح في أنوار النيون التي أكدت بأن أم كلثوم لاتزال تواصل حفلها الساهر . عندئذ طفق معمر يفكر في عدد الحاضرين في هذا الحفل ممن انطلقوا يحيون ويصفقون للمطربة التي أضرت شهرتها ، عن غير قصد أو إدراك ، بخطط الثورة التي سبق أن تحدد يوم الثاني عشر من شهر مارس موعداً لتفجيرها . كذلك ألح على خاطر معمر التفكير في العدد الضخم من ضباط الجيش الذين يحضرون حفل الليلة وفي الانقسام القائم في صفوف الجيش ذاته وبين الفارق بين الضباط الذين يعيشون حياة اللهو والترف ، ويروحون الآن النفس ، هناك . . . . في المدينة الرياضية وأولئك الذين نذروا أنفسهم للثورة .

أبلغ الضباط الأحرار المسئولون عن الألوية والوحدات بأن يوم الرابع والعشرين من مارس ، أي بعد خمسة أيام ، قد تحدد موعداً للثورة ومن ثم لم

يكن أمام الضباط الوحدويين الأحرار سوى خمسة أيام للقيام بالتعبئة والإعداد للثورة . وفي بنغازي كان معمر ينوي أن يضع التفاصيل الدقيقة والخطط النهائية ، إذ لم تزل هناك آلاف التفاصيل الدقيقة التي يتوقف عليها نجاح الثورة ، فتحركات الأمن جعلت أحداث تغييرات جذرية عديدة في الخطط أمراً جوهرياً ، فبالرغم من أنه لم يبق سوى خمسة أيام على الموعد المحدد بدأ الزمن وكأنه يسير في غير صالحهم .

وفي حميا النشاط وما يقتضيه اقتراب اليوم المحدد للثورة من جهود مضنية إذا بالقدر يتدخل مرة أخرى حينما قرر الملك إدريس ، الذي كان يعيش في ترف بأحد القصور الفخمة بطرابلس أن يترك المدينة إلى القلعة البريطانية في طبرق الواقعة على مسافة بضعة كيلومترات من الحدود المصرية . . . قرار مفاجيء أكد شكوك معمر ومخاوفه من أن المخابرات العسكرية تتعقب الحركة بنشاط ، وما جاء انتقال الملك إلى طبرق إلا لتأمين سلامته في حالة نشوب أية ثورة .

كانت قاعدة العدم البريطانية ، التي لا تبعد أكثر من ثلاثة وعشرين كيلومتراً شرقي طبرق حصناً عسكرياً منيعاً بالرغم من صغر مساحتها ومع أنها ستستخدم ، أساسا . لتدريب الطلبة العسكريين فقد كانت تضم أكبر شبكات الرادار وأكثرها فعالية في البلاد ولم تكن ساحتها الصغيرة تتناسب مع ما بها من إمكانيات عسكرية ضخمة ، حملت طلبة الكليات العسكرية في بريطانيا ، مثل كلية «ساندهيرست» على أن يفدوا إلى هذه القاعدة كل عام للقيام بتدريبات ، ولا سيما على الطيران ، إذ كانت العدم في أساسها قاعدة جوية تضم جناحاً لقاذفات القنابل من طراز هنتر .

أما موقعها القريب من خليج «بومبا» فقد أحالها موقعاً للتدريب على عمليات الهبوط على سطح البحر ، كما ساعدتها سماءوها الزرقاء الصافية على مدار السنة لتكون مكاناً رائعاً للمناورات الجوية . لم تكن قاعدة العدم تتمتع ، ولا شك ، بما كانت عليه قاعدة هويلس في طرابلس من استقلال واكتفاء ذاتي ، إلا أن بعدها عن المدينتين الرئيسيتين وموقعها المنعزل نسبياً جعلها مكاناً أشد أمناً وأكثر طمأنينة للملك الهارب الذي كان إلى جانب علاقاته القوية بالبريطانيين ، في مركز يساعده على أن يجد من بريطانيا استعداداً بل واصراراً قوياً ، في أن تهبّ لحمايته إذا ما دعت الحاجة ، إذ ترى أن من واجبها أن تحمي ظهر إدريس كما ظل

يحميها منذ أن وضع التاج على رأسه إعترافاً منه بفضلها في توليته العرش بعد أن كان أميرا .

وجدير بالذكر أن ادريس الذي ولد في عام ١٨٩٠ تُوِّج ملكاً على ليبيا يوم الثاني من ديسمبر عام ١٩٥٠ ، خلفاً لعمه سيد أحمد الشريف ، ويرجع تسلسل أسرة إدريس إلى الخليفة علي ، أما أبوه ، سيد محمد الذي كان يعرف بالسنوسي الأكبر . فقد ولد بمدينة مستغانم بالجزائر وأمضى فترة في مدينة فاس بالمغرب حيث تلقى علومه ، ومنها اتجه شرقاً فأمضى فترة في القاهرة لينطلق منها إلى الحجاز قبل أن يعود في عام ١٨٥٥ إلى واحة الجغبوب النائية ليقيم مجتمعاً مزدهراً في أطراف الصحراء الخاوية .

وها هو الملك إدريس يتجه بدوره تجاه الشرق وإن كان ذلك في ظل ظروف مختلفة مغايرة . لقد كانت رحلة الملك خطيرة الشأن وأصابت معمراً وبقية الضباط الأحرار في اللجنة المركزية بالدهشة ، إذ كانت مغادرة الملك طرابلس خطوة لم يضعها أحد في الحسبان . ومن ثم دعت إلى تغيير جديد عاجل في مخططات الثورة . لقد بدأ الموقف يأخذ منعطفاً جديداً يتطلب استعدادات جديدة وبات معمر على يقين من أنه في اليوم الرابع والعشرين من شهر مارس لن يكون الملك ولا ولي العهد في طرابلس حيث كان ينتظر أن يبقيا الخمسة أيام التالية على الأقل فما كان هنالك من الدلائل ما يشير إلى غير ذلك . وأدرك معمر أنه لا بد من تغيير كافة خططهم تغييراً جذرياً وإن كان التغيير في بعض الحالات معقداً وعسيرا .

كانت أمام اللجنة المركزية عدة بدائل للدراسة والإختيار ، مما حتم عقد اجتماع لتدارس الموقف الجديد في الوقت الذي كان فيه ركب الملك قد بدأ رحلته الطويلة الشاقة إلى طبرق وكأنه قد شرع ، بقصد أو عن غير قصد ، في سباقه الغريب والحاسم مع الزمن .

كان الضباط الأحرار المنتشرون في جميع أنحاء ليبيا قد تلقوا تعليمات بشأن اليوم الرابع والعشرين من مارس ، ولما لم تصدر أية تعليمات جديدة ظلوا ملتزمين بالتوجيهات السابقة . فلم يكن أمامهم سوى انتظار إشارة البدء لتوجيه ضربتهم ، لاح الوقت وكأنه يمر بسرعة رهيبة غير العادة ، وجاءت تقارير المخابرات تؤكد لمعمر أن الملك أخذ يتقدم بسرعة حتى وصل إجدابيا . . . القريبة من القاعدة

الأمريكية في راس لا نوف التي كانت تستخدم لإرشاد سفن الأسطول السادس الأمريكي في البحر المتوسط . . . حيث لم يمضِ وقت طويل على استجوابه مع عبد الحميد شعماش وعبد الحميد زائد بعد حادثة العربة المشؤومة خارج مدينة سرت . كما حملت الأنباء أن إدريس ينوي الاستراحة لفترة في إجدابيا الواقعة في منتصف الطريق بين طرابلس وطبرق .

لم يكن ثمة مفر من عقد هذا الإجتماع في ضوء هذا التطور الجديد ، وآثر معمر ، مع عدد من أعضاء اللجنة المركزية ، أن تكون «قار يونس» مكاناً للقاء . ولما كان الجو مشحوناً بالتوتر والقلق بسبب استنفار القوات التي تحت قيادة الضباط الأحرار في كافة أنحاء البلاد طرحت على بساط البحث في هذا اللقاء عدة بدائل ، من بينها القيام بالثورة في موعدها المحدد حتى لاتفلت هذه الفرصة من أيديهم مرة أخرى ، لكن كان لا بد من اتخاذ قرار عاجل ، فساعة الصفر تقترب وتحتم على الإجتماع أن يتوصل ، بصورة أو بأخرى ، إلى القرار الذي عليه يتوقف مستقبل البلاد ، بل وحياتهم ذاتها .

ومما لا شك فيه أنه لم يكن ثمة حل يسير للموقف الذي خلفه هروب الملك المفاجئ من طرابلس . وهناك من اقترح مهاجمة ركب الملك في إجدابيا ، إلا أن الإقتراح لم يلقَ قبولاً إذ كان سيؤدي إلى إراقة الدماء بغير داع نتيجة لوقوع ضحايا من شرطة هذه المدينة البريئة التي تقوم بحراسة الملك . وكان رأي معمر ورفاقه ، الذين ظلوا سنوات عديدة مضنية يعدون للثورة هو تجنب إراقة دماء إخوانهم الليبيين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . فلم يكن سفك الدماء هدفاً من أهداف ثورتهم .

لقد كان الوضع دقيقاً ومتأزماً . فالقوات الخاضعة لسيطرة الضباط الوحدويين الأحرار على وشك التحرك . ونقلت الحامية المرابطة في مصراتة إلى الخمس في حين كانت تجري تحركات مماثلة في أماكن أخرى بناء على خطة بعينها ، لقد كان المسرح في الواقع معداً والممثلون ينتظرون في لهفة إضاءة الأنوار .

بعد استبعاد فكرة الهجوم المسلح على الملك إدريس في إجدابيا لم يبق أمام اللجنة المركزية سوى اختيار واحد وهو تأجيل موعد القيام بالثورة مرة أخرى وفي آخر لحظة . وانفض الإجتماع بعد أن تقرر تأجيل موعد القيام بالثورة إلى الوقت الذي تكون فيه الظروف مواتية تُمكن من الإستيلاء على زمام الامور بنجاح .

١٨ ــ المنشــورات

الخمس ــ أوائل يونيو ١٩٦٩

استهل مختار القروي الحديث الذي بدا وكأنه يخاطب به شخصاً لا يعرفه قائلا : « لقد أنجزت المهمة » ، عندما كان يحمل بكلتايديه رزمة جديدة من أوراق النسخ « الستانسل » التي تضم في طياتها آخر منشور سري للجنة المركزية لتوزيعه فيما بعد على أعضاء الحركة .

وافق معمر الذي كان قد قام بكتابة المنشور بخط يده على هذا الخبر بإيمائة سعيدة وتنهيدة عميقة كما لو كان يثقل كاهله عبء ثقيل ، وقد تخلص منه لتوه. في الظروف العادية يعتبر القيام بهذا العمل أمراً في غاية السهولة فهو لا يعدو عن كونه مجرد القيام بعملية صياغة للمنشور ثم سحبه وتوزيعه . ولكن الظروف السائدة آنذاك لم تكن عادية على الإطلاق ، كما أن المنشـور نفسه لا يتعلق بأمور عادية . ومعمر كان يدرك تمام الإدراك أن هذا المنشور الذي كان يعتمد عليه أعضاء الحركة في الحصول علي المعلومات ، وأحياناً على التعليمات ، لا بد أن يتم إعداده في سرية متناهية .

لم يكن أي عضو من أعضاء اللجنة المركزية يمتلك في ذلك الوقت آلة للنسخ وإلاّ لكانت مهمتهم يسيرة ولما احتاجوا إلى كل هذا العناء. ومع أن عملية شراء هذه الآلة لم تكن أمراً عسيراً بالنسبة لمعايير التكلفة ، إلا أن شراءها كان عملاً غير مرغوب فيه لأن القيام بذلك لم يكن أمراً طبيعياً خصوصاً بالنسبة لجنود وضباط الجيش الليبي إلا إذا أرادوا بالطبع جلب انتباه الآخرين وهذا ما كان أعضاء اللجنة المركزية يتجنبونه .

كان البديل أمامهم هو استخدام الآت الجيش نفسه المتوفرة في أماكن مختلفة . ومع أن الوصول إلى هذه الآلات كان امراً ميسوراً إلا أنها مع ذلك كانت تتضمن قدراً كبيراً من المجازفة الأمر الذي دعا معمر إلى أن يتأكد بنفسه

دائماً من أن استخدام اللجنة لهذه الآلات لم يلاحظة أو يكتشفه أحد .

وتجنباً لأية مخاطر محتملة الوقوع وحرصاً على استمرارية وسرية الحركة . فقد تقرر نسخ هذه المنشورات أثناء الليل .

كان معمر قد وصل إلى معسكز الخمس قبل ساعات قليلة حاملاً داخل جيب بزّته العسكرية مسودة المنشور السري حيث كان هذا المعسكر يستخدم بشكل رئيسي لتمركز الآليات الثقيلة والدبابات ولم يكن مكتظاً بالحركة والنشاط كبقية المعسكرات الكبيرة المهمة المنتشرة في ربوع البلاد .

وما أن دخل معمر بوابة المعسكر حتى شاهد من على بعد من المكان مختار القروي ، ولكنه آثر ألا يناديه رغم حاجته الملحة والعاجلة إلى استخدام آله النسخ لطبع آخر منشور سري للحركة وانتظر القروي حتى عاد إلى غرفته . وما أن جلس إليه حتى بادره قائلا : «إنني أحمله معي وهو مكتوب بخط اليد وأريد منك طبعه على آلة النسخ وسحب أكبر عدد ممكن من النسخ» .

لم يكن القروي الذي كان آنذاك مساعداً لقائد فصيل مدفعية الميدان بحاجة إلى مزيد من الشرح فدلف بصحبة معمر خارج الغرفة واتجها صوب مبنى الإدارة الذي كان خاوياً في تلك الليلة .

كان المكان خالياً تماماً من الجنود وبدت الثكنات في ذلك الوقت المتأخر من الليل مهجورة لا يكاد المرء يرى في أرجائها سوى بضعة حراس . كانت غرفة الإدارة الرئيسية تبدو خاوية على نحو يدفع إلى التشاؤم عندما أخذ معمر طريقة إليها ، وبالرغم من أنها كانت المكان الوحيد حيث يمكن نسخ عدة صور من المنشورات في أقصر مدة زمنية ممكنة . كان معمر يحمل معه مفاتيح الغرفة ولكن ذلك لم يفلح في تهدئة مشاعر القلق والإضطراب التي كانت تساوره في تلك اللحظات ولم يكن ذلك اليوم عادياً كغيره من الأيام ، ففيه قام معمر بكتابة المنشور بخط يده خلال الوقت الذي كان من المفروض أن يكون في نوبة عمل داخل المعسكر . كما أن الرسالة أخذت إلى مكان آخر للنسخ ولكن آلة النسخ أصيبت بخلل بعد نسخ عدد قليل من المنشورات وتعذر الحصول على العدد المتبقي من النسخ على نحو مقروء .

لقد بات من الضروري إعداد نسخ كافية من المنشور الهام والعمل على توزيعها في الحال . ولما تعذر طبع بقية النسخ تعين البحث عن وسيلة بديلة .

وكانت أسهل الطرق البديلة الممكنة هي القيام بنسخ المنشور على آلة النسخ إلا أن عملية النسخ استلزمت كتابة المنشور مسبقاً على الآلة الكاتبة . ولحسن الحظ فقد قام الرقيب عامر بتأدية هذه المهمة . لقد زاد سكون الليل البهيم من حدة التوتر عندما أقفل معمر باب الغرفة على نفسه وراح الرقيب عامر يدق على الآلة الكاتبة حتى بدا صدى الصوت المنبعث من دقات الحروف لمعمر مدوياً وينفذ من خلال الجدران الأربعة ليسمع على بعد بضعة كيلومترات في تلك الساعة المتأخرة من الليل . وفي بعض الأوقات كان يخشى أن يهرع أحد الحراس إلى مكان الصوت للاستفسار عن مصدره غير المألوف في هذا الوقت من الليل بعد أن تكون قد ساورته الشكوك حوله . وقد عمد معمر تارة إلى مراقبة الرقيب عامر ليراه منكباً على آلة الطباعة وتارة أخرى إلى استراق السمع مما يدور حوله بالخارج عله يشاهد أحد الفضوليين الذين قد يشدهم صوت الآلة إلى المكان لمغرفة ما يجري بالداخل. وشرع الرقيب عامر يطبع الرسالة التي كتبها معمر بخط يده كلمة كلمة وعبارة عبارة وبدا الانتظار وكأنه لا نهاية له حتى نهض عامر من خلف مقعده .

وبينما انهمك القروي في تشغيل آلة النسخ بدأ معمر يفكر في توزيع هذه المنشورات . وكان بعض الضباط الوحدويين الأحرار يحضرون إلى المعسكر لأخذ نسخهم حيث يجري انتظارهم بفارغ الصبر . كما كان عليهم أن يقوموا أحياناً بتمرير المنشور من ضابط وحدوي حر إلى آخر إلى أن يؤول به المطاف إلى الإعدام النهائي بعد أن تكون محتوياته قد استوعبت تماما .

وأخيرا نهض القروي أيضاً من خلف آلة النسخ وقام بإعدام ورقة المنشور الأصلي وأعاد كل شيء إلى مكانه الطبيعي كأن شيئاً لم يكن . وكان لا بد من توزيع هذا المنشور على كل حامية وكتيبة حيث أنيطت بالقروي مهمة توزيعه على مناطق طرابلس والخمس وترهونة والزاوية بينما يقوم معمر بتوزيعه على منطقتي مصراته وبنغازي .

وحالما تستنفد المنشورات أغراضها ، يتم حرقها خوفاً من أن يؤدي وقوعها في يد الغير إلى عواقب وخيمة تضر بالثورة وأهدافها . ولم يكن معمر يعلم أن بعض المنشورات في حرز أمين ، وهي النسخ التي آثر امحمد المقريف إبقاءها فحفظها عند زوجته وهو يدرك أنه لو ساءت الأمور فالنساء آخر من يسأل أو يفتش .

كانت المنشورات السرية وسيلة لا غني عنها للاتصال بين الضباط الوحدويين

الأحرار ورفع روحهم المعنوية وتوحيد صفوف الحركة ذاتها . وكانت تطبع هذه المنشورات كلما اقتضت الظروف ذلك ، إلا أن تغيير الظروف بشكل مستمر لم يكن يمكن من اتباع طريقة منتظمة لإصدارها فكان معمر ينتهز كل فرصة سانحة ليقوم بتلك المهمة الصعبة .

تذكر معمر وهو ينتظر وصول الضباط الوحدويين الأحرار إلى المعسكر لأخذ نسخهم من المنشورات تلك الفترة القصيرة التي قضاها في معسكر الخمس الذي يقع على مسافة قريبة نسبياً من مدينة طرابلس والذي يحتل موقعاً استراتيجياً على شاطئ البحر المتوسط . وكان هذا المعسكر مركزاً لتجمع الآليات والمدفعية أيضا . هذا بالإضافة إلى أهميته العسكرية الخاصة التي دعت معمرا إلى أن يطيل التفكير في القوة الفعلية لهذا المعسكر نظراً لما يحويه من معدات .

كان معظم الضباط قد عادوا إلى مواقعهم بعد استلام النسخ المخصصة لهم من المنشورات من معسكر الخمس وشعر معمر بأن عليه أن يرجع إلى موقعه أيضاً فالرحلة أمامه طويلة ومتعبة .

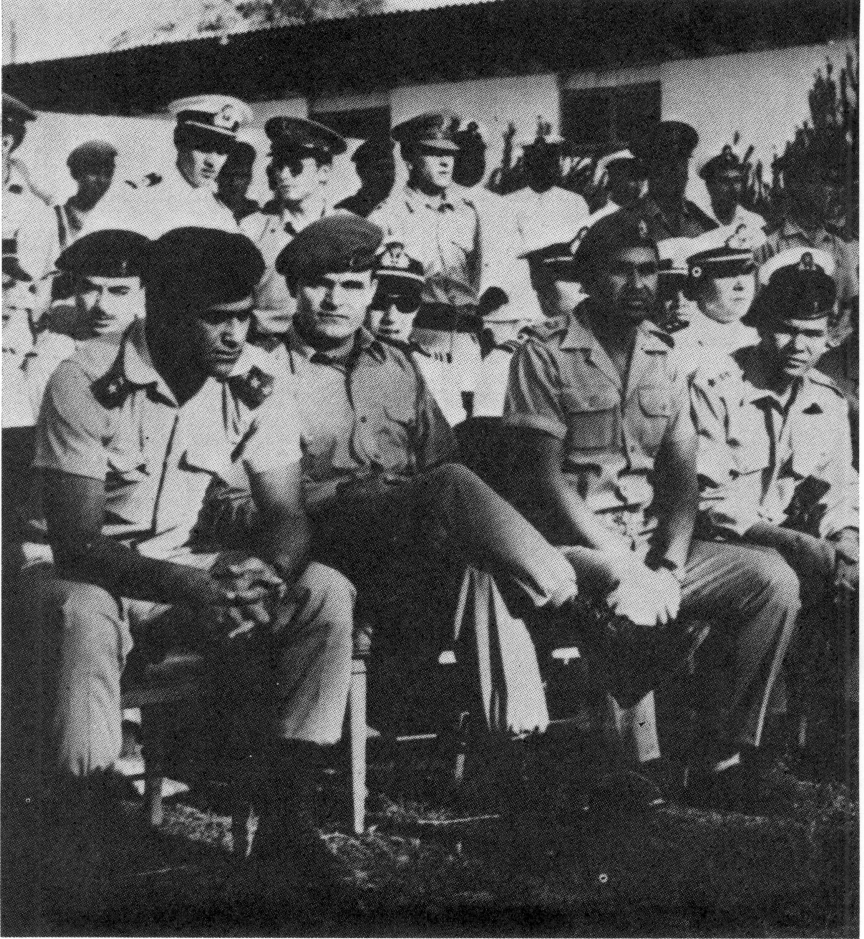
وبعد ساعات قليلة قرر معمر الرجوع إلى موقعه . وقد حدث في ذلك اليوم ، بعد توقفه في مصراته ، أن لا حظ خطأً في إحدى الآيات القرآنية وراح على الفور يصحح كل النسخ التي لديه وأجري مكالمة هاتفية مع القروي الذي لا يزال في الخمس ليخبره عن الخطأ الذي اكتشفه وطلب منه أن يقوم بتصحيحه قبل توزيع المنشورات .

كان معمر يحس بضرورة توخي الدقة المتناهية في العمل . فقد كانت الثورة التي يخططون لها في نظره ونظر بقية الضباط الأحرار عملاً مقدساً تقع على كاهلهم مسئولية القيام به وهدفاً لا يمكن الوصول إليه بغير الأمل والإيمان والحماس .

وبعد مرور بعض الوقت على اليوم الرابع والعشرين من مارس تبددت إلى حد ما مخاوف أولئك الذين كانوا يرون في تأجيل الثورة إضراراً وتعطيلاً لمهمتهم ، ومع ذلك بدا وكأنه لا نهاية للتوتر والقلق الذي اتسمت به حياة الضباط الأحرار .

وكان لا بد من زيادة توزيع المنشورات السرية بهدف توحيد صفوف الحركة خلال المرحلة الدقيقة التي كانت تمر بها . غير أن هذا العمل ضاعف ولا شك من الأخطار المتزايدة المحدقة إلا أن فترة القلق البالغ كانت من ناحية أخرى اختباراً

لقوة الحركة الحقيقية ، الإختبار الذي يفرق بين الرجال وغيرهم ، ويكشف عن المعدن الحقيقي للحركة .



(أقصى اليسار) محمد الحاراتي الذي عاون الخويلدي الحميدي في الإستيلاء على إذاعة طرابلس . . ويرى إلى جانبه إمحمد المقريف عضو مجلس قيادة الثورة . . وكلاهما انتقل إلى رحمة الله .

١٩ ــ الإجتماع الحاســم

سرت ــ ٢٧ يوليو ١٩٦٩

كان معمر حذراً منذ البداية ، وكانت الشكوك تساوره حول بعض الأشخاص المشاركين في الإجتماع الذي حضره أعضاء اللجنة المركزية : عبد السلام جلود ، ومصطفى الخروبي ، وأبو بكر يونس جابر . كما حضره أيضاً الملازم القروي وعوض حمزه وبشير هوادي وهؤلاء كانوا جميعاً ممن يحظون بثقة معمر وبقية أعضاء اللجنة . إن حقيقة اشتراك الهوادي والمحيشي للمرة الأولي لم تشغل بال الفتى الثائر الذي كان يعتقد دائماً أن هوادي على وجه الخصوص كان تواقاً إلى الانضمام إلى صفوف الحركة وأن رغبته في حضور الإجتماع قد أثبتت صدق نواياه .

تجمع الثوريون في سرت لحضور أهم اجتماع منذ تأجيل موعد الثورة في اللحظات الأخيرة السابقة لليوم الرابع والعشرين من مارس وذلك للتحركات المريبة داخل الجيش وبسبب رحلة الملك غير المتوقعة إلى طبرق . وبدأ معمر يرمق الشلماني بنظرات ملؤها الشك والريبة وعدم الإرتياح لوجوده لأنه لم يكن يفترض تواجده بالمكان . وقد أصاب وصوله بقية أعضاء اللجنة المركزية بالذهول . لقد حركت أحداث مارس أعماقهم وجعلتهم أكثر حذراً لأنهم كانوا شبه موقنين أن السلطات الحاكمة ما كانت لتعرف شيئاً إلا من خلال المعلومات التي تتسرب إليهم من الداخل . كان وجود الشلماني قد وقع بمحض الصدفة عندما طلب منه الملازم عوض حمزة أن يوصله بسيارته إلى المكان نظراً لضيق الوقت وعدم وجود وسيلة نقل بديلة . وقد قبل الشلماني ذلك رغم طول المسافة بين طرابلس وسرت .

ولكن لم يكن وجود الشلماني هو الشيء الوحيد الذي يشغل بال معمر . . . كان هناك أناس آخرون ممن وجهت إليهم الدعوة لحضور الإجتماع بصفتهم أعضاء في الحركة فقط وليس في اللجنة المركزية . وقد حضر منهم هذا الإجتماع عدد غير

قليل . وحرصاً منهم على الأمن الداخلي للثورة فقد رفض معمر دائماً البوح بأسماء أعضاء اللجنة المركزية للحركة بهدف إرباك وبلبلة أفكار أولئك الأعضاء في الحركة الذين رُبَّما يكونون قد زرعوا وسط صفوف الحركة كمخبرين للسلطة الحاكمة وإلى جانب ذلك فقد كان معمر يعتقد أنه في حالة اكتشاف الحركة في نهاية المطاف ، فإن عدم توفر المعلومات عن بقية الأعضاء سيعطى اللجنة المركزية فرصة أخرى لإعادة تنظيم نفسها من جديد .

وفي تلك الساعات الحرجة انفرد معمر بعبد السلام جلود جانباً وقال له : لا أعتقد أنه يمكننا التكلم بصراحة تامة خلال هذا الإجتماع لأنه يوجد بيننا أشخاص ما كان ينبغي وجودهم وآخرون ممن كان عليهم الحضور ولكنهم لم يحضروا .

كان معمر يشير بذلك إلى محمد نجم وعبد المنعم الهوني والخويلدي الحميدي الذين كانوا جميعهم أعضاء في اللجنة المركزية ولكنهم لم يتمكنوا من الحضور إلى سرت لأسباب مختلفة . فقد كان نجم موجوداً بالكلية العسكرية في بنغازي والهوني مريضاً وغير قادر على السفر بينما نقل الحميدي إلى سبها وكان تحت رقابة مشددة من قبل رجال المخابرات . اتفق جلود معه في الرأي . فقد كان جو الإجتماع غريبا ، يدعو للريبة والشك ومع ذلك كان لا بد من اتخاذ قرار حول تحديد موعد جديد لقيام الثورة والإطاحة بالنظام الملكي الحاكم .

وعندما قام معمر بتوجيه كلمته خلال الإجتماع . حاول جاهداً ألا يلزم نفسه بصورة أو بأخرى ولكنه كان من الصعب على المرء أن يكون غامضاً ومراوغاً حينما كانت توجه الأسئلة إليه مباشرة . إن مخاوفه من اندساس شخص ما داخل الإجتماع ليسمع كل كلمة تدور فيسرع بنقلها إلى السلطة الحاكمة جعلته يدرك تمام الإدراك أن هذا الإجتماع يمكن أن يؤدي إلى نتائج غاية في الخطورة مما اضطره إلى أن يكون حذراً في اختيار كلماته .

ولم يكن أمام معمر غير طريقة واحدة فقط وهي أن يخبر المجتمعين بأن المحاولة الثانية للإطاحة بالملكية ستتم في النصف الثاني من شهر أغسطس دون أن يذكر تاريخاً محددا . إلا أنه قام أيضا ، في محاولة منه لإشباع فضول جميع الحاضرين . بالإعلان عن عقد اجتماع آخر قبل موعد قيام الثورة .

وفي نهاية الإجتماع أبلغ معمر اللجنة المركزية بما كان يساوره من شعور غريب . بوجود شخص مندس بين الصفوف ليبلغ فيما بعد . لقد كانت الظروف

المحيطة بعقد الإجتماع تشير إلى خطورة إطالة النقاش والدخول في التفاصيل الدقيقة .

* * * * *

كانت ليلة من ليالي شهر يوليو الصافية حيث السماء مرصعة بالنجوم والنسيم يهب على المكان في رقة وعذوبة مما شجع معمرا على أن يترك رفاقه الذين كانوا يشربون الشاي الأخضر حول موقد صغير أقاموه أمام مدخل الخيمة . وراح يتمشى وحيداً مع بداية جلول الظلام وهو يشاهد من على بعد الأحياء السكنية المتناثرة حول مئذنة جامع سرت المطلة على مباني المدينة وقد أخذت تختفي تدريجياً مع حلول الظلام .

لم يكن هذا الشاب راضياً تماماً عن ما آلت إليه الامور خلال ذلك اليوم . فقد كان من المفروض أن يسفر الإجتماع عن تحديد موعد لقيام الثورة ولكن ذلك كان في حكم المستحيل — بيد أنه أخذ يعزّي نفسه بالشعور بالسعادة والرضا الذاتي لأنه أعلن عقد اجتماع آخر لتحديد اليوم الفعلي لقيام الثورة .

وقد أمده ذلك بمتسع من الوقت كان في حاجة إليه ليستفيد من المناورة التي خطط لها بذكاء وحصافة .

فلم يكن في نية معمر في واقع الأمر الدعوة إلى عقد اجتماع آخر وإنما كان يريد وضع الطعم في الشصّ لأنه إذا ما صح حدسه وتواجد بعض المخبرين في ذلك اليوم . فانهم سيقومون بتبليغ السلطات المختصة بأن اجتماعاً آخر للإطاحة بالملكية قد تم التخطيط له . ولم يحصل هؤلاء المخبرون لو وجدوا على تاريخ محدد، ولن تستطيع السلطات الحاكمة اتخاذ قرار ضدهم قبل أن تضع يدها على جميع المعلومات والانتظار كعادتها إلى اللحظة المناسبة للانقضاض عليهم والإمساك بهم جميعا .

كان معمر يرى أنه لا داعي لعقد اجتماع آخر لأن موعد الثورة قد تم تحديده إلا أن الوقت المناسب لم يحن بعد للبوح به حتي إلى أعضاء اللجنة المركزية ناهيك عن بقية أعضاء الحركة .

كانت الأيام التي أعقبت محاولة الرابع والعشرين من مارس مشحونة بالتوتر حتي أضحى معمر وأعضاء اللجنة المركزية الآخرون يعيشون في دوامة من القلق

المستمر أكثر من أي وقت مضي وقد قوبل قرار تأجيل موعد قيام الثورة بفتور وامتعاض شديدين من قبل البعض وتحفظات معينة من قبل البعض الآخر. كان من بينهم من يظن إنَّ هذه المرحلة القلقة الراكدة سوف تتيح للسلطات وأجهزتها الأمنية فرصة طالما كانت تتلهف إليها وهي بصدد تجميع الجزئيات الأخيرة من اللغز وكشف المخطط.

كانوا يخشون أنها مجرد مسألة وقت قبل أن ينتهوا من تحقيقاتهم ويقضوا على جميع إمكانيات استمرار الثورة وعلى تحقيق التغييرات الإجتماعية والإقتصادية والسياسية التي سهروا الليالي الطوال في الإعداد والتخطيط لها.

أدرك معمر في تلك الفترة عدم الإستقرار والقلق المستمر على مصير الثورة، فالمخابرات العسكرية قد عرفت أنباء حركتهم عن طريق مخبر سري. وكانت هذه المعلومات كاللغز الذي يستعصي ولكنها أدت في نهاية المطاف إلى انقاذ معمر والضباط الوحدويين الأحرار من الضربة القاضية التي كانت ستحيق بهم لو تم اكتشاف أمرهم. كانت المعلومات المتوفرة لدى المخابرات فريدة في نوعها ومتكاملة لدرجة أن السلطات الحاكمة لم تكن تعتقد وبكل بساطة استطاعة الضباط الوحدويين الأحرار القيام بقيادة مثل هذه القوة الفعالة والكفؤة التي يمكنها أن تشكل خطراً حقيقياً على وجود الملكية في البلاد. ومع كل هذا، فقد اتخذت الاحتياطات الكافية لضمان سلامة الملك أدت إلى إحباط جميع مخططات اللجنة المركزية إلى درجة اتخاذ قرار بتأجيل موعد قيام الثورة، ذلك بات لا مناص منه بسبب رحلة الملك إلى طبرق.

ترك قرار تأجيل الثورة أثره على اللجنة المركزية نفسها بعد أن وصلت الإستعدادات مرحلة متقدمة جداً لدرجة أن الملازم محمد شعبان قائد أحد الفصائل في طرابلس وكان قد انضم إلى الحركة، أبلغ أبابكر يونس بتجهيز مجموعة من السواقين والقناصة لتتحرك في مهمة سرية في بنغازي يوم الثالث والعشرين من مارس.

كان من المقرر أن تنضم هذه المجموعة إلى قوات عبد الرحمن الصيد الذي كان مسؤولاً عن العمليات التي سوف تشارك فيها العربات المدرعة والمعسكرة في ذلك الوقت بمنطقة «العينة». لقد كان مقرراً استخدام العربات الموجودة تحت إمرة مختار القروي وأبي بكر يونس بشرط أن يتلقي السواقون تعليماتهم من طرف

ثالث وهو الملازم صالح والذي كان سيستلم الأوامر بدوره من أخيه محمد . لقد اتخذت هذه الإحتياطات كضمان' لسلامة العملية القصوى ولمنع تسرب أية معلومات عن المهمة . وإلى جانب ذلك فقد تقرر إرسال برقية كإشارة للانطلاق وتبادل برقية ثانية بين الأخوين تقرأ كما يلي :—

« تدهورت صحة الوالدة بمستشفى بنغازي »

وهكذا ، كانت الإستعدادات النهائية تسير سيراً حثيثاً لدرجة أن قام أبو بكر يونس بجمع قوته الصغيرة المكونة من السواقين والقناصة في اليوم الثاني والعشرين من مارس والإجتماع بهم خارج ثكنات المعسكر في طرابلس وأصدر إليهم التعليمات ليكونوا على أهبة الاستعداد للتحرك إلى بنغازي . لم يكن هذا الإجتماع ليثير الشكوك أو يجلب انتباه سلطات المعسكر لأنه كان أمراً مألوفاً بالنسبة لأبي بكر يونس أن يقوم بجمع مثل هذه الجمهرة حول حفلة شاي طويلة . وقد ظلوا في حالة تأهب قصوى إلى صبيحة اليوم التالي عندما عرف أبو بكر يونس بقرار تأجيل موعد قيام الثورة إلى أجل غير مسمي من مختار القروي ومفتاح على اللذين حضرا اجتماع بنغازي .

كما أثر قرار التأجيل المفاجئ لشن الثورة على مخططات العديد من الضباط الأحرار . ففي تلك الفترة أعطي الخويلدي الحميدي الذي كان موجوداً بحامية سبها إجازة كان ينوي قضاء ها في المغرب . ولكنه قام بإلغاء خططه الشخصية عندما علم بالموعد المقترح لقيام الثورة لأن آخر يوم في إجازته كان يتعارض مع الموعد المقرر لقيام الثورة .

ولكن أبي القدر إلا أن يسير بالثورة نحو مسار غريب فمع رحيل الملك وصلت جميع مخططاتهم إلى طريق مسدود وبدت عجلة الثورة تسير ببطء شديد لتتوقف قبل المحطة النهائية . وبينما كان معمر مستغرقاً في أفكاره وهو يتمشى في تلك الأمسية وبقية أعضاء اللجنة المركزية يناقشون أحداث ذلك اليوم وهم يرتشفون أكواب الشاي داخل الخيمة ، أخذ أبو رياقه ينفذ المهمة المقيتة الموكولة إليه ويدور حول سيارة «البيجو» البيضاء التي أقلت معمرا ومصطفى الخروبي لحضور الإجتماع . ولكن الظلام كان حالكا ، ولم يتمكن من رؤية رقم السيارة إلا إذا انحنى بشدة وركز نظره عليها الأمر الذي سيثير شكوك الموجودين حوله .

لقد كان وجود أبو رياقه غير محبب أيضاً كوجود الشلماني للاشتباه في كونه

مخبراً سرياً للنظام الحاكم . كان أبو رياقه من ذلك النوع من الرجال الذي يوحي لك بالارتياب في أمره بمجرد النظر إليه . لقد كان دائم التنقل بين طرابلس وسبها وبنغازي . وكان يدعي بأنه رجل درويش صوفي ، ولم يكن أحد يعرف الكثير عن ماضيه ، فكان أشبه ما يكون اللغز ، ونادراً ما كان يتكلم إلا إذا بادرته بالحديث ولم يكن صاحب رأي كما يدل على ذلك مظهره وطريقة كلامه .

كان أبو رياقة يعرف معمرا منذ أيام الدراسة المبكرة في سبها بالرغم من عدم اهتمام الثائر الشاب به على الإطلاق . وسرعان ما انتشرت الإشاعات عن أبي رياقه . فمنهم من قال إنه تابع لفرع مباحث أمن الدولة وآخرون نعتوه بأنه مخبر للشرطة الإتحاديه وهناك مجموعة ثالثة تعتقد أنه جاسوس سياسي تابع لمجلس وزراء الملك .

لقد حاول بشير هوادي في عدة مناسبات التحدث إلى هذا الرجل ولكن أبا رياقه يصده دائماً عن مواصلة الحديث . وكان كلما تحدث ، تحدث بصورة ماكرة دون أن يدعك تعرف شيئاً عن خبايا نفسه . وغالباً ما كانت تتسمر عيناه ويصاب بالذهول عند ما تسأله عن أصله أو مقر سكناه . وكانت الإجابة دائماً غامضة جدا . وفي إحدى المرات سأله بشير هوادي عن بطاقته الشخصية وكان جوابه بأنه لا توجد لديه بطاقة .

* * * * * * *

عاد معمر إلى الخيمة ليعد نفسه للعودة إلى المعسكر فوجد معظم المشاركين في الاجتماع قد رحلوا . . . بما فيهم الشلهاني .

كان المخبر المشكوك في أمره قد غادر المكان إلى طرابلس لعقد اجتماع آخر ولكنه هذه المرة مع مستشار الملك عبد العزيز الشلحي . لقد أسند للشلهاني دوره الجديد كمخبر الملك بعد فشل خطط شهر مارس الماض . كان الضغط شديداً على معمر وكان مقتنعاً بأن السلطات قد عرفت الآن كل شيء عن الحركة وأن المسألة لا تعدو كونها مسألة وقت قبل أن تنقض المخابرات العسكرية على أعضاء الحركة . أما الشلهاني فقد ذهب مسرعاً إلى مستشار الملك وأخبره بكل ما استطاع أن يعرفه عن الحركة .

لقد أخبر الشلحي بأن الحركة موجودة بالفعل وأن أعضاءها يعملون ليل نهار للإطاحة بالنظام الملكي الحاكم .

كان الشلماني قد انضم إلى صفوف الحركة قبل شهر مارس بقليل ولم يكن في جعبته الكثير ليخبر به مستشار الملك . إما الآن فقد حصل على أخبار مهمة جدا . .لقد عرف الفترة التي ستقع خلالها محاولة أخرى للإطاحة بالملكية ، وعرف عن الإجتماع الثاني الذي قرزته الحركة لتحديد اليوم الفعلي الثورة . اعتقد الشلماني أن الشلحي سيقدر كثيراً المعلومات التي حصل عليها وأنه سوف يتريث حتي تتوفر لديه كل التفاصيل الدقيقة عن الحركة . وعند ذاك يضرب ضربته . . . وتحل بهم لعنة القصر .

٢٠ ـــ الاستدعاء الغريـب

قاريونس ـــ أواخر أغسطس ١٩٦٩

كانت قاعة الضباط بمعسكر «قاريونس» شبه خاوية باستثناء عدد قليل من الضباط الغارقين في نقاش حاد وهم يجلسون خلف مائدة صغيرة مستطيلة الشكل ويرتشفون أقداح القهوة الساخنة في الركن الأقصي للغرفة.

اتخذ مصطفي الخروبي ومحمد صيده مكانيهما على طاولة أخرى بالقاعة عندما دلف معمر داخل الغرفة وهو يتبادل نظرة عميقة يشوبها القلق مع العضو الآخر للجنة المركزية. بدت علامات السرور والإنشراح جلية على وجه صيده، ولكن معمرا استطاع أي يعرف من الخروبي أنه كان يستفسر عنه.

تبادل الرجال الثلاثة مزاحهم المعتاد وجلسوا لفترة يتحدثون عن مواضيع شتي لا تنطوى على أية أهمية حقيقية. كان صيده يتحدث في واقع الأمر عن الموقف الراهن في فزان التي جاء منها إلى مدينة بنغازي. وأخبر معمرا بأن جندياً توفي في حادث أليم وانهم قاموا بجمع التبرعات لمساعدة أسرته المنكوبة. ثم أردف قائلا: إننا نعتبرك يا أخ معمر شخصاً منا، من فزان، فربما أحببت لذلك أن تقدم لأسرة المتوفي بعض المساعدة.

تعجب معمر لهذا الطلب الغريب ومما يرمي إليه صيده من وراء ذلك. ومعمر بطبيعة الحال، لا يستطيع أن يرد طلباً كهذا، رغم عدم اقتناعه بصحة الرواية التي أخبره بها هذا الرجل، فما كان منه إلا أن هنأه على العمل الإنساني الطيب ووعده بالمساهمة في نهاية الشهر.

كانت شكوك معمر حول تصرفات صيده قائمة على أسس قوية ويبدو أنه كان محقاً في اعتقاده بأن الرجل كان مخبراً وأن وظيفته الحقيقية كانت تهدف إلى كشف أسرار وطبيعة الحركة إلى السلطة الحاكمة.

في أعقاب اجتماع سرت، كان معمر يقوم بتأدية أعمال روتينية بالمعسكر،

ولاحظ مع مرور الأيام تردد صيده على المعسكر حتي إنه أخبر الخروبي بمخاوفه هذه، واستطاع الخروبي بدوره أن يتقصَّى المعلومات عن ماضي هذا الرجل.

ولم يكن ثمة شك بأن الهدف الأساسي لزيارات صيده المتكررة إلى معسكر قاريونس كان لمعرفة المزيد عن معمر خصوصاً وأنه كان يسأل عنه كثيراً وفي مناسبات مختلفة. وقد تحدث عنه مع عدد كبير من الضباط.

في بادئ الأمر أخذ صيده يطرح عدداً من الأسئلة حول قصة حادث السيارة الذي تعرض له معمر منذ وقت مضي ولكن العذر لم يعد مستساغاً سواء بالنسبة لمعمر نفسه أو للخروبي. فقبل كل شيئ كانت الحادثة قد وقعت منذ زمن ليس بالقريب وطواها النسيان بمجرد فقل محضر التحقيق فيها وليس ثمة ما يدعو لإعادة طرحها من جديد.

لقد إدعى صيده بأن التحقيق مازال مستمراً في الحادث وأنه سيستمر لبعض الوقت أيضاً لأن أكثر من ضابط واحد كانوا قد تعرضوا له. ومع ذلك، فلم يقم بتوجيه أي سؤال مباشر إلى معمر نفسه عن هذا الأمر. بدأت مخاوف معمر تزداد يوماً بعد يوم لأن استفسارات صيدة لم تكن متجانسة، هذا بالإضافة إلى تبرير زياراته إلى المعسكر بأسباب واهية مختلفة.

وقد نصح الخروبي معمرا بأن يتخذ جانب الحيطة والحذر تجاه صيده، وقبل معمر بهذه النصيحة.كان صيده يبدو معروفاً وسط أفراد الجيش ليس بأنه مخبر فحسب، بل وبممارسة الشعوذة التي يشتهر بها بعض أفراد قبائل الطوارق والتبو أيضا. كانت هذه السمعة تضايق الكثير من الضباط الآخرين بل وتجعلهم يرهبون جانبه ولكن مهاراته السحرية لم تقلق بال معمر بقدر ما كان يقلقه دوره كمخبر.

وفي أعقاب أحداث مارس، زادت السلطات الحاكمة من فرض إجراءات الرقابة القمعية بشكل واضح ولم يكن ثمة أدني شك في أن إحجام رجال المخابرات والشرطة السرية عن التصرف في الوقت الحاضر إنما كان مرده للإمساك بأكبر عدد ممكن عندما يقذفون بشباكهم.

وقبل أن يقوم آمر المعسكر بالوكالة باستدعاء معمر إلى مكتبه لبعض الوقت، كان الضابط الثائر قد عاد لتوه من مدينة البيضاء حيث مقر قيادة الجيش في ذلك الوقت. كان هذا الاستدعاء غريباً لدرجة أن معمرا وجد صعوبة في إخفاء مخاوفه

المتزايدة لأنه لم يكن من عادة آمر المعسكر استدعاء ضابط في مثل رتبة معمر الذي كان ملازماً وقتذاك .

دخل معمر مكتب آمر المعسكر وأغلق الباب وراءه وطلب الآمر من أحد الجنود أن يحضر لهما فنجانين من القهوة . وازدادت مخاوف معمر حقاً عندما قابله رئيسه بمثل هذه الحفاوة غير المعتادة .

كان الاستدعاء فجائيا ، وما أن جلس معمر أمام آمر المعسكر بالوكالة حتي راح يسأل نفسه عما إذا كان الآمر يحمل دليل إدانته . وهل يا ترى يكون ذلك وثيقة خطية أم منشوراً أم قائمة بأسماء تمني لحظتها لو كان باستطاعته أن يدس يده داخل جيوبه ليتأكد من أنها فارغة من هذه الأدلة .

تصرف الضابط الكبير في بادئ الأمر تصرفاً رسمياً ثم تبادلا التحية وجلسا يتناولان قهوتهما وبينما كان معمر يفكر في الدافع الحقيقي للاجتماع إذ برئيسه يقطع عليه حبل أفكاره بتوجيهه سؤالاً لم يكن يتوقعه :— هل لديك أصدقاء كثيرون ؟

ودون أن ينتظر منه جواباً أردف آمر المعسكر قائلا : نعم لديك الكثير مهم ، حوالي العشرين ضابطاً أحدهم برتبة نقيب والآخرون ملازمون .

بدا معمر وكأنه عاجز تماماً عن الحديث فقد أدهشه رئيسه وباغته بهذه الكلمات. ثم عاود آمر المعسكر الحديث مجدداً وهو يتكلم بكل هدوء وبشاشة إلى الضابط الجالس أمامه : «إنني أحب بلدي كما تحبها وقد اتهمت بأني ثوري مثلك وتم تفتيش منزلي عام ١٩٦٠ — إنني أحترم الأشخاص الذين لديهم مبادئ ولكني أود أن أسدي إليك بنصيحة وهي ألا تضع ثقتك في كل شخص تقابله . لقد وشى أحد زملائك بك عن الحركة ونحن على علم تام بأفعالك في طرابلس » . وراح يتحدث هناك بإمكانية قيام انقلاب عسكري .

حاول معمر تجميع أفكاره بعد أن أخبره آمر المعسكر بألا يضع ثقته في كل شخص يصادفه . فهل يضع ثقته هذه المرة فيه هو أيضا ؟

لقد فهم من سياق الحديث أن هذا الضابط الكبير لديه بعض المعلومات عن الحركة وأن السلطات أيضاً تمتلك مثل هذه المعلومات . إلا أنه أدرك أن المعلومات التي لديهم مشوشة لدرجة أن آمر المعسكر بالوكالة لم يكن يعرف تماماً طبيعة الحركة وأهدافها .

استشف معمر أيضاً أن معلومات هذا الضابط كانت مشوشة لأنه لم يكن

يعرف الفرق أو الهدف بين ما جرى في مارس من تلك السنة وبين الحادث الذي وقع قبل ذلك خلال حرب الأيام الستة علم ١٩٦٧ . فقد حدث خلال تلك الأيام أن قام معمر بوضع ثقته في شخص.نقيب بالجيش . وقد اجتمعوا عدة مرات ولكنهم كانوا ستة ملازمين ولم يكونوا عشرين . ولكن المخابرات كشفت أمرهم رغم أنه لم ينظر إلى الأمر بجدية منذ ذلك الوقت .

أدرك معمر أن عليه أن يقول شيئاً ما لرئيسة، ثم قال: «إن لمن السخرية حقاً أن يعد أصدقاء الشخص بالأرقام كما لو كانوا مساهمين في شركة مساهمة» .

وما أن تفوه معمر بهذه الكلمات حتى أدرك أن الموقف قد بات جد خطير وأنه يجب عدم إغفاله بهذه السهولة. كان قد عاد مع معمر من البيضاء أحد الضباط ويحتمل أن يكون قد أحضر معه بعض المعلومات عن نشاطاته هناك . كان معمر يعرف أن هذا الضابط مكلف بمراقبة تحركات أعضاء الحركة .

اعتقد معمر أن الغضب قد يكون وسيلة حسنة للخروج من هذا المأزق ، فتظاهر بأنه تلقى إساءة من آمر المعسكر بالوكالة وعبر عن سخطه الشديد للمعاملة السيئة التي يعامل بها دائماً الضباط الجدد ممن هم في مثل حالته .

وإمعاناً منه في الإصرار على أخذ المسألة بمحمل الجد، أخبر معمر آمر المعسكر بأنه يرغب في أن يتم ترتيب اجتماع عن طريقه مع وزير الدفاع .

ذهل آمر المعسكر عند سماعه هذا الرد وكأن معمر قد عرف بأنه تلقى معلومات حديثة عنه من البيضاء . إن أشد ما كان يبغضه هذا الرجل أن يطلب إليه أحد أعضاء الحركة الإجتماع بوزير الدفاع . إذ أن مردود ذلك سيكون سيئاً عليه وعاقبته وخيمة ، فهو يعني أن من كلفوا بمراقبة الحركة سراً لم ينجحوا في ذلك ، وأن الضباط الأحرار على علم بأنهم مراقبون .

تغيرت ملامح وجه آمر المعسكر للمرة الثانية وعاد إلى بشاشته السابقة ووعد بأنه سيساند الحركة بشرط أن يتخلى معمر عن فكرة طلب الإجتماع بوزير الدفاع. ثم أخبره بأن الموقف لا يستوجب التدخل المباشر لوزير الدفاع وبرر استدعاءه له بأنه يتجاذب أطراف الحديث ولإسداء النصيحة إليه لأنه يشعر بالفخر تجاهه.

ولم يتردد معمر لحظة بعد ذلك ، وهرع إلى زملائه أعضاء اللجنة المركزية فأبلغهم بالاستدعاء وسرد عليهم تفاصيل الحوار .

٢١ ــ المؤتمــر

بنغازي ــ ١٣ أغسطس ١٩٦٩

بدأ رئيس أُركان الجيش «السنوسي شمس الدين» يحرك شفتيه في حركة تمثيلية دائمة دون أن ينبس ببنت شفه ، وأخذ يلوح بكلتا يديه يمنة ، ويسرة ، وفي جميع الإتجاهات ، أمام عدسات تصوير الإذاعة المرئية ، ثم يتوقف فجأة دون سابق إنذار ليأتي دور المعلق الإذاعي وهو يقول : «وكما شاهدتم منذ لحظات ، فقد قام سعادة رئيس الأركان بافتتاح المؤتمر وإصدار توصياته إلى ضباط الجيش . . .» ويواصل رئيس الأركان نغمته الرتيبة في محاولة يائسة منه لإضفاء لمسة من الحقيقة على مسرحيته الهزلية الركيكة .

جرى تصوير هذه اللقطات بمبنى الكلية العسكرية ببنغازي فيما كان يفترض أن يكون مؤتمراً عسكرياً على مستوى رفيع ، ولكن مصوري الإذاعة أخفقوا في الوصول في الموعد المحدد ، كما حضر رجال الصحافة في ساعة متأخرة جدا . ومع ذلك ، استمر رئيس الأركان في تمثيل دوره الهزلي بينما تتلألأ النياشين والأوسمة لتغطي معظم صدره مع أن الإجتماع ذاته ، كان قد تأجل . وما أن وصل فريق التصوير حتى طلب من رئيس الأركان أن يتبوأ مكان الصدارة ويمثل هذا الدور حتى يتسنى لهم التقاط الصور له . ولم يزد هذا المشهد التمثيلي عن كونه نكتة سخيفة بالنسبة لمعمر .

ومع ذلك كان بالإمكان استخدام المؤتمر نفسه منبراً لإعلان الثورة . في ذلك الوقت كان معمر قد حدد لاعضاء اللجنة المركزية يوم قيام الثورة والإطاحة بالنظام الملكي. إلا أن الأعضاء الآخرين للحركة لم يكونوا يعرفون الموعد. وقد وجدت اللجنة في المؤتمر فرصة سانحة لأشعال الثورة إلا أن الإعلان المفاجئ لعقده لم يتح لها الوقت الكافي لإجراء التغييرات اللازمة على خططها .

كانت الدعوة قد وجهت لجميع قادة وضباط الجيش الليبي لحضور المؤتمر

باستثناء أولئك المسئولين عن نوبات الحراسة يوم انعقاد المؤتمر. كان الغرض من هذا الاجتماع هو شرح خطة الدفاع الجوي إلى كبار ضباط الجيش ، تلك الخطة التي كانت قد وضعتها بريطانيا بعد أن وافقت الحكومة الليبية ، من حيث المبدأ ، على شراء شبكة دفاع جوي من بريطانيا بقيمة تصل إلى حوالى المائة والخمسة والستين مليون من الجنيهات الاسترلينية . وقد وصفت الخطة بأنها هامة للغاية وكان لا بد من إقناع الجيش الليبي بقبولها على أساس أن البلاد بحاجة إلى مثل تلك الأجهزة الدفاعية المتطورة .

ولم يكن هناك غير عبد العزيز الشلحي ، المستشار الخاص للملك إدريس ، والمطالب بالعرش ، لتوكل إليه مهمة الوسيط في هذه الصفقة المالية الضخمة . وفي سبيل ذلك كان لزاماً عليه أن يقنع قادة وضباط الجيش بجدوى إقامة شبكة الدفاع الجوي على الحدود الشرقية مع مصر والغربية مع تونس .

أخذت الدهشة معمراً عندما علم أن المشروع لم يضع في اعتباره سوى الدفاع عن حدود البلاد مع الدول العربية الشقيقة المجاورة وازدادت شكوكه في المشروع البريطاني لأنه لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى ساحل البحر المتوسط الذي يمتد نحو خمسة آلاف كيلومتر من بوكماش بالقرب من الحدود التونسية إلى البردية على بعد إثنين وعشرين كيلومتراً من الحدود المصرية في الوقت الذي تجوب فيه دوريات سفن الأسطول السادس الأمريكي ودول حلف وارسو هذا البحر باستمرار والتي لم تكن مصدر قلق للحكومة الليبية، ناهيك عن القواعد الأمريكية والروسية أو مناطق نفوذهما المنتشرة في حوض البحر المتوسط والدول المطلة عليه واعتقد معمر أن ساحل ليبيا الطويل ربما كان أكثر عرضة للهجوم من وجهة النظر الدفاعية . لقد كانت الأخطار الكامنة في البحر المتوسط والتي أغفلتها خطة شبكة الدفاع الجوي البريطانية أشد خطراً بالتأكيد من تلك التي من غير المحتمل أن تقع على حدود البلاد الشرقية والغربية . وبطبيعة الحال ، كان البريطانيون ينظرون إلى الموقف من وجهة نظر أخرى . فقد كانت مصر ، تحت قيادة جمال عبد الناصر ، مصدر خطر فعلي لأطماعهم التوسعية الرامية إلى استمرار بسط نفوذهم على هذه الأرض الواقعة بشمال القارة الأفريقية ، بينما كان وجود قوات حلف شمال الأطلسي في البحر المتوسط ينظر إليه على أنه وجود مشروع لإبقاء ليبيا تحت المراقبة . . . وهكذا فقد كانت مهمة الشلحي هي العمل على

إقناع قادة الجيش الليبي للنظر إلى الموقف بمنظار الحكومة البريطانية .

كان من الصعب في تلك المرحلة المبكرة فهم الأسباب الحقيقية التي أدت إلى تلك الصفقة المشبوهة بين بريطانيا وليبيا . وبطبيعة الحال ، فقد كانت بريطانيا هي المستفيد الأول من إبرامها لإنها ستسارع دونما ريب وقبل أن يجف المداد الذي كتبت به بنود هذه الصفقة المربحة إلى إرسال الفنيين والخبراء البريطانيين إلى ليبيا بحجة المساعدة وتقديم المشورة إلى الجيش الليبي حول استخدام شبكة الدفاع . وعندما يستقر هؤلاء الخبراء في القرى السياحية فإنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يشكلوا ما يمكن وصفه بأنه قاعدة عسكرية بريطانية أخرى ، وبالتالي يوفرون على حكومتهم متاعب الدخول في الرسميات والطرق العديدة التي قد تلجأ إليها بريطانيا من أجل بلوغ هذه الغاية .

كان من المقرر أن يستمر المؤتمر يوماً كاملاً بمسرح الكلية العسكرية في بنغازي . كان ذلك التجمع الضخم لقادة وضباط الجيش يثير في حد ذاته اهتمام معمر خصوصاً في ذلك الوقت الذي بلغت فيه خطط الثورة مرحلة متقدمة وبعد أن أصبحت الحركة . وللمرة الثانية ، في موقف يمكنها من تعبئة قواتها بمجرد إخطار قصير المدة، بشرط أن يتوفر لديها الوقت الكافي لوضع الترتيبات النهائية لشن هجوم عسكري على أماكن متفرقة من البلاد. وفي الوقت نفسه فقد كان من الأهمية بمكان ألا يؤدي إلى الوقوع في الخطأ، لأن أي هفوة مهما كانت بسيطة يمكن أن تضر بالمهمة كلها. ومع ذلك فقد كانت الظروف في نظر معمر مواتية تماماً، إذ أنه يمكن ضرب حصار حول قاعة المؤتمر في أي وقت أثناء الإجتماع وإلقاء القبض على جميع كبار قادة وضباط الجيش في حركة بارعة وبعد ذلك يتم الإفراج عن الضباط التابعين للحركة وتكليفهم بمهمات جديدة . وكان بإمكانهم تعزيز فرص النجاح إذا ما وضعت ترتيبات أكثر تفصيلا . فعلى سبيل المثال كان بإمكانهم إجراء ترتيب مسبق يضمن لهم وضع بعض الضباط الأحرار في نوبات عمل يوم انعقاد المؤتمر ليتسنى لهم الإستيلاء على المعسكرات وتعبئة القوات الموضوعة تحت إمرتهم دون تأخير. إلا أن العقبة التي صادفتهم كانت عدم معرفة الضباط الأحرار في طرابلس بما يجري في بنغازي وصعوبة إبلاغهم بالأمر في الوقت المحدد ومدى إمكانيتهم في حالة التغلب على صعوبة إبلاغهم بالأمر أن يكون بمقدورهم اتخاذ الترتيبات اللازمة في مثل هذه المدة القصيرة .

حاول معمر الاتصال بأكبر عدد ممكن من الضباط الذين تخرجوا في الكلية العسكرية في بنغازي قبل انعقاد المؤتمر بثلاثة أيام لأنهم لم يكونوا على بينة بالمخططات الرامية إلى قيام الثورة في اليوم الذي يجتمع فيه جميع الشخصيات المهمة في الجيش بمسرح الكلية . كان يرى أنه لا بد من الإتصال حتى ببعض هؤلاء الضباط الجدد لأن أحداً لم يكن يعرف بعد الوحدات التي تم تعيينهم للالتحاق بها . وقد تمكن من الإتصال بأعضاء الحركة على الفيتوري ارحومة وأحمد أبو مفتاح ومحمد عبد الوهاب واقترح عليهم بأن يكونوا في الخدمة يوم انعقاد المؤتمر . أما بالنسبة لوضعه الشخصي فقد حاول إقناع رؤسائه بتمديد فترة حراسته في بنغازي . وبالرغم من أن طلبه هذا كان يبدو غريباً إلا أنه اختار الوقت المناسب له وذلك عندما كان الضباط الذين كان ينتظر ردهم على وشك أن يقضوا بعض الوقت من إجازاتهم مع ذويهم وبدلاً من أن يمددوا فترة بقائهم التي لا داعي لها في المعسكر فقد استجابوا لطلبه . كما تم أيضاً تكليف مصطفى الخروبي والمحمد المقريف بتأدية نوبات حراسة في ذلك اليوم ، بينما كان محمد نجم مكلفاً بالحراسة في الكلية العسكرية .

كان معمر قد حضر في اليوم السابق لانعقاد المؤتمر اجتماعاً بمنزل المحمد المقريف. حيث وضعت ونوقشت خلاله خطط القيام بالثورة أثناء هذا التجمع الكبير بالكلية العسكرية . وتم الإتفاق على أن يكون محمد نجم مسئولاً عن عملية الإستيلاء على مبنى الكلية بمساعدة بعض الضباط والطلبة في الوقت الذي سيقوم فيه ضباط آخرون من الحركة بمحاصرة قاعة الإجتماعات في ذات الوقت الذي يبدأ فيه الهجوم على معسكر قاريونس . كما تم الإتفاق على إطلاق سراح جميع الضباط التابعين للحركة على الفور ليتمكنوا من قيادة ألوية المشاة ووحداتهم والسيطرة عليها إذ كانت جميع الدلائل تشير إلى أن الظروف تجري لصالحهم . وبات في حكم المؤكد عدم وجود أي ضابط من ذوي الرتب العالية لحماية المعسكرات نظراً لتواجدهم جميعاً في قاعة الإجتماعات بالمؤتمر .

وقد تم الإتفاق على أنه ما إن يتم الإستيلاء على الكلية العسكرية حتى ترسل إشارة إلى طرابلس لتنبيه الضباط الأحرار هناك ليتحركوا بدورهم للإستيلاء على المنشآت العسكرية المهمة والمؤسسات الحكومية في طرابلس بمجرد معرفتهم بأن الثورة قد بدأت في بنغازي . كانت النقطة الصعبة بالنسبة للخطة المقترحة هي

الإستيلاء على الكلية العسكرية في بنغازي لأن عليها يتوقف نجاح الخطة . وقد اتفق على أن أنسب وقت للهجوم على الكلية سيكون بعد ساعات العمل الرسمية عندما يكون جميع العاملين العاديين قد غادروا المبنى ، إلا إذا وقع ما ليس في الحسبان وتمكنت طرابلس من القيام بعملياتها بنجاح فعندئذ يصبح من الممكن إعلان الثورة مع حلول الظلام .

استمر الاجتماع الذي عقد بمنزل امحمد المقريف حتى ساعة متأخرة من الليل حيث كان قد تم الإتصال بأعضاء اللجنة المركزية في طرابلس وإبلاغهم بالخطوط العريضة للعملية وتقرر عند منتصف الليل القيام بالثورة وعاد محمد نجم إلى منزله بحي الصابري لتوديع أسرته وكان يتصرف كما لو كانت هذه هي آخر زيارة يقوم بها لمنزله . وأخذ الأعضاء الآخرون يغادرون المكان عندما حطم رنين الهاتف سكون الليل . كان صوت عبد المنعم الهوني على الطرف الآخر من الخط الهاتفي قادماً من طرابلس . وقد شرح لهم بأن الوقت اللازم لإجراء جميع الترتيبات الضرورية لا يكفي وأبلغهم بأن الموقف في طرابلس يختلف تماماً عنه في بنغازي وأنه يعتقد أن الضباط الأحرار في طرابلس في وضع لا يمكنهم من الإستيلاء على وحداتهم . وعبر عن مخاوفه لعدم إحكام التوقيت وأكد أن غالبية الضباط الأحرار في طرابلس يعتبرون القيام بالثورة في تلك الساعة مجازفة كبرى وعملاً انتحاريا .

حملت الشكوك التي إثارها الهوني معمرا والضباط الوحدويين الذين كانوا لا يزالون في منزل المقريف على إعادة التفكير في الأمر . لم يكن الموقف يحتمل التهاون ولو للحظة من عدم الدراسة الدقيقة المتأنية . فلم يكن يخفى على معمر أن سنوات وسنوات من العمل والاستعدادات يمكن نتيجة لذلك أن تتبدد ببساطة أو تتعرض لأخطار لم تكن في الحسبان . لقد كان الموقف محدوداً على النحو الذي يتعذر معه إعادة النظر في قرارهم السابق للقيام بالثورة فوراً ومن ثم رأي الضباط الأحرار المجتمعون في منزل المقريف من الحكمة تأجيل الموعد وانتظار فرصة أخرى مناسبة . وكان لا بد من إبلاغ نجم بما طرأ على الموقف من تغيير إذ كان قد غادر الإجتماع دون أن يعلم بالتأجيل الذي تم في آخر لحظة ، ومن ثم لا يزال الضوء الأخضر بالنسبة له قائماً ولم يكن ثمة ما يحول دون استيلائه على الكلية العسكرية كما اتفق .

٢٢ ــ سباق مع الزمــن

طرابلس ــ ٢٩ أغسطس ١٩٦٩

داخل مبنى المطار القديم الذي كان يستخدم كمحطة استقبال ومغادرة لعدد متزايد من المسافرين من وإلى طرابلس ، وقف معمر يتطلع في انفعال وتلهف نحو اللوح الخشبي المعلق بالحائط الذي كتبت فوقه مواعيد إقلاع ووصول الرحلات اليومية . لقد أدرك أنه لم يبقَ سوى نصف ساعة فقط على إقلاع رحلته ، آخر رحلة مقررة إلى مدينة بنغازي ، فراح يفتش داخل جيوب معطفه عن شيئ ما ولكنه وجد أن دفتر الملاحظات الذي كان يحمله دائماً معه مليئ إلى آخره بالكتابة فلم يجد ورقة غير مستعملة لينتزعها منه . ولما لم يسعفه الحظ التفت يمنة ويسرة ثم التقط من على أرض المطار علبة سجاير فارغة موضوعة على كرسي قريب من المكان وشرع في قص أطرافها ليرسم فوقها بقلم رصاص كان قد استعاره من حارس أبدى امتعاضاً واضحا ، رسما بيانيا بسيطا لأهم المنشآت العسكرية والمدنية في طرابلس واضعاً خطاً عريضاً تحت المنشآت الأكثر أهمية .

نظر عبد السلام جلود إلى معمر وهو يقوم بهذا العمل دون أن يبدي أي تعليق ، فقد كان لا يزال غير مقتنع . . . بل على العكس من ذلك كان مصراً على أن الوقت لم يحن بعد لإجراء محاولة جديدة لقلب نظام الحكم .

في الفترة التي أعقبت إخفاق الحركة في محاولتها الأولى للإطاحة بنظام الحكم الملكي ، قام القدر (أو ربما مكائد السلطة التي لم تكتمل لديها بعد المعلومات الكافية عن الحركة) بتوجيه ضربة قوية إلى آمال وطموحات الضباط الوحدويين الأحرار للمرة الثانية . فقبل يوم واحد فقط ، قام عشرات من الضباط الجدد ومعظمهم من الملازمين التابعين للحركة ، باستكمال الترتيبات النهائية للسفر إلى بريطانيا وأمريكا ضمن دفعة الضباط الثانية لتلقي دورات تدريبية متقدمة . أما الدفعة الأولى والتي كانت موجودة بالفعل في ذلك الوقت في بريطانيا ، فكانت

تضم أحد عشر عضوا من أعضاء الحركة . حاول معمر أن يواسي النفس ويندب سوء الطالع عندما سافرت الدفعة الأولى بقوله: إن الأمر لا يعدو عن كونه مصادفة. ولكن ما أن صدرت الأوامر إلى الدفعة الثانية للاستعداد للسفر حتى بات موقناً بأن الأمر لم يعد مصادفة بل إنه لا بد أن يكون من تدبير المخابرات العسكرية التي قررت ، ربما بالتعاون مع جهات حكومية أخرى ، إرسال أفراد المجموعة الثانية في هذه الدورة المفتعلة كمناورة ذكية لإ حباط نشاطات الحركة . وقد تقرر أن تستمر الدورة لفترة ما بين سنتين إلى خمس سنوات على أن يكون موعد سفر أفراد المجموعة الثانية ، وهم ملازمون حديثو التخرج ، في غضون يومين أي يوم الفاتح من سبتمبر ليتم توزيعهم في مختلف أنحاء بريطانيا وأمريكا ومدن أوروبية اخرى : راح معمر يركز جل اهتمامه الآن حول تحديد اليوم الموعود للثورة وهو يتخيل كيف سيكون شعور هؤلاء الضباط عندما يسمعون على الأثير عبر أجهزة المذياع أو يقرأون في الصحف الأجنبية في البلاد الموجودين بها عن نجاح أو فشل الثورة .

لقد قام كبار قادة الجيش بمباركة من حكومة ليبيا بإرسال هؤلاء الضباط لمدة طويلة للتدريب في الخارج على تشغيل وقيادة أجهزة الدفاع الجوي التي تم الإتفاق عليها بين الحكومتين الليبية والبريطانية في الصفقة المشبوهة التي ثار حولها الجدل والنقاش . في نظر معمر كانت شبكة الدفاع الجوي ترسيخاً للتواجد العسكري البريطاني في البلاد إلى جانب الأموال الطائلة التي ستنفقها ليبيا ثمناً للمعدات . كما كان معمر وبقية أعضاء اللجنة المركزية ينظرون إلى الإتفاقية التي وقعها رئيس وزراء ليبيا في ذلك الوقت عبد الحميد البكوش مع الحكومة البريطانية على أنها خلقت إفساداً للذمم المالية على أعلى المستويات في البلاد .

لقد كان على ليبيا أن تدفع مبلغاً طائلاً إلى بريطانيا نظير شبكة الدفاع التي كانت ستحمي حدود البلاد من جيرانها وأشقائها العرب التونسيين والجزائريين في الغرب والمصريين في الشرق . ولم يكن ثمة بند ينص على استعمال هذه الشبكة لحماية السواحل الليبية المترامية الأطراف والتي تصل إلى قرابة الألفي كيلومتر والتي لم تكن تجوبها سوى دوريات السلاح الجوي الليبي القليلة الشأن بينما كانت القطع البحرية العسكرية للاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية تمخر عباب البحر وهي تلوح بعضلاتها من على مسافة قريبة من الشواطي الليبية . كان معمر

يتساءل بالرغم من معرفته للإجابة عن سبب عدم استخدام هذه الشبكة لمراقبة تحركات الأسطول السادس الامريكي ، أو لماذا لم تنصب على حدود ليبيا الجنوبية مع الدول الأفريقية التي كانت تحكمها بريطانيا وفرنسا ضمن مستعمراتها في القارة ؟ لقد قام البريطانيون بتنصيب الملك كحام لمصالحهم في شمال إفريقيا وكان الخطر الحقيقي والوحيد الذي يتهدد المصالح الغربية في المنطقة يأتيهم فقط من الدول العربية المجاورة لليبيا وخصوصاً من مصر في ظل القيادة الثورية لجمال عبد الناصر.

وكلما فكر معمر في صفقة شبكة الدفاع الجوي، كلما أصبح أكثر اقتناعاً من أن الأمر لا يخرج عن كونه عملية بارعة التخطيط في فن الخداع السياسي. فقد قدمت الدليل الذي لا يمكن دحضه على تفشي الصفقات التجارية الضارة التي كان يقوم بها حكام العهد المباد مدفوعين في ذلك بتحقيق منافع شخصية لهم لا أكثر ولا أقل . إن هذه الأشياء وغيرها قد أوقدت في نفسه شعلة متأججة من الحماس وزادت من إيمانه بأنه لا يوجد الآن أي أمل آخر أمام ليبيا سوى القيام بالثورة التي قرر إشعالها في الحال ودون أي إبطاء . لقد أدرك أن مرور الوقت وارسال المزيد من الضباط الوحدويين الأحرار في دورات تدريبية إلى الخارج سيؤدي بالحركة إلى أن تفقد فاعليتها وتصاب بضرر بالغ تمر سنوات عديدة قبل أن تتمكن من جمع صفوفها وتصبح في نفس المستوى والكفاءة التي هي عليها الآن من حيث التنظيم والدقة والفعالية. كما أن مرور الوقت سيؤثر بلا شك على معنويات افرادها بصورة أو بأخرى فلم يكن هناك خيار أو طريقة أخرى سوى قبول التحدي .

كانت هناك أشياء أخرى أيضاً تضايق معمرا. فالضباط الذين تم إبلاغهم بالسفر في الدفعة الثانية يوم الفاتح من سبتمبر كانوا من خيرة الرجال الذين وضعت الحركة فيهم كل ثقتها . ويمكن أن يعني هذا أن المخابرات العسكرية قد شرعت في ملاحقة الحركة . وإذا ما صح هذا القول ، فإن المخابرات العسكرية تكون بذلك قد بدأت في تعقب الضباط الوحدويين الأحرار بعد أن فقدت الدليل الكافي للتصرف تجاههم بكل حزم ، وأن عليها الآن أن تقوم بتفتيت الحركة من الداخل عن طريق تفريق شمل عناصرها من الضباط الوحدويين الأحرار وإرسالهم في دورات تدريبية بالخارج وهي طريقة ماكرة وشديدة الفعالية

لتدمير الحركة وتهدئة مخاوف وشكوك رجال السلطة الحاكمة . لقد بدأت الآن مرحلة السباق مع الزمن .

وبعد أن ترك تعليمات محددة واضحة بمعسكر قاريونس ، ذهب معمر بصحبة محمد المقريف إلى البيضاء ودرنة لإبلاغ الضباط الوحدويين الأحرار الموجودين هناك بقرب الموعد النهائي للثورة . ثم أقلع بعد ظهر اليوم في الرحلة الأخيرة المتجهة إلى طرابلس لمقابلة عبد السلام جلود ومناقشة الترتيبات النهائية لقيام الثورة معه .

اتخذ معمر مكانه في مؤخرة الطائرة من طراز «كارافيل» المتجهة من بنغازي إلى طرابلس والتي بدت له وكأنها تسير ببطء اثناء طيرانها فوق خليج سرت بنصف حمولتها فقط. وفي أثناء الرحلة التي استغرقت زهاء الساعة طفق معمر يفكر في أحداث السنين الماضية. منذ دراسته في سبها وعقد الإجتماعات السرية الأولى وإنشاء الخلايا السرية وأيام المظاهرات وطرده المتكرر من الدراسة وقراره بالالتحاق بالكلية العسكرية كمحاولة أخيرة لتحقيق التغيير المرغوب فيه في البلاد عن طريق استخدام الجيش كقوة ضاغطة . وبدت كلها سلسلة متصلة أمام ناظرية بعد أن انجلت ساعة الحقيقة التي لم يبقَ عليها سوى ثمان وأربعين ساعة .

إهتزت الطائرة اهتزازاً خفيفاً إثر مرورها فوق منطقة تيار هوائي دافيء. حينما كان معمر يتفرس وجوه ركاب الطائرة الذين كانوا جميعهم مسترخين تماماً فلا يوجد ثمة ما يعكر صفوهم . وتعرف من بينهم على ابن أحد كبار ضباط الشرطة . . . سيفقد مركزه بعد ثمان وأربعين ساعة إذا لم يقاوم أو ربما سيصاب بجروح أو يقتل إذا ما حاول المقاومة . وعلى مقربه منه ، جلس أحد الركاب يتحدث إلى رفيقه عن خططه لزيارة إيطاليا بعد إقامة قصيرة في طرابلس . . . ولم يكن يعرف أنه لن يقوم بهذه الزيارة إذا ما سار كلُ شيئ وفقاً لمخططات معمر ووقعت الثورة فإنه سيتم قفل جميع المطارات في البلاد. وفي مقدمة الطائرة جلس طالب في الكلية العسكرية يدخن سيجارته بهدوء... كان عضواً في الحركة ولكنه لم يكن يعرف بمخططات معمر أو ربما لا يعرفه على الإطلاق ، ولم يكن يعرف بعد أنه سيتم استدعاؤه خلال الثمانية والأربعين ساعة القادمة ليأخذ مكانه في عملية الثورة . وعلى الجانب الآخر منه ، جلس رجل في منتصف العمر

كان معمر قد عرفه بأنه موظف مجد ومخلص . . . فربما يخفي له المستقبل وضعاً أفضل .

لم يقم معمر لأسباب أمنية محضة ، بإبلاغ أحد عن رحلته إلى طرابلس ولكنه قابل عند وصوله المطار عدة أشخاص يعرفهم فعرضوا عليه أن يقلّوه بعربتهم إلى المدينة . قبل معمر عرضاً من أحدهم دون تردد ودار الحديث خلال الطريق التي استغرقت أربعين دقيقة حول أمور عادية وأشياء ثانوية لا قيمة لها . كان معمر يعلم أن ولي العهد مازال موجوداً في طرابلس وبالرغم من سفر الملك في إجازة إلى الخارج . وأنه يقيم داخل قصره المنيع الفاخر بطريق السواني .

بدأ الظلام يخيم رويداً رويدا ولكن ساعة الوصول المتأخر لم تكن تزعج معمرا فذهب في مساء نفس ذلك اليوم لزيارة الملازم خليفة حنيش بمعسكر الفرناج بادئاً بذلك الجولة النهائية من الاتصالات . لم ينم معمر سوى بضع ساعات متقطعة في تلك الليلة فقد كان عليه القيام بعدة أعمال في فترة زمنية قصيرة . وفي الصباح الباكر توجه لحضور اجتماع نهائي وحاسم مع عبد السلام جلود وأبي بكر يونس. واستقل ثلاثتهم سيارة عبد السلام جلود وانطلقوا بها إلى جتزور على بعد خمسة عشر كيلومتراً غربي مدينة طرابلس على أمل أن يجدوا عبد المنعم الهوني هناك ولكنهم لم يجدوه .

وبعد تناول طعام الغذاء شرعوا في مناقشة الموقف الخطير في مسكن ريفي للملازم خليفة احنيش بإحدى ضواحي طرابلس ، وكان عبد السلام غير مقتنع بموعد قيام الثورة وكان من الصعب جداً إقناعه بهذا الأمر . كان يرى بأن الفرصة غير سانحة على الإطلاق لشن الثورة فقد تسبب إرسال عدد كبير من الملازمين في دورات تدريبية إلى الخارج في إضعاف الحركة نفسها وقدرتها على التحرك . وقد أوضح أنه بات من الصعوبة بمكان معرفة أماكن وجود معظم الضباط نظراً لحركة التنقلات غير المتوقعة . وكان عبد السلام يصر على أن أفضل حل أمام الحركة تأجيل موعد قيام الثورة لفترة لا تقل عن أحد عشر شهرا . كان يعتقد أن قوة الحركة قد شلت بالفعل إلى درجة خطيرة، فهناك مجموعة من الضباط التابعين للحركة والذين كانوا يعسكرون قبل أيام في بنغازي ، ينزلون الآن بفندق النسر الذهبي بطرابلس انتظاراً لتعليمات السفر إلى بريطانيا كما أن الأحداث غير المتوقعة الأخرى كان لابد من أخذها بعين الاعتبار . . . فالضابطان المسئولان

عن حامية الخمس، مختار القروي وبشير هوَّادي، كانا في إجازة، كما أن محمد نجم المسئول عن الكلية العسكرية في بنغازي ، كان خارج البلاد ، هذا بالإضافة إلى نقل مجموعة أخرى من الضباط التابعين للحركة إلى البردي .

وإلى جانب ذلك فقد أصرَّ جلود أيضاً على أن عدداً كبيراً من الضباط الأحرار قد غادروا البلاد بالفعل إلى بريطانيا ضمن أفراد المجموعة الأولى . ولما وقعت عيناه على ورقة علبة السجاير التي كان معمر قد رسم عليها خطة قيام الثورة بمبني المطار ، ظل غير مقتنع بأن يوم الفاتح من سبتمبر هو الموعد الصحيح الثورة . أما معمر فقد كان من جانبه مصراً على ضرورة القيام بالمحاولة دون مزيد من التأخير .

ولما بدأ معمر يشرح تفاصيل خطة الاستيلاء الشاملة لعبد السلام جلود ويخبره باجتماعه المقرر غداً مع «جبريل الكاديكي» أخذ أمهر الطيارين الحربيين والذي كان قد انضم إلى الحركة ، علا صوت مكبر الصوت الذي أعلن عن قيام آخر رحلة مغادرة إلى بنغازي وأنهى معمر حديثه مع عبد السلام بعد أن صافحه بحرارة ليعود مرَّة أخرى إلى بنغازي لوضع اللمسات الاخيرة على الخطة الرئيسية للثورة .

كانت ساعة الصفر ستبدأ عند الساعة الواحدة من صبيحة فجر الفاتح من سبتمبر عام ١٩٦٩ ، وفي غضون ساعتين سيتم الهجوم والسيطرة على أكثر المنشآت أهمية وحيوية في كل من طرابلس وبنغازي ، أو على الأقل ستكون في طريق الاستيلاء عليها ، ففي قار يونس ، تلك الثكنة العسكرية الهامة التي تقع على بعد ثمانية كيلومترات خارج مدينة بنغازي ، شرع معمر في وضع الترتيبات النهائية الشاملة التي يعتمد عليها نجاح الثورة أو فشلها . وكان معه في الغرفة مجموعة من الضباط الوحدويين الأحرار الذين كانوا أعضاء في اللجنة المركزية ، وكان كل منهم مكلفاً بمهمة محددة فقد كانت تنتظرهم مسئوليات جسام مختلفة . وفي تلك اللحظات العصيبة كانت أدوارهم ثانوية ولكنها مع ذلك كانت مثل أسنان عجلة الآلة التي ما أن تبدأ في الحركة حتى تأخذ جميع أجزائها في التحرك بصورة متناسقة . فكل عملية عسكرية مكملة للاخرى ولم يكن هناك مكان للحظ . وكان لا بد من وضع التفاصيل الدقيقة جداً للهجوم المزدوج على مدينتي طرابلس وبنغازي ولتنفيذ الخطة بمنتهى الدقة والحزم .

كانت تفاصيل خطة الثورة والتفاصيل العامة للهجوم نفسه وتحديد اليوم الفعلى الذي سيقع فيه الهجوم توضع في العادة من قبل اللجنة المركزية للحركة إلا أنه لم يتم إبلاغ بقية الضباط الوحدويين الأحرار والأعضاء الآخرين في الحركة بالتفاصيل الجوهرية هذه المرة فسيعرفونها فقط خلال اللحظات الأخيرة التي ستسبق الهجوم الكبير. وقد اتخذ هذا الإجراء كتدبير احتياطي آخر حتى لا يتم تقويض فرص نجاح الثورة. لقد كانت سلسلة الاحداث التي أعقبت تأجيل موعد الثورة في الرابع والعشرين من مارس ما زالت راسخة في ذهن معمر. ففي ذلك الوقت كان سيتم إحباط الثورة من قبل السلطات التي لم تستطع في بادئ الأمر قبول حقيقة أن الثورة قد تأصلت إلى هذا الحد وأنها أصبحت تهدد الملكية، إلا أن السلطات مع ذلك قامت باتخاذ الترتيبات اللازمة لإحباط أية إمكانية لتمرد عسكري. تذكر معمر الإجراءات الصارمة التي فرضت على مستودعات الذخيرة ومخازن الأسلحة والتجمع غير المتوقع للآليات العسكرية وانتشار الدوريات ليل نهار، ورحلة الملك إلى طبرق. لقد كان مصمماً هذه المرة على عدم تكرار أحداث الرابع والعشرين من مارس التي أصبحت ذكريات مريرة ومثبطة للآمال.

في هذه المرة كان لا بد من تخطيط الهجوم الفعلي بحذر شديد والعمل على تنفيذه وفقاً للخُطَّة المرسومة وألا يحصل نكوص أو تقهقر أو تأجيل آخر في آخر لحظة. لقد كان الوقت مهيأ أكثر اليوم لشن الهجوم ولم يكن ثمة ما يدعو أو يبرر تأجيله مرة أخرى.

بلغ الكسل واللامبالاة داخل الإدارات الحكومية أبعاداً جديدة إذ هبطت المعنويات داخل صفوف القوات المسلحة والإدارات الحكومية إلى أدني حد لها. كما أضحت علامات عدم الإكتراث وفتور المشاعر والهمم واضحة أكثر من ذي قبل، في بلد تحكمه إدارة مشهورة برداءة السمعة والفساد الإداري. كان معمر أكثر اقتناعاً في ذلك اليوم بأنه لن تتاح فرصة أنسب من الفرصة الحالية للإطاحة بالنظام الملكي. كما كان مقتنعاً بأن الإنتظار لوقت آخر لشن الثورة سيؤدي إلى نتائج عكسية ولن يكون في صالح الحركة. ولم تكن الطريق ممهدة تماماً أمام الثورة، فقد كانت هناك بطبيعة الحال عقبة وهي تمركز معظم الضباط الوحدويين الأحرار في مدينة طرابلس ولم يكونوا موزعين على كافة المناطق في

البلاد كما تمنى معمر ولكنها ، مع ذلك ، لم تكن بالعقبة التي يصعب التغلب عليها فما زال بالإمكان تخطيط الثورة وتنفيذها حتى مع وجود تلك العقبة. ويجب الاعتراف بأن عدم التوزيع المتكافئ للضباط الأحرار سيجعل مهمة وضع الترتيبات النهائية أصعب ولكنها لم تكن بالشيء المستحيل.

ظل معمر داخل غرفته بمعسكر قار يونس مع الخروبي وهو منهمك في تقييم قوة الحركة بالنسبة للعناصر والسلاح والذخيرة والمعدات ، فقد كانت هناك تفاصيل لا تحصى كان ينبغي وضعها في الحسبان في تلك الليلة المصيرية. وقد كلف كل ضابط من ضباط الحركة وخصوصاً أولئك الذين كانوا في نوباتِ حراسة وفي موقف يمكنهم من التحرك بحرية وتعبئة الجنود واستخدام الآليات . . . بمسئولياتهم بعناية. ففي بنغازي ، اعتقد معمر أنه يمكن تعبئة أكثر من ثلاثمائة جندي في الحال. وكان الوضع بالنسبة للذخيرة أوفر حظاً فقد كان تحت تصرف ضباط الحركة بمعسكر قار يونس ترسانة أسلحة تضم عدداً لا بأس به من القنابل اليدوية والمسدسات ورشاشات «تومي». وقد استطاع معمر وبعض الضباط الأحرار أن يوفروا على أنفسهم هذا العناء وقاموا بإخفاء بعض الذخيرة تحت أرضية غرفهم . . . وكانت من المخصصات التي تصرف لهم خلال المناورات العسكرية.

وهكذا كان معمر منهمكاً في العمل عندما دخل المقريف وألقى بالتحية عليه ثم راح يحكي له قصة المكالمة الهاتفية التي كان قد أجراها لتوه مع رئيس الشرطة العسكرية العقيد مسعود سعد. كانت تلك المكالمة التي جاءت مصادفة في تلك الليلة التي ستغير مجرى التاريخ الليبي قد أفزعت المقريف في بادئ الأمر خصوصاً وأنها من ضابط برتبة عسكرية كبيرة ومركز مرموق في الشرطة العسكرية. كانت هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها العقيد بالإتصال هاتفياً بالمعسكر. التقط المقريف سماعة الهاتف وبعد أن تبادل التحية الرسمية المألوفة أبلغه العقيد بأن هناك مسألة «مستعجلة جدا» يود أن يبلغه بها. اشتدت مخاوف المقريف عند سماعه هذا القول ولم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في أن الحظ العاثر لن يفارقهم وأنه الآن قاب قوسين أو أدنى منهم ، بدأ يتساءل فيما إذا كانت جميع مخططاتهم وآمالهم قد نسفت قبل أن ترى النور. وعلى الطرف الأخر من الخط الهاتفي استطاع أن يسمع ما كان يعتقد أنه خشخشة قصاصات ورقية ، أخذ

المقريف يستجمع قواه استعداداً للضربة التي كان يحس بأنها ستوجه ضد الحركة ذاتها وضد القضية التي كافحوا طويلاً من أجل بلوغها . ولكنه تنفس الصعداء عندما أبلغه العقيد بأنه يريد فقط الاستفسار عن المسألة التي كانت في ذلك الوقت رهن التحقيق من قبل إحدى لجان التحقيق العسكرية والتي كان المقريف رئيساً لها . وقد كان بعض المدنيين متورطين في تلك القضية بالذات وأبلغه العقيد بأنه سيحضر إلى معسكر قار يونس الساعة الثامنة صباح الغد وطلب منه إتخاذ الترتيبات اللازمة لهذه الزيارة .

اعتقد المقريف لبرهة قصيرة عندما التقط سماعة الهاتف أن عمليات الحركة ومخططاتها السرية قد وردت إلى علم المخابرات العسكرية ، فإن مكالمة هاتفية غير متوقعة من رجل يتبوأ مركز القمة في الشرطة العسكرية قد تكون مجرد مقدمة إلى وقوع الكارثة وبداية النهاية للثورة التي لم تر النور بعد . ولم يكن باستطاعته أن يخفي مشاعر الراحة العميقة التي أحس بها عندما قام بوضع سماعة الهاتف في النهاية وهو يعرف أن جميع مخاوفه وشكوكه لا أساس لها من الصحة . استمرت المكالمة لبضع دقائق إلا أنها بدت ساعات طويلة بالنسبة إلى المقريف . وعند نقطة اللاعودة هذه عرف المقريف أنه لا بد من توقع الأسوأ دائما ، فإن أي حركة غير متوقعة تحوم حولها الشبهات لابد من تمحيصها بعناية حتى تزول كل الشكوك .

كانت التدابير الاحترازية ضرورية للحركة في الساعات الأخيرة حرصاً على سلامة الثورة التي سينبلج فجرها قريباً جدا . وفي مثل هذه الظروف ينبغي عدم إغفال أي مكالمة هاتفية أو حركة مهما تبدو بسيطة فالأخطار تنطوي في آلاف الاشكال والصور حتى في ذلك الوقت من التوتر الشديد فقد تخفي الموجة الصغيرة وراءها موجة شديدة الإرتفاع .

وما أن زالت مخاوفه التي جلبتها تلك المكالمة الهاتفية حتى استجمع كل قواه وبات أكثر تصميماً على مجابهة المخاطر والصعاب مهما غلا الثمن . لقد كان على يقين تام بأن الشرطة العسكرية لم تكن لديها أي فكرة على الإطلاق بأن الحركة ستبدأ عملية الهجوم الكبير في غضون ساعات . ولو كانوا يشكون في الأمر لكانت المكالمة التي تلقاها قبل لحظات ذات مضمون ونتائج مختلفة . إن هذا التحليل للأمور أقنع المقريف بأن النصر النهائي والأكيد للثورة آت لا ريب فيه .

وبينما هو في طريقه لرؤية معمر ، بحجرة الألعاب الرياضية ، شاهد اثنين من

الضباط الوحدويين الأحرار السابقين اللذين إرتدا عن الحركة بعد الرابع والعشرين من مارس وهما يلعبان البلياردو وكأن شيئاً غير طبيعي لن يحدث بعد ساعات وكانا لا يعرفان ما يدور حولها وربما حتى لم يشعرا بوجود المقريف أثناء مروره . كان الضابطان يقومان بتصرفات غريبة جداً بعد عزلها عن الحركة ويبثان الإشاعات بأن السلطة ستقوم قريباً بإلقاء القبض على معمر وعشرين آخرين . لقد تصرفا بطريقة غير منطقية كما لو كانا يريدان التنفيس عن خيبة أملهما من خلال بث مشاعر الخوف في نفوس الأعضاء الاخرين أو ربما كوسيلة للتضليل خصوصاً بعد أن أدركا أنهما لا يمتلكان الشجاعة أو الإيمان لأن يكونا جزءاً من الثورة . لقد كان قرار تأجيل الثورة في الرابع والعشرين من مارس العذر القبيح الذي يبحثان عنه بحركة لا شعورية لتبرير فعلتهما الشائنة ، وتساءل المقريف عما إذا كانت الحركة تضم بين صفوفها عناصر على شاكلتهما ممن لا يعتمد عليهم .

أصغى معمر إلى قصة المقريف عن المكالمة الهاتفية باهتمام بالغ واطمأن على أن الشرطة العسكرية لم تكن تعرف شيئاً عنهم وكان استنتاجاً مقبولاً ومشجعاً في مثل تلك الظروف .

كانت الخطة التي وضعها معمر في تلك اللية ترمي إلى تحقيق هدفين في آن واحد كان الهدف الأول هو الاستيلاء على معسكر قار يونس نفسه الذي يعتبر مركزاً عسكرياً مهماً للغاية ، الأمر الذي يجب عدم تركه تحت سيطرة القوات المؤيدة للحكومة . أما الهدف الثاني فكان يتعلق بالهجوم وما يعقبه من سيطرة على تلك الأماكن الهامة مثل دار الإذاعة ومقر قيادة الشرطة والمستشفى العسكري ومكتب البريد وإلقاء القبض على الشخصيات الحكومية البارزة وذوي الرتب العسكرية العالية والوزراء الذين كانوا خلالها في زيارة إلى بنغازي . وقد تم تحديد الساعة الحادية عشرة مساء لتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة . وقد برز موضوع الاستيلاء على دار الإذاعة كأهم نقطة في الخطة . وعقب تنفيذ هذين الهدفين الرئيسيين ، تتوجه قوات الثورة لمهاجمة معسكر البركة المنيع رغم صغر حجمه والسيطرة عليه. وكان مكتب البريد هدفاً مهماً أيضاً لأنه يمكن عن طريقه التحكم في كافة الإتصالات الخارجية مع النصف الشرقي للكرة الأرضية . كما كان المستشفى العسكري مركزاً حساساً لأنه يضم الأحياء السكنية للعديد من الضباط المتزوجين . وكان لا بد أيضاً من احتلاله عن طريق رجال القوى الثورية . كان لكل رجل

دوره المحدد وقد روجع توزيع الرجال والسلاح والذخيرة بحرص بالغ . فبينما كان الخروبي منكباً على وضع التفاصيل ، راح معمر يضع الترتيبات النهائية لخطة عمليات الإستيلاء على أماكن أخرى في البلاد . وكان ينبغي وضع جميع قوات الأجنحة الثلاثة للقوات المسلحة الليبية في الحسبان ودراسة القوة الفعلية للقوات البرية والبحرية والجوية بعناية بحيث يمكن الإستفادة القصوى من العناصر المتعاطفة مع الثورة مع أخذ جانب الحيطة ومراقبة العناصر المعادية للثورة . وكان أقل خطر يمكن أن تواجهه الثورة هو السلاح الجوي الليبي نظراً لضآلة حجمه وعدم كفاءته إذ كان دوره الرئيسي هو القيام بدوريات على طول المنطقة الساحلية للبلاد المطلة على البحر المتوسط . كانت الحركة ترى أن القوات الجوية عديمة الفعالية وأن دورها بالنسبة لإمكانية صد الهجوم كان هامشياً حتى إنه قد تم تجاهله تماماً في الخطة. وكذلك كان الحال بالنسبة لسلاح البحرية الذي لم يكن يشكل أي تهديد يستحق الذكر على نجاح الثورة فقد تم إسقاطه من حسابات الخطة .

أما القوات البرية ، فقد كان الأمر بالنسبة لها مختلفا ، فقد كان معسكر درنة على سبيل المثال ، القريب من الحدود المصرية ، معسكراً مهما إذ كان لا بد من الإستيلاء عليه أثناء عملية الإستيلاء على معسكر قاريونس. ومن هذا المعسكر كانت ستنطلق مجموعة الضباط الأحرار والجنود نحو حامية صغيرة في البيضاء ، المدينة الإدارية للبلاد ، والسيطرة عليها . كما تم التخطيط لإلقاء القبض على الشخصيات المهمة جداً والتي كانت تقطن هذه المدينة إلى جانب بعض الوزراء . ورأوا عدم إغفال المسائل البسيطة مثل حواجز الطرق حيث خطط لها بحذر ودقة بهدف ضمان أقصى قدر ممكن من النجاح . كما كان من الضرورة بمكان العمل على قطع سبل الإتصال بين مثل هذه الأماكن ، كدرنة وبنغازي والبيضاء وبين بقية أرجاء البلاد سواء كان ذلك الاتصال عن طريق المواصلات الأرضية أم الهاتفية بهدف سد الطريق أمام القوى المضادة للثورة ومحاصرتها .

وكانت منطقة الأبيار التي اكتسبت شهرة عالمية خلال الحرب العالمية الثانية تحتوي على مخازن الأسلحة وكميات ضخمة من العتاد . وقد تم التخطيط للسيطرة عليها ووضعها تحت سيطرة ضباط الحركة . وكان هناك أيضاً مطار بنينة الذي كان مقرراً أن تتم السيطرة عليه من قوى الثورة لتقوم بإغلاقه في وجه حركة

الملاحة الجوية بين المدن الرئيسية في البلاد . كانت هذه من بين المهام التي بينها معمر بالتفصيل وأوكلها إلى الوحدة الثالثة .

وكان على الوحدة الرابعة أن تقود الهجوم على مدينة البيضاء . ومن بين واجباتها أيضا إلقاء القبض على رئيس الأركان . وقد تم التخطيط لوضع قوة شرطة الشغب العنيفة المشهورة بقسوتها وجبروتها تحت الرقابة المشددة ومحاولة تحييد قواتها . وقد تم تدريب هذه القوات على يد القوات البريطانية وكان معمر يدرك خطورة عملياتها .

كان أكثر ما يؤرق معمرا على الدوام هو احتمال التدخل الخارجي من قبل القوات الأجنبية المرابطة في البلاد . والآن وبعد أن أصبحت لحظات الحقيقة تقترب بسرعة مذهلة فقد كان لا مناص من وضع هذا الاحتمال في الحسبان . أما بالنسبة لقاعدة « هويلس » العسكرية في طرابلس ، فقد تم التخطيط لوضعها تحت مرمى الدبابات ومدافع الميدان خلال عمليات الاستيلاء على المدينة . كما كانت مهمة الرقابة المستمرة على القاعدة ستناط بأكثر الضباط والجنود حنكة ودراية في طرابلس . وكان مقرراً عدم مهاجمة القاعدة إلا إذا بادر الأمريكيون بالعدوان . أما في حالة وقوع تدخل عسكري أمريكي لا بد من المقاومة المستميتة لصده ولا بد من مواجهة القوة بالقوة . وقد تم اتخاذ نفس الإجراء بالنسبة للقاعدة العسكرية البريطانية الموجودة في طبرق في الأجزاء الشرقية من البلاد . واتخذت الترتيبات اللازمة لاحتواء أي تدخل عسكري مسلح من جانب بريطانيا حتى لو وصل الأمر إلى درجة الصدام المسلح .

ومع مرور الوقت في تلك الليلة الحاسمة كانت تضاف في كل لحظة اللمسات الأخيرة إلى خطة الثورة .

٢٣ ـــ نقطة اللا عــودة

بنغازي ـــ ٣٠ أغسطس ١٩٦٩

بدت صورة الطائرة القادمة من بيروت في رحلتها رقم ك ب ١٤١ تختفي ثم لا تلبث أن تظهر على شاشة الرادار الموجودة داخل برج المراقبة بمطار بنينه . وكلما اقتربت الطائرة من نهاية رحلتها بدأ بصيص الضوء يزداد حدة وتوهجاً على الشاشة ثم لا تلبث أن تختفي وتظهر مرة أخرى كلما واصلت عمليات الهبوط التدريجي . وفي داخل البرج ، قام ضابط المراقبة الجوية باعطاء إشارة الهبوط لطائرة الكرافيل الفرنسية الصنع التي بدأت تدنو شيئاً فشيئاً حتى لامست عجلاتها أرض المدرج في رفق وسلام ثم توقفت نهائياً على مسافة قريبة من مبنى المطار لتتزود بالوقود وتأخذ حمولتها من بنغازي قبل الإقلاع إلى أخر محطة لها في طرابلس .

أخذ المحيشي ، الذي كان يرتدي بدلة زرقاء اللون ونظارات شمسية ويحمل بيده حقيبة أمتعة يدوية يتساءل عن سبب هذا الصخب داخل صالة المسافرين عندما كان ينتظر دوره أمام المكان المخصص للتفتيش . ولما جاء دوره أبرز تذكرته فأخبره الموظف بأدب بأن سفره متعذر لأن جميع المقاعد محجوزة وأنه لا يستطيع إلا أن يضع اسمه على قائمة الإنتظار .

فرح المحيشي عند سماعه هذا الرد وذهب بعيداً عن مكان التفتيش لأنه لم يكن يرغب في الحقيقة في السفر إلى طرابلس . لقد حاول جاهداً التملص من السفر في تلك الليلة بحجة عدم وجود الأموال الكافية لديه لتغطية مصاريف الرحلة . وبعد أن أعطوه ثلاثين ديناراً كمصاريف للرحلة ذهب على مضض عله يجد عذراً آخر يعفيه من السفر إلى طرابلس . وكمحاولة أخيرة يائسة طلب المحيشي مقابلة معمر ولكنه سرعان ما أدرك أن معمر سيلاحظ بلا شك بمجرد رؤيته تردده وربما يشك عندها في حسن نواياه .

لم يكن أمامه خيار آخر . فقد تم تحديد «ساعة الصفر» لقيام الثورة في فجر اليوم التالي ولم يبقَ على عملية «القدس» سوى ثمانٍ وأربعين ساعة في حين أنه كان يحمل الرسالة التي كانت ستحرك عجلة الثورة في طرابلس . نظر المحيشي إلى الساعة في معصمه فإذا هي تقترب من الخامسة والنصف مساء وكان موعد إقلاع الطائرة الساعة السادسة وليس ثمة ما يدل على أنها قد تتأخر . كما لو كان تمديد الوقت سيساعده على أن يكيف نفسه مع الموقف والتوصل إلى إتفاق مع ضميره المتقلب . كانت الترتيبات النهائية قد وضعت لشن هجوم مزدوج في كل من طرابلس وبنغازي كما أعدت الخطط للاستيلاء على المباني الحكومية ومواقع الجيش المهمة في أماكن أخرى مثل درنة ومدينة البيضاء الإدارية وسبها التي تقع في وسط البلاد . لقد أعطي الضوء الأخضر لقيام الثورة وسيتحقق الحلم الأخضر الذي طالما راودهم في غضون ساعات قليلة . وبالرغم من قلة حيلته وافتقاره إلى المحافظة على وعوده والتزاماته . فقد كان المحيشي يدرك بأن الضرورة تقتضي ذهابه إلى طرابلس والالتحاق بوحدته في ترهونة . وكان معمر يدرك تردد المحيشي حيال هذا الالتحاق، فبعد استلامه النقود كان قد أبدى امتعاضاً واضحاً من السفر وطلب مقابلة معمر شخصياً ليتلقى تعليمات مكتوبة منه . حول تاريخ وموعد الثورة ، وحول تكليفه بالإنضمام إلى الوحدات في ترهونة .

وأخبره معمر حينذاك بأنه سوف يتلقى تعليماته من الخويلدي الحميدي في طرابلس . والشاهد أن المحيشي لم يلتحق أبدا بالوحدات في ترهونة بل اختفى خارج المعسكر ولم يقدم نفسه للحميديَ إلا بعد بدء عمليات الاستيلاء ، فأمره الحميدي باللحاق بالمجموعة المكلفة باعتقال الشلحي . وعندها اكتشف بأنه لم يكن يحمل سلاحه . فذكر أنه نسي مسدسه في سيارة الأجرة التي استقلها من المطار . وبالفعل جاء سائق التاكسي في اليوم التالي للثورة وسلم المسدس في معسكر باب العزيزية .

* * * * *

إذن فلم يكن للمحيشي خيار . اتجه صوب مكتب شركة الخطوط الملكية الليبية بمبنى المطار ليستفسر عن شخص يعرفه . وبعد أن وجد ضالته المنشودة هناك شرح له المشكلة التي واجهته وأبلغه بأنه في مهمة عاجلة إلى طرابلس وأن

عليه السفر على آخر رحلة تسافر الليلة إلى طرابلس . لم يكشف المحيشي الهدف من رحلته لصديقه وبدأت الثواني طويلة حين أخذ الرجل يراجع قائمة الركاب وإذا به يمسك بسماعة الهاتف ويجري تعديلاً طفيفاً على قائمة المسافرين ويبلغ المحيشي بالتوجه إلى بوابة المغادرين ليتخذ مكانه على متن الطائرة .

استطاع المحيشي أن يحصل على مقعد بجوار النافذة وجلس مسترخياً على مقعده المريح كما لو أن عبئاً ثقيلاً قد انزاح فجأة من على كاهله ، بينما راحت قطرات العرق تجف من فوق جبينه وهو ينظر من نافذة الطائرة البيضاوية الشكل ، بدأت الطائرة تسير على أرضية المطار لتأخذ مكانها في بداية المدرج انتظاراً لتعليمات برج المراقبة لها بالإقلاع . كان أزيز المحركين النفاثين قد زاد بشكل ينبيء بقرب موعد الإقلاع ، وما هي إلا لحظات حتى انطلقت بسرعة فائقة بدأت بعدها في الصعود التدريجي باتجاه أجواء بنغازي التي سرعان ما توارت عن ناظريه أمام سرعة الطائرة . تنفس المحيشي الصعداء بعد لحظات التوتر التي عاشها قبل أن تنطلق الطائرة في رحلتها القصيرة إلى طرابلس .

وبعد خمسين دقيقة بدأت الطائرة في الهبوط حتى راح المحيشي يتساءل عما إذا كانت هذه هي آخر رحلة تقوم بها شركة الخطوط الملكية الليبية من بنغازي إلى طرابلس ؟ كان يعلم أن كل شيء إنما يتوقف على تطور الأحداث خلال الساعات القليلة المقبلة فلم يبق على «ساعة الصفر» إلا بضع ساعات عندما كانت الساعة تشير إلى تمام الثامنة . ولما لم يكن يحمل أمتعة شخصية فقد كان همه الوحيد هو الإتصال إما بجلود أو الهوني وتسليمها الرسالة من معمر لينتهي دوره عند هذا الحد . وما أن وصل حتى اتصل هاتفياً بجلود فأخبروه بأنه يقود قواته في مناورة عسكرية خارج طرابلس . ولا شك في أن هذا الخبر سيفرح معمرا لأن هذا يعني أن قوات جلود هي الآن تحت قيادته الفعلية خارج المعسكرات . وبعد ذلك قام المحيشي بالإتصال بخليفة سالم ، وهو جندي ملحق ، وطلب منه الإتصال بجلود والهوني وإبلاغهما بالتقدم إلى ثكنات ترهونة التي تبعد بضعة كيلومترات عن طرابلس خلف منطقة بن غشير . عندئذ استقل المحيشي سيارة أجرة من مطار طرابلس إلى ترهونة التي توقع أن يصلها بعد منتصف الليل بقليل .

في تلك الأثناء ، كانت الاستعدادات النهائية لقيام الثورة تسير على قدم وساق منذ فترة في طرابلس فكان معمر قد سافر إلى طرابلس في اليوم السابق

وأبلغ جلود والهوني أن يوم الإثنين المقبل الموافق للفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ قد تحدد موعداً للثورة . وقد تم في ذلك اليوم مناقشة عدة مسائل من بينها حصر الأماكن التي يجب الاستيلاء عليها في طرابلس وفي مقدمتها مبنى الإذاعة .

كما تقرر إلقاء القبض على ولي العهد الذي كان يسكن آنذاك بقصره الفاخر على طريق السواني . وقد وضعت الخطط التفصيلية لتعبئة آليات الجيش والعربات المصفحة وحصر كمية الذخيرة والأسلحة حيث تم إحضار المعدات من ثكنات الهضبة الخضراء الواقعة على بعد سبعة كيلومترات من طرابلس وأخفيت في ترهونة استعداداً ليوم الثورة .

وعندما غادر معمر طرابلس إلى معسكر قار يونس في بنغازي بدأت الامور تسير بسرعة غير معهودة فقد تمت دراسة المنطقة التي يقطن بها ولي العهد ووضعت الترتيبات اللازمة للاستيلاء على مقره وإلقاء القبض عليه . وفي نفس ذلك اليوم عقد اجتماع نهائي بمنزل خلوي في بني وليد لوضع التفاصيل الختامية لعملية طرابلس . وكان الوقت المحدد للاجتماع هو الساعة السادسة مساء وهو نفس الوقت الذي أقلع فيه المحيشي من مطار بنينة للقيام بمهمته .

تواصل الإجتماع حتى ساعة متأخرة من الليل ، وبعدها شرع الهوني مع بعض الضباط الآخرين في إعداد وجبة طعام على عجل بينما بدأ جهاز التسجيل يردد أحد الأناشيد الثورية الحماسية . وقد تركز الحديث في وضع قاعدة هويلس الأمريكية عندما نهض أحد الضباط الشبان بتوجيه السؤال التالي إلى الحميدي : «إن لي رجاء واحداً لأتقدم به وهو تقديم موعد الثورة وأن تتحرك في أقرب وقت ممكن» . وجاء رد الهوني مذهلاً ليس فقط بالنسبة لهذا الضابط الشاب بل لمعظم الحاضرين عندما قال له :

«سأخبركم به الآن . . . . ستقوم الثورة في هذا اليوم الإثنين .

٢٤ ـــ ساعة الصفـر

قار يونس ـــ ٣١ أغسطس ١٩٦٩

سجى الليـل وأرخـى سدوله على معسكر قار يونس ، ودلف معمر إلى غرفته الصغيرة التي اتخذها مسكناً في الفترة الأخيرة . فخلع بدلته العسكرية واستبدلها بملابس مدنية فالآن ، وقد دنت ساعة الصفر ، لم يكن يريد الظهور بالمظهر العسكري الرسمي . وهكذا خلع ربطة العنق ، والقبعة العسكرية وارتدى ملابس عادية لكي لا يضفي مسحة من الكبرياء العسكرية في هذه المرحلة الحرجة من مراحل الثورة .

كان التوتر قد بلغ أعلى درجاته ولاحظ معمر ذلك في وجه المقريف والآخرين . غير أن هذا التوتر بدأ يزول تدريجياً كلما دخل الليل ، وبدا الحماس يسري بين الرفاق وبخاصة الخروبي الذي ظل متماسكاً . يتحرك بحماس . غير هياب من اقتراب ساعة الصفر . كانوا قد تناولوا وجبة الغذاء في وقت متأخر من ظهر ذلك اليوم . وأخذوا بعد ذلك يتفكرون في المهام الشاقة التي تنتظرهم في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي .

* * * * *

وأخرج معمر من أحد أدراج مكتبه عدداً من الأوراق البيضاء وبدأ يحرر برقيات للأقسام والوحدات المختلفة التي يتولى قيادتها ضباط وحدويون أحرار ، محدداً مهام كل وحدة وقسم مسجلاً التعليمات التي يجب اتباعها عند بداية التحرك .

وكانت مهمة القوات في معسكر قار يونس الإستيلاء على المنشآت الحكومية والعسكرية في بنغازي ، تتحرك إحدى الوحدات لتستولي على المعسكر الصغير بينما

تقوم وحدة أخرى بالإستيلاء على مكتب البريد وتستولي الثالثة على محطة الإرسال الإذاعي .

وسجل معمر التعليمات للفصائل الأخرى بالتحرك والإستيلاء على معسكر البركة ومعسكر الفويهات . وكانت مهمة حاميات درنة الإستيلاء على محطة الإذاعة في البيضاء واعتقال كبار المسئولين في حكومة إدريس الذين كانوا يقيمون آنذاك في تلك المدينة التي تمثل العاصمة غير الرسمية للملك . وكلفت نفس الحامية أيضاً بالإحاطة بمنطقة قرنادة حيث كانت تعسكر القوة المتحركة .

وكانت الوحدات الموجودة في المرج مكلفة بالتحرك نحو البيضاء ومحاصرة القوة المتحركة ودعوتها إلى التسليم . ولتجنب أية صدامات سجل معمر أسماء عدد من الضباط التابعين للقوة المتحركة وأصدر تعليماته إلى قيادة وحدتي المرج والبيضاء للاجتماع بأولئك الضباط ومحاولة إقناعهم بالانضمام إلى صفوف الحركة . وقال في برقيته :—

«لا تكونوا قساة في التعامل معهم ، واذكروا إسمي لهم» .

وكانت مهمة وحدة الأبيار الإستيلاء على مطار بنينة ومخازن الذخيرة والإحاطة بالقوة المتحركة الأخرى في معسكر بنينة ، على أن تعزز هذه الوحدة بفصائل أخرى من بنغازي إذا استدعت الضرورة .

وكان على ضباط البردية الإنضمام إلى حامية درنة كما كان على ضباط الحركة الموجودين في مصراته الإلتحاق بالوحدات في الخُمس.

وكانت مهمة وحدات الخُمس هذه — والتي تضم المدفعية وفرقة المدرعات الإستيلاء علي معسكر تاجوراء والإحاطة بقاعدة هويلس الأمريكية ومراقبتها ، كما كان عليها أيضاً الإشتراك في عملية الاستيلاء على محطة الإذاعة في طرابلس .

وكانت مهمة فرقة المشاة ووحدات المدرعات في ترهونة الإستيلاء على مطار طرابلس ومخازن الذخيرة . كما كانت هذه الفرقة مكلفة أيضاً بإلقاء القبض على كبار العسكريين هناك وعلى ولي العهد وكبار رجالات الدولة .

وأوكلت مهمة الإستيلاء على رئاسة الأركان ووزارة الدفاع ومكتب البريد الرئيسي لوحدات معسكر باب العزيزية التي كلفت أيضاً بمحاصرة معسكر قرجي للقوات المتحركة .

وكان مخططاً أيضاً قفل كل الطرق المؤدية إلى القاعدة الأمريكية ومنع الدخول إليها إلا لمن كانوا أعضاء في الحركة من الطيارين الحربيين. وكان على الكتيبة السادسة المقيمة في الزاوية الإلتحاق بالوحدات في طرابلس. وكلف أبو بكر يونس بقيادة قوات الإحتياط التي تضم كل القوات المدرعة في طرابلس. وكان على هذه الوحدات أن تبقى في حالة تيقظ دائم وان تكون على أهبة الاستعداد للانتشار إذا دعا الحال.

* * * * *

ولم يعترض أحد من الجالسين في الغرفة معمرا وهو يحرر هذه البرقيات وكان الخروبي ينسخ معه بعضاً منها. وبعد ذلك بقليل انفلت معمر والمقريف وذهبا في رحلة سريعة إلى المرج والأبيار حيث اجتمعا بالضباط الأحرار المكلفين بقيادة الوحدات هناك.

عاد معمر في وقت متأخر من الليل وجلس يستمع لنشرة الأنباء الأخيرة غير أنه لم يستطع التركيز، فقد كان ذهنه مشغولاً بما كان وبما سوف يقع من أمور جسام.

وسكن برهة ليعيد شريط ذكرياته الطويل.... منذ مظاهرة سبها الأولى، والمظاهرات الأخرى التي نظمها هناك.... وتكوين الخلية الأولى. وتذكر الذين انضموا إلى الخلايا يخادعونه.... وهم في الحقيقة من رجال المخابرات. واستغرب معمر كثيرا. فلربما كان من بينهم حتى هذه اللحظة من وشى بهم وكشف أمرهم للمسئولين. والواقع أن ذلك الافتراض ليس ببعيد، فكم من مرة علمت السلطات بأمرهم؟ وكم من مرة فرضت عليه رقابة دقيقة مشددة؟

وهنا.... حاول معمر أن يتفكر ملياً وبهدوء في الطريقة التي ربما أدت بالسلطات إلى اكتشاف هذه الخطة الأخيرة.....

ربما كان هناك من بيننا جاسوس.... ولكنه من يكون؟.... إن هناك عدة احتمالات بل ربما يكون أحد أعضاء الحركة قد زلّ لسانه وتحدث عن أمر الثورة مع بعض أصدقائه من الضباط.... وقد يكون أحد طلاب الكلية

العسكرية المتحمسين ، وقد يكون مجنداً حديثاً ، أسرّ إلى أحد أقاربه ، فأعلم السلطات .

* * * * *

وعندما غلب معمراً التعب والإجهاد، طرد هذه الهواجس والأفكار. لقد أصبحت الثورة مصيراً محتوماً ، ولا مجال للتراجع عنها . وها قد انقضت ليلة اليوم الأخير من أغسطس وأفسحت المجال لليوم الأول من سبتمبر ١٩٦٩ — اليوم الذي أطاحت فيه الضربة القاضية بالنظام الملكي في ليبيا .

٢٥ ـــ عمليــة القــدس

بنغازي ــ الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩

في داخل مبنى الإذاعة بمدينة بنغازي ، التقط معمر القذافي مكبر الصوت وأخذ يدقق النظر في ورقة أمامه كان قد قام قبل دقائق معدودة بكتابة بعض العبارات عليها ليستهل بها إذاعة أخبار مهمة بالنسبة لليبيا والعالم بأسره وهي «أن ثورة بيضاء قد قامت وأطاحت بالملكية في البلاد وبحكومة الملك إدريس إلي غير رجعة» .

كانت عقارب الساعة تشير إلى تمام الساعة السادسة والثلث صباحاً عندما قام معمر بقراءة البيان الأول بنفسه ، إذ كان المذيع المناوب في إذاعة المملكة الليبية في صباح ذلك اليوم ترتعد فرائصه من شدة الخوف حتى بات لا يقوى على قراءة البيان .

لقد تم تنفيذ عملية القدس بنجاح تام ولم يعد ثمة داع لإخفاء كلمة السر بعد ذلك لمدة أطول تلك الكلمة التي اختارها معمر القذافي بنفسه رمزاً لساعة الصفر . ولم يكن اختيار هذه الكلمة مجرد عمل بلا مضمون أو اختياراً عشوائيا ، ولكنه كان يرمز إلى شيء عظيم وهام . لقد كشف ذلك بوضوح تام ومنذ الساعات الأولى لانبـلاج الثورة عن المشاعر الوطنية التي كان يكنها معمر القذافي والشبان الوحدويون الأحرار تجاه تحرير الأراضي العربية المحتلة وتصميمهم الأكيد على تحقيق الوحدة العربية الشاملة . فلم يكن هناك اسم أفضل لإطلاقه على هذه العملية من إسم القدس تلك المدينة المقدسة التي اغتصبها الصهاينة مع بقية الأراضي العربية المحتلة .

توقف معمر ، الذي ظل يمسك بكلتا يديه بمكبر الصوت بضع دقائق بلا حراك وهو يسترجع أحداث الساعات العصيبة في صبيحة ذلك اليوم والتي أسفرت عن الإستيلاء على البلاد بعد سنوات مضنية من البحث والإعداد

والتخطيط التي شارك فيها بكل وجدانه وأحاسيسه منذ أيام دراسته المبكرة في سرت وسبها ومصراته .

كانت السماء صافية ومرصعة بالنجوم في تلك الليلة من يوم الفاتح من سبتمبر وأخذ معمر يستعيد ذكريات الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم حينما جلس مع ستة من الضباط الشبان على بطانية واحدة في الساحة الرحيبة بمعسكر قار يونس بعد أن عاد لتوه من بنغازي في أعقاب زيارة قصيرة إلى بعض أقاربه الذين كانوا يسكنون وسط المدينة وكانت بوادر القلق مرتسمة على وجوه الشبان بصورة لا يستطيعون إخفاءها . كان معمر ينهض من مكانه بين الفينة والأخرى ليتحدث على انفراد مع أفراد هذه المجموعة الذين كانوا متوتري الأعصاب وربما خائفين من الاحتمالات الكثيرة التي كان يطرحها عليهم . لم يكن هؤلاء الضباط في يوم من الأيام جزءاً من الحركة وبالتالي فإن مجرد إدراكهم بأن ثورة ستقوم في البلاد في ذلك الزمان والمكان، كان كفيلاً بأن يصيبهم بالخوف الذي يبلغ درجة الذهول . ولما كان الوقت يمرّ بسرعة وساعة الصفر تقترب رويداً رويدا لم يعد في استطاعة معمر إضاعة المزيد من الوقت في محاولة إقناعهم إذ كان على الضباط الستة اتخاذ قرارهم دون تأخير . فطلب من المقريف توفير عربة لتقلهم إلى بيوتهم . وأدرك الضباط عندها أنه ليس بمقدورهم إغفال هذا الأمر الجسيم وأنه لا يسعهم الآن رفض الانضمام إليها لكي يصبحوا جزءاً من التغيير المحتوم ، فقرروا فجأة البقاء في المعسكر والإنضمام إلى صفوف الثورة .

في ذلك الوقت المتأخر من الليل ، كانت جميع الترتيبات قد وضعت ولم يكن أمام عجلة الثورة شيء يعيقها عن المضي قدماً في تحقيق أهدافها سوى إشارة الانطلاق . كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً عندما ظهرت عربة الشرطة العسكرية داخل معسكر قار يونس على نحو غير متوقع وغير مألوف . فلم يكن من العادة أن تخترق عربات الشرطة الثكنات العسكرية في الساعة الواحدة صباحاً إلا إذا كان هناك مبرر قوي يستدعي ذلك ، الأمر الذي أزعج معمرا وبقية ضباط الحركة . وكان سائق العربة معروفاً لديهم ولكن هذا ليس بكافٍ في حد ذاته لتهدئة مخاوفهم . وبعد أن تبودلت التحية مع السائق قام معمر والمقريف بسؤال السائق عن سبب هذه الزيارة المفاجئة بعد أن أعدوا أنفسهم لأي احتمال سيء ولكن سرعان ما زالت مخاوفهم عندما عرفوا السبب. كان ما حدث هو أن

أحد راكبي الدراجات الناريَّة العسكرية قد أصيب بحادث بالقرب من المعسكر وكان رجل الشرطة يبحث بسيارته عمن يسعف الجندي المصاب ويصلح دراجته . فجاء السائق يطلب عربة من المعسكر عن طريق الضابط المناوب . كان ضابط الوردية حديث التعيين بل كانت هذه هي المرة الأولى التي تسند فيها خدمات ليلية إلى محمد صادق الذي راح يستفسر باستغراب عن وجود المقريف في المعسكر . فقد كان يعرف أن المقريف متزوج وأنه ليس من عادة المتزوجين المبيت خارج منازلهم في المعسكرات ولكن المقريف سرعان ما اختلق عذراً مقنعاً قائلاً له : إن زوجته في زيارة لبعض الأقارب وبدلاً من البقاء بمفرده في المنزل فقد فضل أن يقضي الليلة بصحبة بعض الزملاء في المعسكر . ولكن يبدو أن ضابط الحراسة لم يقبل هذا العذر ، فمنظر المقريف وهو يرتدي ملابسه المدنية دفعه إلى عدم التصديق بل الشك في النوايا الحقيقية من وراء وجوده في المعسكر في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل . شك المقريف لبرهة فيما إذا كان الصادق يعرف أي شيء عن العملية التي تم الإعداد لقيامها تلك الليلة أو أنه يستفسر لإرضاء فضوله الشخصي أم أنها الحاسة السادسة التي أوحت له بأن يأخذ حذره. وكما بدأ الصادق استفساره فجأة وبصورة غير متوقعة فإنه وافق على تزويد رجل الشرطة العسكرية بما طلب من عربة ورجال وبذلك أسدل الستار على الحادثة وبعث الارتياح البالغ في نفس كل من معمر والمقريف .

لقد تم الاتفاق على كافة التجهيزات ولم يكن أمامهم لبدء الهجوم سوى الانتظار « لساعة الصفر » . وفي داخل الثكنات ، أخذ معمر والمقريف والخروبي يصلون ويدعون الله العلي القدير بأن يكلل العملية بالنجاح وأن ينصرهم وينصر جميع الأحرار وبقية أعضاء الحركة في المهمة الصعبة التي تنتظرهم .

أعطيت إشارة الهجوم في الساعة الثانية والنصف صباحاً عندما كان العديد من الضباط الجدد مستغرقين في النوم بمعسكر قار يونس ، وقد تم إيقاظهم وإبلاغهم بأن الثورة قد بدأت . كان جميعهم من الضباط الشبان الذين يلهبهم الحماس وتؤججهم الروح الثورية ، فوافقوا على الفور بالانضمام إلى صفوف الثوار ولم يترددوا لحظة في قبول المهام المسندة إليهم ، فألقي القبض على جميع كبار الضباط وأصحاب المراكز المرموقة داخل الثكنات ونقلت الذخيرة على عربات الشحن ووزع السلاح على الرجال وما هي إلا لحظات حتى تم تشكيل وتجهيز قوة

كبيرة متأهبة للزحف على بنغازي والإستيلاء على أهم المواقع العسكرية والمراكز الإدارية والحكومية بالمدينة . . . . وسارت الخطة كما كان منتظراً لها من حيث الفعالية ولم يعكر الصفو سوى ضابط برتبة نقيب شديد الغرور والاعتزاز بنفسه يدعى محمد جمعة الشيباني وكان قد حضر إلى قار يونس بعد أن بدأت الثورة وبدأ يلح في معرفة سبب عدم إبلاغه في الوقت المناسب بساعة الصفر أو حتى بيوم الثؤرة الذي لم يعلم به إلا في اللحظات الأخيرة . وبدا أنه لا نهاية لشكواه ومع ذلك لاحظه المقريف وخيره بين القيام بالمهمة المسندة إليه أو العودة إلى منزله ، فما كان منه إلا أن قبل الرجوع إلى البيت . وكان هذا الضابط نفسه قد أبلغ معمرا في وقت سابق أن المخابرات العسكرية تتعقبهم وأن رجال الشرطة يرابطون على الطريق المؤدي إلى قار يونس عندما كانت قد أسندت إليه مهمة توفير المواد الغذائية الضرورية وأحس معمر بأنه لم يكن ثمة مبرر لمخاوفه .

وفي الساعة الرابعةصباحاً كانت المراكز الهامة في بنغازي في قبضة الثوار بما في ذلك مبنى الإذاعة . كما كانوا قاب قوسين أو أدنى من الإستيلاء على بعض المنشآت العسكرية الحيوية . أما معمر نفسه فقد اتخذ مكانه في مبنى الإذاعة منذ فترة ولكن البيان الرسمي تأجل لعدم حضور أحد من الفنيين أو العاملين بالإذاعة وذلك رغم التعليمات الصريحة للحراس بالسماح لجميع العاملين بدخول الإذاعة حين أغلقت مداخل المدن وأقيمت المتاريس في جميع أنحاء المدينة .

كان برنامج موسيقي خفيف بعنوان صباح الخير يذاع عادة في الساعة السادسة ولكن لسبب لا يمكن تعليله لم يصل أي فرد من العاملين بالإذاعة في موعده بل وصلوا في ذلك اليوم بالذات بعد موعدهم بنصف ساعة على وجه التقريب . وبدا الانتظار داخل الإذاعة عبئاً ثقيلاً لا يحتمل بالنسبة لمعمر ولم يظهر أي فني إلا في الساعة السادسة والثلث ولكن ليس قبل أن تطلب محطة البيضاء بنغازي مستفسرة عن هذا التأخير غير المألوف . ولما تلقى الملازم عبد الفتاح يونس المكالمة أبلغ محطة البيضاء بتعليمات من معمر أن التأخير مرجعه عطل فني .

لم تنطو المكالمة الهاتفية على أي ضرر حقيقي على الثورة الوليدة بيد أنها كشفت لمعمر وغيره من الضباط الأحرّار في مبني إذاعة بنغازي أنه لم يتم الإستيلاء بعد على المدينة الإدارية ومع ذلك لم يكن بوسعهم القيام بأي شئ سوى الإنتظار ولما وصل الفني إلى غرفة الإرسال طلب منه معمر أن يبدأ برامج اليوم بتلاوة آيات من

القرآن الكريم أعقبها ضم إذاعتي بنغازي وطرابلس . ولم يكن ما هو أحلى وقعاً على أذني معمر من سماع الموسيقى العسكرية وهي تنساب من إذاعة طرابلس معلنة أن طرابلس بعكس البيضاء قد أصبحت في قبضة جلود والهوني وغيرهما من الضباط الأحرار وما أن انضمت الإذاعتان حتى دق جرس الهاتف قبل أن يفرغ معمر من كتابة البيان الأول بدقائق معدودة . وكان المتحدث هذه المرة مسئولاً كبيراً في وزارة الإعلام يستفسر عن سبب إذاعة الموسيقى العسكرية بدلاً من البرنامج الموسيقي الخفيف .

فرد عبد الفتاح يونس على المكالمة بعبارة بسيطة محددة تقول : «لقد سيطر الجيش على البلاد» .

أما معمر الذي بدت مجهودات تلك الليلة المضنية واضحة على وجهه ، فقد عاود النظر إلى الورقة التي أمامه وهو في حالة تأمل وتفكير. . . لقد تمت العملية في بنغازي بهدوء نسبي ولم يعترض سيرها غير جيب مقاومة وحيد تصدوا له في ثكنات الفويهات الصغيرة المحصنة حيث تحتم استخدام القوة لسحق الضباط الذين قادوا المقاومة ولم يتم الإستيلاء على هذه الثكنات إلا بمساعدة الضباط الوحدويين الأحرار في الثكنات ذاتها . كذلك سارت عمليات الاستيلاء في طرابلس دون مقاومة كبيرة . ومع أن الإشتباك خارج مبنى إذاعة طرابلس هدد في إحدى مراحله بصراع واسع النطاق فقد كان لعنصر المباغته فوائده الكبيرة ذلك أنه عندما قاد الحميدي الهجوم على مبنى الإذاعة ووصل بالقرب من المبنى عند المنتزه المنبسط الذي يحف بميناء طرابلس اعترضت سبيله قوات الشرطة المسلحة ولم يكن أمامه من سبيل لتجنب الإشتباك الذي سينجم عن هذا الاعتراض. بدا الموقف خطيراً في لحظته لقلة ما بحوزة الحميدي من رجال وسلاح بينما أخذت التعزيزات تتدفق على قوات الشرطة من مركز أبي ستة المجاور ، بل وأصبح الموقف ميئوساً منه ، ولم تكن هناك فرصة كبيرة للتخلص من هذه الورطة وتحويل الموقف لصالحه إذ كانت الرياح بعكس ما تشتهي السفن . ومع ذلك جاءت النجدة من الملازم الحاراتي الذي كان يقود عربة مصفحة ودار قتال قصير عنيف أسفر عن وقوع ضحايا ولكنه لم يكن هناك اختيار أو سبيل آخر للتغلب على تعزيزات الشرطة وإرغامها على التقهقر ، فعدم الاستيلاء على الإذاعة معناه فشل العمليات بوجه عام والإضرار بنجاح الثورة ذاتها .

كانت ساعة الصفر في طرابلس قد بدأت في الساعة الواحدة عندما فرض الحصار على جميع ضباط الجيش داخل ثكنات ترهونة وألقي القبض عليهم . ولم تمض ساعة من الوقت حتى كان الضباط الوحدويون الأحرار قد سيطروا تماماً على ذلك الموقع الهام على بعد بضعة كيلومترات جنوب طرابلس واستولوا على مخازن الذخيرة وسرعان ما جهزت الآليات المصفحة وزودت بالرجال والسلاح والذخيرة لتزحف على قلب المدينة . كان الحميدي قد تحرك مع عدد آخر من الضباط والجنود في عربتين منفصلتين لإلقاء القبض على ولي العهد قبل أن يشن الجيش هجماته على المنشآت الهامة ومراكز الاتصالات في طرابلس . إلا أن الحظ لم يحالفهما . فبينما كانا يقودان السيارتين فوق الطريق المتعرج بين ترهونة والمدينة ، اصطدمت السيارتان ببعضهما عند أحد المنحنيات الخطيرة مما أسفر عن كسر ساق كل من العريف صلاح موسى والملازم يوسف عبد السلام اللذين كانا بالعربة الأولى . ولما رأى الحميدي أنه لم يصب أحد في عربته ، قرر عدم الإنتظار ومضى في طريقه بعد أن رفض الجريحان الذهاب إلى المستشفى كيلا يفتضح أمر العملية بأسرها .

كان أبو بكر يونس آنذاك يقود مجموعة أخرى للهجوم على : مقر العقيد عبد العزيز الشلحي . كان الشلحي وشقيقه عمر ، الذي تزوج ابنة حسين مازق وهو رئيس وزراء سابق ، من أقوى الشخصيات في بلاط الملك إدريس وأصبح الأخوان بمثل النفوذ الذي عليه الملك نفسه فكانا يقدمان إليه المشورة ويضعان ثقتهما فيه كأب لهما. لقد نجحت أسرة الشلحي في عالم التآمر السياسي المعقد، وأقامت لها إمبراطورية داخل إمبراطورية الملك إدريس، وقليلون في طرابلس، بمن فيهم رؤساء الوزراء والوزراء ، الذين تجاسروا على هذه الأسرة ، كما أن قلة قليلة فقط كانت تشك في أن هذه الأسرة لن تحاول أن تمسك بزمام السلطة في البلاد بمجرد أن يزول الملك الشيخ .

وهوجم مقر العقيد الشلحي الفسيح بدقة متناهية في حين كان شقيقه في خارج البلاد ، وكان الهجوم مفاجئاً حتى إنهم وجدوا هذا الرجل الحذر يغط في نومه ، وبمجرد أن استيقظ أخذ في مقاومة من حاولوا القبض عليه . وفي محاولة يائسة لانقاذ نفسه قفز من نافذة الطابق الأرضي واختبأ خلف بعض الشجيرات . ولما كان منزله الذي يبعد عن طرابلس نحو كيلومتر تحيطه الأشجار والنباتات . ظن

الشلحي أن بوسعه الإفلات من قبضة الضباط الثوريين بالاختباء خلف هذه الأشجار في جنح الظلام .

إلا أن الشلحي لم يجد وسيلة للافلات وانطلقت الثورة في طريقها . وإن مرت بلحظات من القلق داخل مبنى إذاعة طرابلس التي تم الإستيلاء عليها قبل إذاعتي بنغازي والبيضاء .

لقد كان إنتظار البيان من بنغازي بالنسبة لجلود والهوني طويلاً لا نهاية له خاصة وأن الهوني كان قد وجه بمجرد أن أصبحت الإذاعة في قبضة الضباط الأحرار نداء إلى الشعب بأن بياناً هاماً سيذاع بعد قليل . وعندئذ بدأ الانتظار لنبأ من بنغازي ومرت لحظات من الترقب المشوب بالتوتر لبيان ينطلق عبر الأثير من المدينة الشقيقة الراقدة على ساحل البحر المتوسط ، وكان جلود والهوني يتساءلان عن سبب عدم الإتصال من بنغازي إذ كانا يدركان بأنهما لن يستطيعا التأكد من أن الثورة قد قامت بحق في ليبيا إلا عندما يعلن معمر عبر الأثير أنها قد وقعت .

* * * * * * *

أما عوض حمزة فكان بمفرده في سبها يعيش في عزلة موحشة لم يألفها إذ كان معظم الضباط الأحرار قد أوفدوا في دروات تدريبية إلى الخارج وكانت البقية الباقية في إجازة . وكان لإعلان قيام الثورة وقع الصاعقة على نفسه إلا أنه كان يدرك أن المرحلة تتطلب الإتزان وحسن التصرف ولم يكن أُمامه من خيار سوى الإستيلاء على الثكنات العسكرية في سبها فإذا به يأمر بالإستيلاء على المعسكر قبل أن يظهر بشير هوادي فجأة . لقد كان عوض حمزة يعلم أن بشير هوادي في إجازة لمدة خمسة أيام ينوي قضاءها مع أسرته في مصيف الودّان على مسافة عدة كيلومترات من سبها . لكن الذي لم يكن يعرفه عوض حمزة هو أن بشير هوادي فوجئ مثله بإعلان الثورة وبدلاً من العودة إلى قار يونس حيث كان موقعه وقتئذ والتي تستغرق الرحلة إليها قرابة الأربع والعشرين ساعة ، آثر الانطلاق نحو سبها ليقدم يد العون هناك .

وكان لوجود بشير هوادي أثره الطيب على نفس عوض حمزة الذي كان يشعر بأنه في مأزق بعد رحيل الضباط الوحدويين الأحرار من سبها . وقبل وصول

هوادي كان قد قيم الموقف بمفرده بدقة وهو يعلم أن أي خطأ من جانبه يمكن أن يضر بمفرده العملية الشاملة وقرر أن يزحف على بنغازي بمجرد الإستيلاء على المعسكر . وكان في وقت سابق قد التقط رسالة عن طريق المذياع حملته على الإعتقاد خطأ أن القتال مستمر وربما القتال العنيف يجري في درنة وأن تلك المنطقة هي التي تحتاج إلى العون أكثر من غيرها .

كانت قوة الشرطة في سبها قد أظهرت تعاطفاً مع الثورة وبدلاً من اعتراض سبيل عوض حمزة وبشير هوادي قامت بتقديم كل مساعدة ممكنة لهما .

لقد كان الزحف على بنغازي طويلاً وشاقاً لإنفصال سبها عن كل من طرابلس وبنغازي باستثناء طريق متعرج جديد يربط بينهما . وكان كل من حمزة وهوادي يدركان أنه لا يمكنهما بلوغ أي من المدينتين قبل اليوم التالي فضلاً عن وجود مشكلات أخرى تتطلب حلا ، فمعظم مركبات الجيش المتهالكة لم يكن من الممكن أن تتحمل الرحلة الطويلة الشاقة إذ كانت في حاجة ماسة إلى الإصلاح . ولم ينقذ هذا الموقف الميئوس سوى رجال الشرطة الذين عرضوا على الضابطين عرباتهم الخاصة لنقل وحداتهم المسلحة إلى جانب ألف جنيه قد يحتاجون إليها لشراء الطعام أثناء الرحلة .

لقد انضم رجال الشرطة في سبها إلى الثورة من أول لحظة بعكس ما حدث في طرابلس مما ساعد في القبض على نائب مدير المعسكر وغيره من كبار المسئولين في الثكنات ولم يكن ثمة مفر من القبض عليهم بسبب إصرارهم المستمر على التدخل واضطر بشير هوادي إلى التهديد بقتلهم رمياً بالرصاص إذا ما واصلوا التدخل في شئونهما . وكانت التعليمات الصريحة تقضي بعدم تلقي أية أوامر من أحد سوى الضابطين الوحدويين . وفي الوقت الذي استعدت فيه الوحدات المسلحة بقيادة عوض حمزة وبشير هوادي لمغادرة سبها ، كانت أنباء الثورة قد انتشرت في طول البلاد وعرضها وتدفقت الجماهير على مكتب البريد الصغير بحماس شديد لإرسال برقيات التهنئة والتأييد للضباط الوحدويين الأحرار الذين لم يكن أحد يعرف آنذاك هويتهم في إذاعة بنغازي التي انطلقت منها البيانات . إلا أن مسئول مكتب البريد في المدينة أبدى تشدداً ورفض صراحة أن يفتح المكتب حتى أمره بشير هوادي بذلك وإبراق ما يريد الناس إرساله من برقيات دون رسوم .

مشكلة هينة ولكن حلها يتطلب تدخل بشير هوادي الذي كان مع عوض

حمزة منشغلين بالمكان الذي يتعين الزحف عليه ، سواء كان بنغازي أو طرابلس ، ولم يكن من سبيل لمعرفة المكان الذي يحتاج إلى مساعدتهما أكثر من غيره .

بدأت القافلة تتحرك من سبها وسط هتافات الجماهير الغفيرة التي احتشدت على امتداد شوارع المدينة لتحيي القوات التي أمسكت بزمام الحكم في البلاد وأطاحت بالملك إدريس كما استقبلت الجماهير بنفس الحماس والترحيب القوات عندما زحفت من هون إلى ودان ثم بو قرين واجدابيا الواقعة عند منتصف الطريق بين طرابلس وبنغازي . وكما لو أن قيادة الثورة قد تنبهت لخطورة الموقف الذي هم فيه جاء البيان عبر الأثير ليحدد مسيرتهم ويحملهم على الانطلاق نحو بنغازي للانضمام إلى القوات الثورية هناك . لقد سمعت مئات الآلاف من أبناء الشعب الليبي في جميع أنحاء البلاد هذا البيان بيد أنه لم يكن هناك كلمات أحلى وقعاً من تلك التي تلقفتها أذنا عوض حمزة وبشير هوادي المشدودتان في لحظة لم يكونا يدريان فيها ماذا يفعلان .

أخيراً ترك معمر مكبر الصوت . لقد أعلنت الثورة وأصبحت أمامه مهمة شاقة طويلة تتمثل في إرساء قواعد حكومة الثورة والبدء في الإصلاحات العديدة التي تحتاج إليها البلاد وراح معمر. وهو يحس بضخامة المسئوليات الملقاة على عاتقه يطوف مبنى الإذاعة ببنغازي الذي أصبح مقراً لقيادة الثورة لبضعة أيام . وكانت الإذاعة وسيلة الاتصال الرئيسية بينه وبين الضباط الوحدويين الأحرار المنتشرين في ربوع البلاد والذين يسيطرون على ما استولوا عليه من مواقع استراتيجية ومنشآت حكومية . فمن مبنى الإذاعة كانت تصدر التعليمات والأوامر إما عبر الإذاعة أو عن طريق الإتصال اللاسلكي ، حسبما تقتضي الظروف .

وهنا حاول معمر أن يسترجع الأحداث التي أفضت إلى ذلك اليوم المشهود ويستعيد التخطيط والاستعداد المضني الذي دام سنوات ويسترجع عملية القدس ذاتها التي رسمت ونفذت بنجاح . وحان الوقت لكي يبدأ معمر في تقييم الموقف الراهن وباتت أمامه تلك المهمة التي قطع على نفسه عهداً بها منذ نعومة أظافره وهي إصلاح البلاد وإنقاذها من التردي الاجتماعي والسياسي .

كانت المهمة ضخمة وجسيمة . . . وكان معمر يدرك ذلك تماماً ، ويدرك أن الثورة الليبية الحقيقية قد بدأت في تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ البلاد .

٢٦ ــ ردود الفعـل

الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ ومسيرته

أصيب الشعب الليبي وبقية شعوب العالم بالذهول عند سماعهم أخبار قيام الثورة في ليبيا التي وقعت في سرعة وقوة متناهية كالبرق . فبالرغم من مرور بضع ساعات على قراءة معمر القذافي للبيان عبر محطة الإذاعة ببنغازي ، إلا ان الكثيرين ما زالوا لا يعلمون أن الملكية قد أطيح بها وأن حركة الضباط الوحدويين الأحرار قد استولت على البلاد .

في تلك الساعة المبكرة من صباح ذلك اليوم بدأت الحركة تدب في هذه المدينة التي كانت تستعد كعادتها لاستقبال يوم جديد من النشاط الإداري والسياسي . وما أن غادر الفوج الأول من الناس منازلهم لبدء ماكانوا يعتقدون أنه يوم آخر عادي من أيام العمل ، حتى اشتموا رائحة التغيير . كان أعضاء الجيش الثوري الذين يحملون أسلحتهم التي أعطيت إليهم من حركة الضباط الوحدويين الأحرار ، يجوبون الشوارع في دوريات منتظمة ويحرسون المنشآت العسكرية المهمة ومحطة الإذاعة المرئية والمسموعة والإدارات والمصالح الحكومية . وشيئاً فشيئا بدت الغيوم القليلة تنقشع عن صفحة السماء وراحت بشائر خيوط أشعة شمس ذلك اليوم تتسلل لتبث الدفء في يوم مبارك من أيام الحرية وسرعان ما تناقلت الألسن أخبار الإطاحة بالملكية لتعلن عن نهاية عهد قديم وانبلاج عهد جديد .

تعددت اجتماعات الأسر الليبية والأقارب لمناقشة الموقف الراهن أو لتوقع ما سيحدث أو ربما لمجرد الكلام وهي تنتظر تطورات الموقف في ذلك اليوم . وفي الأماكن الأخرى الموجودة على امتداد البلاد الشاسعة المترامية الأطراف ، لم يكن الموقف في بنغازي مختلفاً عما يجري في طرابلس فقد سيطر الجيش الشعبي سيطرة تامة على المدينة بشطريها اللذين يتوسطهما الميناء ، وبقيت المتاريس تسد الطرقات

بينما كانت القوى الثورية تواصل زحفها للاستيلاء على بقية المواقع الاستراتيجية في البلاد .

وداخل خيمته الصحراوية في الركن الغربي لخليج سرت أخذ أبو منيار كبقية رجال البادية يحتسي قدحاً صغيراً من الشاي في صبيحة ذلك اليوم وهو يتنفس بعمق هواء الصحراء الدافئ بينما كانت الشمس ترسل أشعتها الدافئة فوق صفحة الرمال الذهبية وبعد أن تناول قدح الشاي الساخن ، نهض أبو منيار وزوجته عائشة وذهبا إلى باب الخيمة ليراقبا بهدوء الصحراء المألوف قطيع الماعز القليل العدد الذي كان يتجول أمام ناظريهما في تململ واضطراب .

وأسفل شجيرة أرجوانية اللون وقفت ثلاثة كلاب بلا حراك تراقب القطيع وهو يمشي بسرعة وسط الكثبان القاحلة بحثاً عن الأعشاب القليلة التي تنمو بالمكان . وسبتمبر هو شهر التجوال والسعي وراء الماء والكلأ في الأطراف الشمالية للصحراء . أدرك أبو منيار — شأنه شأن كل أهل البادية ورجال الصحراء أنه لن يمضي وقت طويل حتى يشد الرحال متنقلاً من مكان إلى آخر مقتفياً آثار المطر وعلاماته — التي هو بها خبير .

وبعد أن تناول إفطاره المعتاد المكون من قدح الشاي الأخضر الساخن وقطعة من الخبز الأسمر ، أعد أبو منيار نفسه لعناء يوم طويل . . . يوم كبقية الأيام الكثيرة الأخرى المضنية في حياته . كان أبو منيار ينوي كسر الرتابة المملة في حياته لمدة أربع وعشرين ساعة في يوم الفاتح من سبتمبر وذلك بالسفر إلى سوق مصراته الذي يبعد حوالي المائتي كيلومتر عن المكان ليصطحب معه صغرى إناث القطيع لمقايضتها بالثياب التي كان بحاجة إليها لنفسه ولبقية أفراد أسرته أو ربما يستطيع بيعها وقبض ثمنها إذا كان السوق جيداً في ذلك اليوم . كان أبو منيار لا يمتلك من متاع الدنيا سوى بضعة دنانير يحتفظ بها لسنين القحط والجدب ليتمكن من شراء قوته وقوت أسرته بهذا المبلغ البسيط . كان أبو منيار منقطعاً تماماً أو يكاد عن العالم الخارجي مقيماً في خيمته المصنوعة من وبر الجمال . وكانت وسيلة اتصاله الوحيدة بحواضر ليبيا السياسية والإدارية مثل طرابلس وبنغازي والبيضاء مذياعاً صغيراً . كان هذا المذياع بالنسبة له كنزاً لا يقدر بثمن ، فقد جعله يشعر بأنه ينتمي إلى بلد لم يكن يعرف الكثير عنه قبل امتلاكه .

كان أبو منيار يحمل مذياعه معه أينما ذهب ولم يعد يستطع مفارقته لهذه

الأسباب ولأنه كان أيضاً هدية من ابنه معمر الذي كان يزوره كلما سنحت له الفرصة . ويقدم له بعض الهدايا القيمة . ربما كان الحدس هو الذي دفع هذا البدوي لإدارة مفتاح المذياع . لقد كانت أنغام النشيد العسكري التي كانت تسمع عبر الأثير غير مألوفة لديه بالرغم من أنها كانت توحي إليه بأن أمراً ما قد وقع .

وما هي إلا لحظات حتى انطلق صوت عبر الأثير ، ليس بغريب على مسامعه ، وهو يقول : « لقد أطاحت قواتكم المسلحة بالنظام الرجعي المتخلف المتعفن » . . . « فبضربة واحدة قام جيشكم البطل بتحطيم الأصنام في لحظات جليلة من لحظات القدر . . . ومنذ الآن ستصبح ليبيا دولة حرة ذات سيادة وجمهورية باسم الجمهورية العربية الليبية . . . فلا مقهور ولا مغبون ولا سيد ولا مسود بعد اليوم بل إخوة أحرار في مجتمع ترفرف من فوقه بمشيئة الله راية الأخوة والمساواة . . . . »

« وهكذا سنبني مجداً ونحيي تراث الآباء والأجداد ونثأر لكرامتنا الجريحة . . . يا أبناء البادية ، يا أبناء الصحراء ، يا أبناء المدن القديمة يا أبناء الفلاحين يا أبناء القرى » .

لقد سمعت مئات الألاف من الليبيين المنتشرين في كافة أرجاء البلاد البيان الأول للثورة الذي أعلن عن قيام الجمهورية في ليبيا ، بعد سنوات طويلة من الحكم الاستعماري البغيض . في طرابلس قوبل البيان بفرحة عارمة من قبل قاطني الأكواخ التي انتشرت كنبات الفطر بضواحي المدينة في أعقاب اكتشاف النفط في البلاد في أواخر الخمسينات . لقد أحس سكان هذه « البراكيات » الذين كانوا يحيون حياة الذل والمهانة ، بالتغيير قبل غيرهم واندفعوا كالسيل الجارف في شوارع المدينة وطرقاتها للتعبير عن فرحتهم فوجدوا إخوتهم القوى الثورية أمامهم يستقبلونهم بحب وفرح . وعند الظهر خرجت الجموع الغفيرة في مظاهرة صاخبة تأييداً للثورة التي لم تحظ بالتأييد الشعبي في طرابلس فحسب ، بل في كل مكان فوق هذه الأرض الشاسعة المترامية .

استمرت المظاهرات بعد ظهر ذلك اليوم وتحولت شوارع طرابلس الهادئة إلى بحر مائج بالكتل البشرية المتراصة .

بقي عبد السلام جلود وبقية الضباط الوحدويين الأحرار في داخل معسكر العزيزية على اتصال مستمر مع معمر في بنغازي ، وأقفلت المطارات في البلاد

أمام الرحلات الداخلية والعالمية على حد سواء ، وانقطعت سبل الاتصال بالعالم الخارجي وكان لا بد من أن يقوم الجيش الثوري بإبقاء البلاد منعزلة عن العالم الخارجي إلى أن يتم الإستيلاء الكامل على جميع المواقع الحساسة وحتى تنجلي ردود الفعل .

ولكن الإشاعات والأقاويل بدأت تنتشر بسرعة على الصعيد الخارجي ووصلت إلى حد لم يسبق له مثيل . ففي وقت متأخر من ذلك اليوم قام ولي العهد بالتخلي عن سلطته ، ولكنْ الملك إدريس الذي كان وقتئذ في إجازة في انقره ، لم يستسلم بعد ، على أمل أن يهب سادته البريطانيون الذين نصبوه على البلاد لمساعدته وانقاذ عرشه المتداعي . فأرسل طلباً رسمياً إلى حكومة لندن لتأييده. كما كان العاهل المسن يعتقد ان رجال القبائل الذين يكنون ولاءً تقليدياً للعائلة السنوسية سيهبون لنجدته . ولكن الشيء الذي لم يستطع هذا العاهل الهرم فهمه وإدراكه هو أنه نظراً لعدم معرفة القادة الجدد وأيضاً عدم إمكانية معرفة مدى التأييد الشعبي للحكم الثوري الجديد في هذه المرحلة المبكرة من مراحله . فإن حكومة بريطانيا ستكون غير متحمسة لمقاومة الثورة ، مخيبة بذلك آمال إدريس .

كانت معاهدة الدفاع المشترك الموقعة بين بريطانيا وليبيا عام **١٩٥٣** تقضي بتدخل بريطانيا في الشئون الداخلية لليبيا في حالة وقوع عدوان خارجي على البلاد ، وبطبيعة الحال ، فقد كانت بريطانيا تتجاهل هذه المعاهدة تماماً في الماضي ، فعلى سبيل المثال قامت المظاهرات في ليبيا عام **١٩٦٧** تأييداً للشعب المصري واستنكاراً لاعتداء إسرائيل على مصر وسوريا فانزعجت الحكومة البريطانية وزجرت الحكومة الليبية وأبلغتها بأنه إذا فشلت في إخماد المظاهرات فإن القوات البريطانية ستقوم بإخمادها بنفسها .

ولكن ما أن انقضى اليوم الأول للثورة ودخلت يومها الثاني حتى أعلن هارولد ويلسون ، رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت ، عن عدم استعداد حكومته قبول المجازفة وتشويه سمعتها السياسية وقرر التخلي عن الملك المسن ، ربما إلى حين .

في داخل الثكنات العسكرية بمدينة بنغازي وجد معمر نفسه في حالة صفاء ذهني تام بعد أن زال عناء الأيام الأولى غير المستقرة وأصبح من حقه الآن أن يعتقد أن القوى الثورية تسيطر تماماً على جميع أنحاء البلاد ، فلم يكن هنالك

أدنى شك في ثقة الشعب المطلقة وتأييده التام . وكان هذا بالنسبة لمعمر أكبر عون كان قد تمناه طيلة حياته . في اليوم السابق وصل معمر بطريق الجو إلى طرابلس لإجراء مباحثاته الأولى مع عبد السلام جلود بعد الثورة وهو يتقد حماساً وفخراً بفضل النتائج الإيجابية للثورة . كان قد تم إلقاء القبض على العقيد عبد العزيز الشلحي ، شقيق عمر الشلحي ، الخليفة المرتقب للملك إدريس مع مجموعة من الشخصيات السياسية والعسكرية البارزة في انتظار تقديمهم إلى محكمة الشعب . ولسوء الحظ ، فقد كان عمر الشلحي موجوداً في ذلك الوقت خارج البلاد .

إلا أن معمرا كان يعرف أنه لم يكن في إمكانه عمل شيء آخر حيال الموقف . كان معمر وحيداً في غرفته عندما ضغط على زر موجود على مكتبه وما هي إلا لحظات حتى سمع وقع أقدام تقترب منه فنهض من مكانه ليفتح الباب للطارق ويطلب منه إحضار طعام لأربعة أشخاص قبل أن يعود إلى مكانه مرة اخرى . وعندما عاود الطارق دق باب الغرفة من جديد قابله معمر عند الباب دون أن يمكنه من رؤية ما بداخل الغرفة وحمل الطعام إلى الداخل بنفسه . أكل معمر كمية قليلة من كل طبق حتى شبع فلم يكن بالمكان غيره ولكنه كان يريد أن يعطي انطباعاً للآخرين بأن أكثر من شخص واحد يقوم بتنسيق العمليات من بنغازي بعد أن تم توزيع الضباط الوحدويين الأحرار على مدن وأماكن أخرى في أنحاء متفرقة من البلاد .

كان الشعب لا يزال يجهل هوية الرجال الذين استولوا على البلاد وأطاحوا بالملك إدريس مثلهم في ذلك مثل إدارة المخابرات الدولية التي أخذت على حين غره ولم يكن بحوزتها أي نوع من المعلومات ولا حتى إشاعات ، أو مجرد تكهنات . وخوفاً على المصير الذي بات ينتظر المصالح الاجنبية الضخمة في البلاد ، عمدت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها الغربيون إلى عدم اتخاذ أي رد فعل مباشر نتيجة لجهلها التام بهوية القادة الجدد ، وعما إذا كانوا موالين أو غير موالين لها ، ومدى ذلك الولاء أو عدمه في الحالين . وغرقت الصحف العالمية بدورها في بحور الجهل والسطحية مخصصة أعمدة مطولة على صدر صفحاتها للتحدث عما يسمى بفكرة التخطيط السوفييتي لهذه الثورة . ولكن المراسلين

العسكريين الأوسع خيالاً نسجوا قصصاً واهية كبيت العنكبوت عن اشتراك وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وعن قيامها بدور المحرض الرئيسي لقلب نظام الحكم . إلا أن هذه القصص كلها لم تكن كافية لإشباع خيال الصحافة العالمية فعمدت إلى ابتداع رواية ثالثة تشير هذه المرة إلى اشتراك حزب البعث في مجريات الأمور على الساحة الليبية .

استمرت الصحافة العالمية تتخبط في حبك رواياتها المتضاربة عن الحدث العظيم الذي وقع في البلاد فقامت الصحافة الغربية بنشر صورة لسعد الدين بو شويرب وتكهنت بأنه الرأس المدبر الذي قام بقيادة الثورة والإستيلاء على مقاليد الحكم في ليبيا. كان سعد الدين بو شويرب عقيداً في الجيش الليبي ولكن علاقاته مع الأسرة المالكة كانت فاترة إلى حدما. لقد كانت أفكاره معتدلة الأمر الذي جعله محل إعجاب وانتباه الضباط الوحدويين الأحرار . وقد قرر في وقت سابق الاستقالة من الجيش والاشتغال في مهنة المحاماة .

وعند ما قامت الثورة كان بو شويرب خارج البلاد ، ولا بد أن يكون اسمه قد وصل إلى مسامع الصحافة الأجنبية عبر محطة الإذاعة الليبية التي استخدمها معمر والضباط الوحدويون الأحرار كوسيلة لإصدار التعليمات وتنسيق حركة الجيش الثوري الذي كان منتشراً عبر الأراضي المترامية الأطراف في البلاد .

وفي واقع الأمر قام الضباط الوحدويون الأحرار باستدعاء سعد الدين بو شويرب للعودة إلى ليبيا في رسالة موجهة إليه عبر المذياع . وقد تلقفت أجهزة الصحافة العالمية المتعطشة إلى معرفة ما يجرى على الساحة الليبية من أحداث مهمة ، خبر إستدعاء أبو شويرب لتنسج قصصها وتقاريرها المطولة عنه . وما أن سمع أبو شويرب النداء الموجه إليه من الضباط الوحدويين الأحرار حتى هرع هو وصالح مسعود بو يصير الذي كان يعيش في المنفى بالقاهرة ، بالعودة إلى ليبيا . تقابل الرجلان في روما وطارا منها إلى تونس واستقلا السيارة من تونس إلى طرابلس لأن المطارات كانت ما زالت مقفلة في البلاد .

وقد عين سعد الدين بو شويرب رئيساً للأركان ، أما صالح بو يصير فقد تقلد فيما بعد منصب وزير الخارجية—وقد استشهد بو يصير مع بقية ضحايا الإرهاب الصهيوني الأعمى عندما كان على متن طائرة البوينج التابعة لشركة الخطوط الجوية

العربية الليبية التي أسقطتها قذائف الطائرات الإسرائيلية المقاتلة عند اقترابها من مطار القاهرة بعد أن ضلت الطائرة خط سيرها وهي تطير فوق أجواء الأراضي العربية المحتلة .

وما أن بدأت الإشاعات تفقد سحرها وتتلاشي حتى هلت أولى بشائر الإعتراف العالمي من بغداد التي أعلنت حكومتها اعترافها بالحكومة الثورية الجديدة في ليبيا بعد ثمان وأربعين ساعة من الإطاحة بالملك ادريس . وقد تبع ذلك أن انهالت الاعترافات بالحكومة الثورية من العواصم العربية الأخرى بما فيها مصر . وحرصاً على الحفاظ على مصالحها التقليدية في البلاد ، لم تجد العواصم الأوروبية بداً من قيامها بالإعتراف على مضض بالحكومة الثورية الجديدة في ليبيا .

ولما زاد إيمان معمر وقناعته بنجاح الثورة . غادر الثكنات العسكرية في بنغازي لمقابلة وفد مصري كان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قد أوفده لمقابلة القادة الشبان الذين نجحوا في دحر النظام الملكي ، استغرقت الزيارة أربعاً وعشرين ساعة . وما أن فتحت المطارات الليبية أمام حركة الملاحة العالمية واستؤنفت الإتصالات الخارجية مع دول العالم . حتي شعر معمر بأن الوقت قد حان لمقابلة الشعب الليبي ليكشف عن هويته وهوية بقية الضباط الوحدويين الأحرار للجماهير الذين قاموا بتفجير الثورة إستجابة للتغيير والتطهير . لقد حان الوقت لمعمر لكي يشرح للشعب الليبي السبب الذي دعاه إلى قلب نظام الحكم الملكي والدور الذي تتوقعه الثورة منهم ليتمكنوا من إحراز استقلال غير مزيف وحرية حقيقية .

لم تكن ليبيا دولة عصرية بسبب ماضيها الاستعماري الذي عاشته ، إلى الحدّ الذي قامت فيه الأمم المتحدة بتصنيفها في إحدى إحصائياتها المتعلقة بالدخل السنوي للفرد من بين مجموعة البلدان الفقيرة جداً على الرغم من اكتشاف النفط في البلاد في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات . وقد جاءت هذه الإحصائية الصادرة عن المنظمة الدولية لتؤكد بما لا يدع مجالاً للشك سوء استغلال وتوزيع ثروات البلاد . كان التوزيع غير العادل لثروات البلاد مجرد حلقة من سلسلة العيوب والمساوئ الكثيرة التي جاءت الثورة لتصحيحها .

تم تشكيل مجلس قيادة الثورة من بين أعضاء اللجنة المركزية للحركة وشرع

المجلس في ممارسة واجباته على الفور ليعطي أولوية للإصلاحات الرئيسية في البلاد فزيدت الأجور وفي بعض الحالات تضاعفت ، وحدد حد أدني للأجر ، وقررت الثورة تقديم المساعدة المستمرة للمسنين والمرضى والمحتاجين . وبدأ في تطبيق نظام الخدمة الاجتماعية وسن التشريعات التي تكفل حقوق العمال لتصبح النواة الأولى لقانون العمل .

ولم يغب عن بال مجلس قيادة الثورة تردي الزراعة والصناعة في البلاد إلى حد كبير نتيجة الممارسات الخاطئة والظالمة لشركات النفط الإحتكارية العاملة في البلاد وقوة الدول التي كانت تمثلها بحيث لم تعر أدني اهتمام يذكر لتحقيق رفاهية الشعب الليبي . وكان كل همها هو مضاعفة أرباحها إلى اقصي قدر ممكن .

إن اهتمام الثورة البالغ بتطوير الصناعة والزراعة في البلاد قد أضاف أعباء جديدة على كاهل القادة الثوريين ووضع البلاد في مسارها الطبيعي نحو خلق دولة عصرية متطورة . كما أولت الثورة اهتماماً ملحوظاً أيضاً للعديد من الموضوعات الأخرى التي برزت أمامها . . . من ضمنها التعليم . كان بناء المدارس العصرية في بلد غير آهل بالسكان ومترامي الأطراف مثل ليبيا وتطوير هذا المرفق الحيوي في المدن الكبيرة والتجمعات السكنية . فلم يقم حكام العهد المباد بإعارة أُدنى اهتمام لتطوير هذا المرفق الحيوي وبالتالي إلى توفير فرص التعليم المتكافيئ والحر إلى ابناء الشعب اليبي .

لهذا السبب أعطى رجال الثورة جل اهتمامهم للنهوض بهذا المرفق وسرعان ما شرع في بناء المدارس العصرية في كافة أرجاء البلاد وإرسال الوحدات التعليمية المتنقلة إلى المناطق النائية بهدف توصيل مرافق التعليم إلى كافة أفراد الشعب ، وبنيت الجامعات لتشجيع أكبر عدد ممكن من الليبيين على مواصلة التعليم العالي بعد إتمام المرحلة الثانوية ورفع شعار مجانية التعليم الأكاديمي لتشجيع المواطنين على تعليم أبنائهم وحثهم على مواصلة تعليمهم الجامعي . كما قامت الثورة بتوزيع الكتب مجاناً على الطلبة بالإضافة .إلى صرف منحة شهرية معقولة لكل طالب جامعي حتى لا يكون عبئاً ثقيلاً على أسرته . وإلى جانب التعليم برزت مشكلة الخدمات الصحية أمام مجلس قيادة الثورة ، ولم يكن التغلب على هذه المشكلة أمراً سهلاً مثلها في ذلك مثل الوضع المزري الذي وصلته الخدمات التعليمية في البلاد . وفي مجال الصحة العمومية ، لم تعر الحكومة الملكية أي اهتمام

نحو الخدمات العلاجية والوقائية لأبناء الشعب العربي الليبي . كانت المستشفيات موجودة في ذلك الوقت في المدن فقط ولكنها كانت بدائية إذا ما قورنت بالمستشفيات التي أنشئت في عهد الثورة . أما المناطق النائية فكانت محرومة تماماً من أي مرفق صحي فانتشرت الأمراض والأوبئة داخل مدن أكواخ الصفيح المنتشرة في ضواحي طرابلس وبنغازي وغيرها من المدن الليبية . كان معدل الوفيات في تصاعد مستمر ومتوسط العمر المتوقع للفرد الليبي قصيراً. وأمام هذا الوضع المزري ، أخذت الثورة تسابق الزمن لإجراء التغييرات الجذرية في مجال الصحة . وشرعت في تطبيق برنامج طموح لتغيير سمعة البلاد وتحويل البلاد إلى دولة معافاة تماماً من الأمراض ، فأقيمت المستشفيات والعيادات المجمعة في كافة أرجائها . لقد أصبحت الثروة النفطية التي كانت تذهب في الماضي إلى جيوب القلة الحاكمة المتسلطة ، تستخدم ولأول مرة في تاريخ البلاد من أجل تحقيق الحاجات الأساسية للشعب ، وفي هذا السياق ، لاستيراد المعدات الطبية الحديثة واستجلاب الأطباء من الخارج وفي نفس الوقت لتشجيع أبناء البلاد على مواصلة دراساتهم العليا ليتمكنوا من إدارة المرافق بالكامل في المستقبل .

ومن المشاكل الملحة التي كان على الثورة ضرورة مجابهتها وايجاد الحلول السريعة لها مشكلة الإسكان . وانطلاقاً من إيمان الثورة بتوفير المسكن الصحي لكل شخص وتمليكه له فقد عملت على تنفيذ برامج إسكانية متعددة لبناء أكبر عدد ممكن من الوحدات السكنية والمنازل للشعب في أقصر فترة ممكنة . ولم تكن البرامج الإسكانية قاصرة على مدينتي طرابلس وبنغازي بل امتدت لتشمل جميع أنحاء البلاد . كانت هذه المساكن تجهز بكافة المتطلبات العصرية ووسائل الراحة قبل أن يتم تسليمها الي المحتاجين . كما كانت الثورة تقوم بمنح القروض العقارية الطويلة الأجل بدون فائدة إلى كل من يرغب في بناء مسكنه . لقد وردت جميع هذه المباديء والقرارات في الإعلان الدستورى الذي أصدره مجلس قيادة الثورة بعد حوالي ثلاثة شهور من قيام الثورة وبالتحديد في الحادي عشر من ديسمبر عام ١٩٦٩ . كان الإعلان تجسيداً حقيقياً لجميع المباديء التي نادت بها الثورة في ذلك الوقت ورسماً للطريق الذي اعتزم قادة البلاد الثوريون انتهاجه ، باستخدام ثروات البلاد في سبيل تحقيق مصالح الشعب . وقد نص الإعلان الدستوري الذي وصف ليبيا بأنها جمهورية عربية حرة ديمقراطية ذات سيادة شعبية على

أهمية إطلاع الشعب الليبي، بصفته جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية، بالعمل الدؤوب نحو تحقيق وحدة عربية شاملة. وقد جاء الإعلان تجسيداً لإيمان الثورة الراسخ بأن الأمة العربية قادرة من خلال وحدة أبنائها وشعوبها فقط على تخطي المحن والظروف العصيبة التي تمر بها نتيجة صراعها التاريخي المستمر مع الصهيونية الموجودة في الأراضي العربية المحتلة وعلى مجابهة الضغوط الإقتصادية التي بدأت تمارس عليها فعلاً نتيجة لتطورات الموقف في منطقة الشرق الأوسط. كما أوضح الإعلان الذي أطلق على ليبيا إسم «الجمهورية العربية الليبية» أن الإسلام هو الدين الرسمي الذي يدل دلالة أكيدة على وعي الثورة وتساهلها نحو معتقدات الآخرين وحرصها على عدم خلق صراعات طائفية وقد مضت الثورة إلى أبعد من ذلك فبدأت تمهد الطريق نحو الانسجام والتآلف والتفاهم.

كما وردت عبارة «التضامن الإجتماعي» في الإعلان الدستوري كأساس للوحدة الوطنية حيث تكون الأسرة فيه ركن المجتمع الذي يقوم على أساس الدين والأخلاق والقومية وكان لا بد من تحقيق الإشتراكية من خلال «مبادئ العدالة الإجتماعية ومنع أي نوع من أنواع الاستغلال». وربما كان ذلك أول إشارة رسمية على أن الثورة كانت تمهد الطريق أمام التعريفات الأشمل للاشتراكية وتضع حجر الأساس للأبعاد العريضة الواسعة للحكم الديمقراطي.

وقد نص الإعلان الدستوري على أن الثورة ستقوم بتحقيق اكتفاء ذاتي في الإنتاج وعدالة في توزيعه وقد كانت هذه أيضاً أول إشارة إلى أن الثورة قد بدأت خلال المدة القصيرة نسبياً من عمرها في تحويل ليبيا إلى مجتمع مكتف ذاتياً ومحقق للعدالة الإجتماعية حتى يمكنه من مقاومة الضغوط الخارجية سياسية كانت أم إقتصادية.

كما نادت الثورة بحل الخلافات الطبقية وإذابتها بالطّرق السلمية وتحقيق الرخاء الإجتماعي في إطار «التراث العربي الإسلامي».

كما تضمن الإعلان حرص الثورة على تحرير الإقتصاد الوطني من التبعية والهيمنة الخارجية وتحويله إلى إقتصاد إنتاجي، واصبحت الملكية العامة أساساً للتنمية ووفرة الإنتاج. وقد تعهد الدستور بكفالة حرية التعبير ضمن حدود المصلحة العامة ومبادئ الثورة. وقد أسيء فهم هذه النقطة بطبيعة الحال وربما أسيء تأويلها عن عمد. في المرحلة المبكرة من عمر الثورة كانت القوى الرجعية

تعمل بلا كلل أكثر من أي وقت مضى في محاولة يائسة لقلب الموازين لصالحها . وكانت الوسيلة الأشد فعالية لتحقيق مآربها تكمن في إساءة تفسير حرية الرأي . وإدراكاً منها لهذا الخطر . فقد كانت الثورة راغبة تماماً في السماح بطرح الآراء الموضوعية الهادفة وفي نفس الوقت كانت غير مستعدة بأن تعرقل الإنجازات العملاقة لصالح الشعب عن طريق السماح بقبول الآراء المضللة والشريرة .

وحرصاً منها على بناء رأي قوي داخل المجتمع . ذلك الرأي الذي لن يكون عرضة للوقوع في الشراك التي تنصبها القوى الرجعية . فقد آمنت الثورة بأن هذه الغاية يمكن تحقيقها فقط من خلال التثقيف السليم لأبناء الشعب أنفسهم . وهكذا نص الإعلان الدستوري على أن التعليم حق مكتسب لكل مواطن ليبي لا يمكن التنازل عنه وأنه سيكون إلزامياً إلى المرحلة الإعدادية. وكان على الثورة أن تقوم من جانبها بتشجيع التعليم من خلال قيامها ببناء المدارس والمعاهد والمؤسسات الثقافية والتعليمية المختلفة . وقد أكدت الثورة على مجانية التعليم وتعهدت بتوفير سبل العناية التامة بالشباب .

كما كانت الثورة مسئولة أيضاً عن وضع الخطط الإقتصادية والإجتماعية والثقافية الشاملة بغية تحقيق أهداف التنمية الإقتصادية .

ولم يكن هناك ثمة شك في السياسة التي كان على الثورة أن تنتهجها حيال القواعد الأجنبية في البلاد . فمنذ أيام دراسته المبكرة في سبها وفيما بعد بالكلية العسكرية دأب معمر القذافي على البوح بآرائه الصريحة التي لا تتغير عن القواعد الأجنبية . لقد كان يرى أنها لا تشكل تهديداً على استقلال الشعب الليبي أو على اقتصاد البلاد فحسب ، بل كانت سيفاً مسلطاً على رقاب جميع أبناء الأمة العربية ومنطقة البحر المتوسط قاطبة . وبعد نجاح ثورة الفاتح من سبتمبر بفترة وجيزة أعلن معمر بكل جرأة وشجاعة «إما أن تستمر الثورة وتزول القواعد الأجنبية أو تستمر القواعد الأجنبية وتزول الثورة » .

كانت السواحل الليبية تستضيف العديد من القواعد العسكرية الأنجلو أمريكية ، حيث كانت الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك خمس قواعد لها على التراب الليبي أهمها قاعدة « هويلس » في ضواحي طرابلس التي كانت من أكبر القواعد الأمريكية خارج المحيط الأطلسي .

أما بريطانيا فقد قامت بترسيخ أقدامها في الجزء الشرقي من ليبيا وكانت أقوى

قواعدها العسكرية موجودة بالعدم وطبرق . ومع ذلك فقد كانت حكومة لندن مصرة على الإحتفاظ بالعديد من المنشآت العسكرية الهامة في مدينة بنغازي والمناطق المحيطة بها .

ولم يغب عن بال الثورة حقيقة مماطلة البريطانيين والأمريكيين بوجه خاص في الجلاء عن تراب الوطن وربما يثيرون متاعب جمة للثورة . لقد كان وجودهم داخل البلاد خطراً على الثورة خصوصاً وقد أثبتت الأحداث في أماكن أخرى من العالم أنه ما أن تطأ أقدام المستعمر أرضاً أجنبية حتى يصبح من الصعب تماماً زحزحتها عن مواضعها . في ذلك الوقت . كانت رحى الحرب الفيتنامية دائرة في فيتنام وكان الشعب الفيتنامي لا يزال بعد مضي سنوات عديدة يخوض قتالاً مريراً وبطولياً متكبداً خسائر مادية وبشرية جسيمة إلا أن ذلك لم يثنه عن مواصلة الكفاح لتحقيق أهداف الثورة المتجسدة في الجلاء التام للجيوش الأجنبية عن أراضيهم . وقد برهن الأمريكيون في أماكن أخرى من العالم على أنهم ليسوا بالجوزة الهشة التي يسهل كسرها . في كوبا ، على سبيل المثال ، مازال الأمريكيون يحتفظون لهم بقاعدة في وسط البلاد بالرغم من بلاء شعبها بلاءً حسناً في مقارعة الأمريكيين وقاموا بانشاء نظام حكم مناوئ للأمريكيين على مرمى حجر من الشواطئ الامريكية .

ومثلما كانت فيتنام وكوبا مهمة للولايات المتحدة وحلفائها . كذلك كانت السواحل الليبية لا تقدر بثمن نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام للأمركيين والبريطانيين وخصوصاً في إطار الموقف السائد آنذاك في إفريقيا والبحر المتوسط والشرق الأوسط .

وفي الحقيقة فإنه لم يعد سراً أن الجنود الصهاينة كانوا يتلقون تدريباتهم بزي أمريكي داخل القواعد العسكرية الأمريكية في ليبيا استعداداً لحرب عام ١٩٦٧ . كذلك لم يعد سراً أن البريطانيين قد استخدموا قواعدهم في طبرق أثناء العدوان الثلاثي على مصر خلال أزمة السويس في أواخر الخمسينات .

لقد بات واضحاً أن ليبيا لن تتساهل بعد اليوم في قبول القواعد والجيوش الأجنبية فوق ترابها لأن وجودها يتعارض تماماً مع آمال ومبادئ الثورة . فكيف تكون الثورة نصيراً وراعية للوحدة العربية في الوقت الذي تسمح فيه بأن تستخدم أراضيها كقاعدة انطلاق وهجوم ضد الدول العربية الأخرى ؟

وإلى جانب ذلك فلم يكن هناك ثمة شك بالرغم من الإستقلال المزعوم الذي منحته ليبيا عام ١٩٥٢ ، في أن الأمريكيين والبريطانيين كانوا يحتلون البلاد احتلالاً فعليا إذ كانوا يملون على النظام الحاكم السياسة الداخلية والخارجية ويتصاعد تفوذهم باستمرار داخل وخارج حدود البلاد .

وزيادة على ذلك، فقد كان التهديد الذي تمثله القواعد الأجنبية للاقتصاد القومي نذير شؤم ولا يمكن لغير الكفيف ألا يبصر الكتابة على الجدران . . . «إن القوات الأجنبية في ليبيا كانت موجودة هنا لحماية المصالح النفطية للولايات المتحدة وأوروبا الغربية وأنها لم توجد قط لحماية حقوق الشعب الليبي والمحافظة عليها . فبعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر بفترة وجيزة ، طالب الشعب الليبي مجلس قيادة الثورة بإغلاق القواعد العسكرية وإجلاء جميع الجيوش الأجنبية .

وإيماناً منها بالتأييد القوي الذي تحظى به الثورة من الشعب ، فقد أدركت الثورة أنه في حالة قيام الحكومتين الأمريكية والبريطانية بعدم الإذعان لإرادة الشعب في إجلاء القواعد . فإنه لن يكون أمام الثورة خيار آخر غير تكاتف قوى الشعب والثورة لإرغام الأمريكيين والبريطانيين على الإجلاء . فبدأت رحلة المفاوضات التي كان يقودها عبد السلام جلود مع الحكومتين الأمركية والبريطانية . وفي وقت لا حق صرح العقيد معمر القذافي بما يلي : «لقد أدرك البريطانيون والأمريكيون أمام تصميمنا أنهم أمام خيارين لا ثالث لهما فإما مواجهة المقاومة الشعبية المستمرة أو الموافقة على الجلاء الفوري» . تدارس الأمريكيون الموقف ووجدوا أن من صالحهم الجلاء فوراً عن ليبيا فقد كانوا مضطرين لإتخاذ هذا الموقف أمام إصرار القادة الجدد الذين كانوا يحظون بتأييد الشعب ، هذا الشعب الذي يستطيع بدوره أن يحيل جميع البلاد إلى جحيم مستعر بالمقاومة الشعبية لتحرير الأرض الليبية .

وقد تم إجلاء القواعد البريطانية في الثامن والعشرين من أبريل عام ١٩٧٠ وحذا الأمريكيون حذوهم وأجليت قواعدهم بعد ذلك بفترة قصيرة في الحادي عشر من يونيو من نفس العام . وبالرغم من صعوبة مرحلة المفاوضات إلا أن الشعب الليبي نجح في إحراز نصر آخر في فترة قصيرة نسبيا — يستغرق في العادة ، بالنسبة للدول النامية سنوات من الصراع الحاد وربما بعد سقوط العديد من الضحايا وتكبد الخسائر المادية في سبيل تحقيقه .

وما أن تم إجلاء القواعد العسكرية البريطانية والأمريكية وإجلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد حتى عكف قادة الثورة على بحث أنسب السبل للاستفادة من القواعد التي تم الإجلاء عنها لخدمة مصالح الشعب الليبي والأمة العربية جمعاء . كما قامت الثورة بتغيير أسماء القواعد فأطلق على قاعدة هويلس إسم قاعدة « عقبة بن نافع » وقاعدة « الوطية » اسم قاعدة « الحادي عشر من يونيو » تخليداً لذكرى ذلك اليوم الذي استطاع فيه الليبيون من خلال تصميمهم الراسخ الذي لا يلين تحرير أنفسهم من تهديد الوجود الأمريكي المسلح في البلاد .

كما سميت قاعدة العدم البريطانية باسم قاعدة « جمال عبد الناصر » ، فبعد أن كانت هذه القاعدة تستخدم في عام ١٩٦٧ كرأس رمح ضد الشعب المصري أثناء كفاحه المستمر ضد العدوان الصهيوني الغاشم ، أصبحت تستخدم في عام ١٩٧٣ للدفاع عن الدول العربية التي لاتزال تكافح ضد أعداء الأمة العربية .

وهكذا أصبحت هذه القواعد التي كانت في الماضي مصدر خطر مباشر على مصالح الأمة العربية درعاً واقياً للأمة العربية . وتأكيداً منها على زيادة تأييدها للقضية العربية فقد قامت الثورة بوضع قاعدة جمال عبد الناصر تحت التصرف التام للشعب المصري خلال حرب رمضان عام ١٩٧٣ وأرسلت أعداداً كبيرة من الطائرات الحربية والجنود للقتال جنباً إلى جنب مع الجيش المصري . لقد ترك رحيل عبد الناصر وقعاً قاسياً على الشعب المصري بوجه خاص وعلى الأمة العربية بوجه عام . لقد جاء رحيل عبد الناصر الذي كان متفانياً في قضية الوحدة العربية وتحرير الأراضي العربية المحتلة في وقت عصيب ومتوتر في منطقة الشرق الأوسط . فقد أدرك عبد الناصر قبل رحيله السمات الثورية الصادقة التي يتحلى بها العقيد معمر القذافي مما دفعه على الفور إلى أن يخلع عليه لقب الأمين الجديد الذي سيخلفه للقومية العربية وانه سيكون الرجل الذي سيقود نضال الأمة العربية في سبيل الوحدة العربية .

وبالطبع لم يكن عبد الناصر يتصور التغيير الخطير الذي ستؤول إليه حال البلاد بعد بضع سنوات على رحيله . فلم يكن خليفته ونائبه أنور السادات يتمتع بأي صفة من الصفات التي كان يتحلى بها الزعيم الراحل على مستوى الوطن العربي والعالم . كان السادات عميل النازية السابق والمتواطئ مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ، حسب ما جاء في مذكراته واعترف بذلك

شخصيا ، اداة طيعة ومطية سهلة الركوب في يد القوات الصهيونية .

لقد جاءت البادرة الخطيرة الأولي التي تكشف عن دوره المتواطئ في مؤامرة بيع القضية الفلسطينية ـــ تلك المؤامرة التي تم الإعداد لها باحكام في أوائل عام ١٩٧٣ بعد أن نجحت الجيوش العربية ومن بينها الجيش الليبي عبور قناة السويس واسترجاع بعض المواقع المحتلة في سيناء ـــ عندما قام السادات بالتوقيع على اتفاقية وقف إطلاق النار مع الصهاينة في الكيلومتر ١٠١ على طريق القاهرة ـــ السويس . لقد ساهم السادات بفعلته هذه في تمكين الصهاينة من أن يكسبوا على طاولة المفاوضات الغادرة والخداع السياسي ـــ ما عجزوا عن كسبه في ميدان القتال .

قوبل قرار السادات بموجة عارمة من الرفض والاستنكار على مستوى العالم العربي بعد أن قام العقيد معمر القذافي بتوجيه انتقاد شديد اللهجة لهذا القرار الذي كان بداية للتدهور الشديد في العلاقات بين النظام المصري والثورة الليبية .

وإمعانا في تماديه العلني والسافر في الخيانة قام السادات مؤخراً بأداء زيارة رسمية إلى فلسطين المحتلة واعترف بالعدو الصهيوني موجهاً بذلك صفعة قوية وطعنة من الخلف لنضال الشعب الفلسطيني . وفي نفس الوقت تدهور الموقف داخل مصر بنسب متفاوته لم يسبق لها مثيل فزاد عدد العاطلين عن العمل وزادت بالتالي موجة الغليان الشعبي وامتلأت السجون بأولئك المخلصين الذين عارضوا سياسة السادات الخيانية واستمرت المعارضة الشعبية للسادات لتتخذ صورة الإضرابات الشاملة في طول البلاد وعرضها .

ولكن السادات استمر بدون رادع حقيقي ، تحركه المصالح الأمريكية والصهيونية كيفما تريد إلى أن قام بتوقيع إتفاقية كامب ديفيد الخيانية التى تهدف أمريكا من ورائها إلى القضاء تماما على الثورة الفلسطينية وإلى تحقيق خطوة عملية أخرى إلى الأمام نحو تنفيذ المخططات الصهيونية الرامية إلى اقامة ما يسمى بدولة إسرائيل الكبرى الممتدة من النيل في مصر إلى الفرات في العراق وإلى المدينة المنورة في السعودية .

لقد تجاوز السادات حدوده وأصبح من الميئوس إصلاحه مما دفع معمر القذافي إلى قيادة المسيرة لمجابهة المخاطر والتحديات التي نجمت عن سياسة السادات الخيانية . لقد تدهورت العلاقات بين النظام المصري والثورة الليبية وتفاقمت إلى

حد العدوان المسلح عندما قامت مصر بمحاولة لغزو الأطراف الشرقية من البلاد .

وقد أبي القدر إلا أن يتخذ مسلكاً غريباً في غضون السنوات القليلة التي تفصل بين قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢ واليوم الحالي . فبينما كانت ليبيا في أيام عبد الناصر في يد القوات الاستعمارية تستخدم كرأس حربة ضد الأمة العربية ، إذا بمصر السادات تقوم بتنفيذ نفس الدور الغاشم الغادر وفي نفس الوقت ظهر العقيد معمر القذافي على رأس القادة العرب في النضال المستمر للأمة العربية والشعب الفلسطيني .

ولم يكن إجلاء القواعد عن ليبيا يعني انتهاء الصعاب التي تواجهها الثورة ، فبرزت أمامها مشكلة أخرى متمثلة في الجالية الإيطالية الفاشية التي كانت موجودة في البلاد. لقد لعبت إيطاليا الفاشية دوراً من أقذر الأدوار في البلاد بالرغم من أن التاريخ الغربي قام لسبب أو لآخر بطمس معالم الصورة المخزية والأعمال الدنيئة التي خلفها الإحتلال الفاشي لليبيا. كانت أيام الإحتلال الإيطالي لليبيا من أسوأ الأيام في تاريخ الشعب الليبي، مورست خلالها القسوة وأساليب القهر والاضطهاد التي لا يمكن تصورها فعندما نجح الإيطاليون في احتلال ليبيا جلبوا معهم إلى البلاد أساليب العنف والتعذيب التي لا يضاهيها سوى الإرهاب الذي مارسته ألمانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية . وبالرغم من نجاح الإيطاليين إلى حد ما في تثبيت أقدامهم في بعض الأماكن مثل مدينة طرابلس ، وقيام الدكتاتور الإيطالي في ذلك الوقت بينيتو موسيليني بزيارة رسمية إلى ليبيا في محاولة بائسة لكسب ثقة الشعب الليبي ، إلا أن الشعور بالرضا والمحبة كان مفقوداً بين القاهر والمقهور . ولما انطلق الإيطاليون يمارسون صنوف التعذيب الوحشية لإرغام الشعب الليبي على الخضوع لنزواتهم ، تصاعدت حركة المقاومة الشعبية ضد الإيطاليين . شكلت خلايا الثورة في كافة أرجاء البلاد لمقاومة الاحتلال الايطالي البغيض وقض مضاجع الغزاة . وخلال هذه الفترة برز من وسط صفوف المجاهدين قائد شعبي عظيم هو شيخ المجاهدين الشهداء عمر المختار الذي كان رمزاً للمقاومة الشعبية. لقد استطاع هذا القائد العظيم جمع قوى الثورة وتكثيفها ضد الإحتلال الإيطالي وظل يقاتل بشجاعة وعزيمة إلى أن تم إعدامه شنقاً على يد القوات الفاشية الغاصبة . في تلك الأوقات العصيبة ، كان الليبيون يخضعون لأقسى صنوف التعذيب الوحشية في معسكرات الإعتقال وفي مقدمتها

معسكر العقيلة الذي كان وصمة عار في تاريخ إيطاليا الفاشية ومن أسوأ المعسكرات التي شهدها التاريخ حتى يومنا هذا . لقد زج الإيطاليون بالآلاف المؤلفة من الليبيين شيوخاً ونساء وأطفالا داخل أسلاك هذا المعسكر . كانت المعاملة الوحشية التي تمارسها إيطاليا ضد الليبيين تحمل الآخرين على الاعتقاد بأن إيطاليا كانت تهدف إلى إبادة الشعب الليبي وخصوصاً اثناء الموجة الفاشية التي كانت تجتاح إيطاليا في ذلك الوقت وبعد فشل الحملات الإيطالية المتكررة ضد الحبشة وفي أماكن أخرى من العالم .

وبالرغم من ارتكابها للمجازر وتكبيل الشعب الليبي بالأصفاد وبكافة صنوف التعذيب إلا أن نظام الحكم الملكي قد سمح لهم بامتصاص خيرات البلاد واحتكار التجارة الداخلية والخارجية ورضي لنفسه العيش في رغد وهناء .

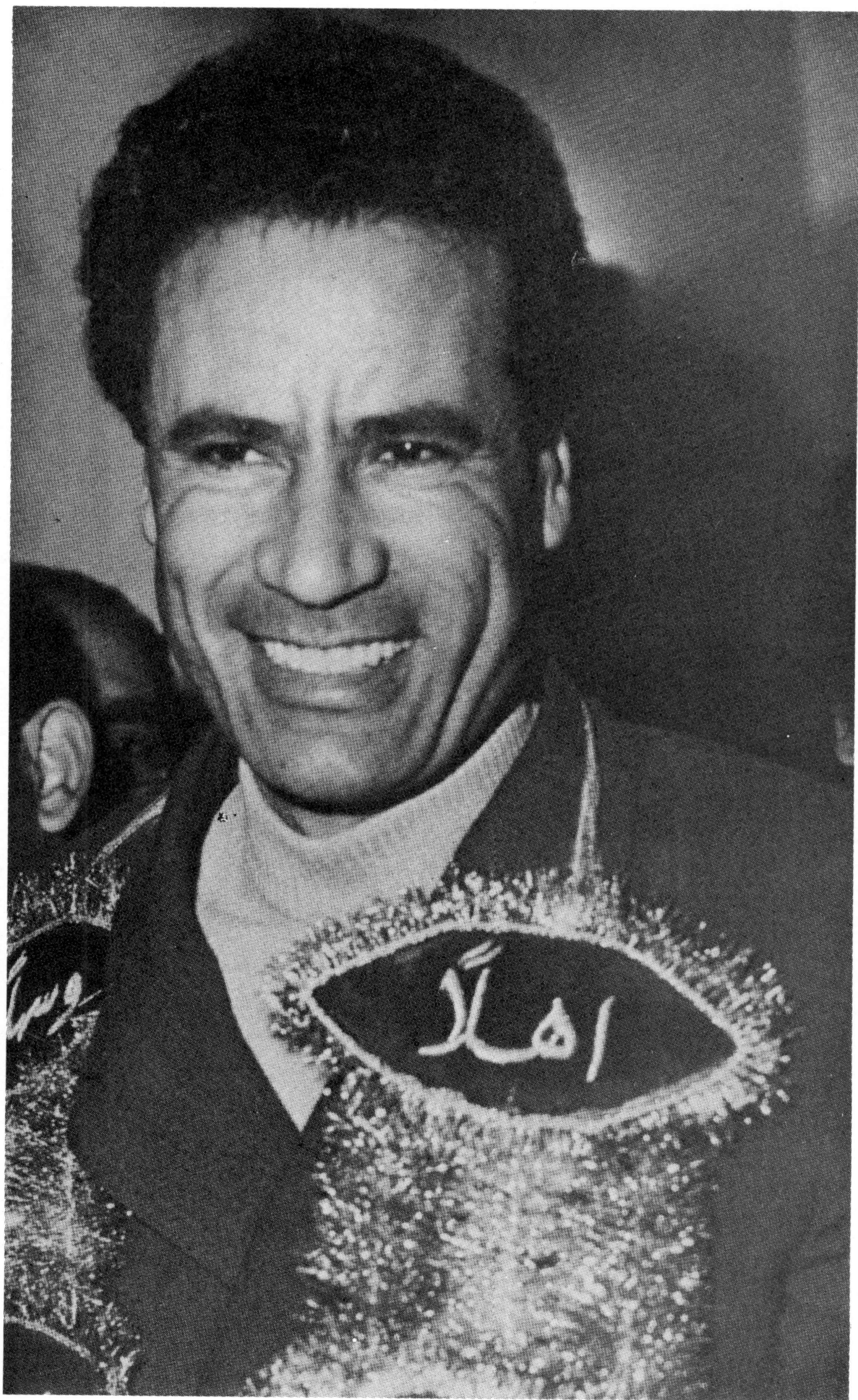
وبعد الفاتح من سبتمبر عام ١٩٦٩ لم يكن هناك ثمة شك في أن الثورة لن تستمر في التساهل نحو الوجود الفاشي . كانت الجالية الإيطالية تسيطر فعلياً على تجارة البلاد إلى جانب سيطرتها على مساحات شاسعة من البلاد . كما كانت حياة الرخاء التي يعيشها أفراد الجالية الفاشية تقوم على أساس استغلال الشعب الليبي . وكما حدث بالنسبة لإجلاء القواعد الأجنبية قامت الثورة بناء على طلب الشعب باتخاذ قرار بشأن إنهاء وجود الجالية الفاشية في البلاد ، وتم طرد جميع أفراد هذه الجالية من ليبيا .

وفي نفس الوقت . كان قادة الثورة الشبان منهمكين في إجراء مفاوضات صعبة مع شركات الإحتكارات النفطية التي كانت تهيمن على اقتصاد البلاد وتجني أرباحاً من خلال عمليات الإستغلال البشع للثروة النفطية وتحويل معظم هذه الأموال خارج البلاد بالرغم من حاجة البلاد الملحة لهذه الأموال لاستثمارها في مشاريع التنمية الداخلية . وكان لا بد أيضاً من تأميم المصارف وشركات التأمين .

كان عمر الثورة لم يتعد بضعة أشهر عندما أصبح الشعب الليبي يتخذ خطوات إيجابية لينال حريته واستقلاله الحقيقي وذلك للمرة الأولى خلال تاريخه الطويل . لقد أصبح الشعب أمام مستقبل جديد اختطته الثورة لإخراج الناس من حياة الظلم والعقوبات الجمة التي كانوا يعانون من ويلاتها في الماضي .

وفي السنوات القليلة التي أعقبت قيام الثورة. واصلت الثورة الليبية تحقيق

الإصلاحات السياسية والإقتصادية والإجتماعية مع التزامها في الوقت نفسه بتأهيل الشعب الليبي للسيطرة تدريجياً على مقاليد الحكم في البلاد .



سنة ١٩٧٤ ـــ معمر القذافي في الباكستان حيث عانقت الملايين ثورة الفاتح وتوجهاتها الإسلامية .

حسن يوسف الدويشي

الجزء الثالث

نظام جديد للحكم

كان وليد ، ابن رجل البادية الطاعن في السن الذي أشير إليه في الفصل الأول من هذا الكتاب ، إسما من صنع الخيال قصد منه تصوير مشاعر الجيل القديم والجديد عند صدور قرار «إعلان سلطة الشعب» ، ذلك الإعلان التاريخي الذي أقره مؤتمر الشعب العام في الثاني من مارس عام ١٩٧٧ .

ربما يكون هذا من نسج الخيال ولكن «إعلان سلطة الشعب» بات حقيقة ملموسة ساطعة في هذا البلد الذي يمارس أهله الآن نظاماً فريداً وجديداً للحكم . إن هذا النظام الجديد الذي استمدت منه ليبيا إسم «الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية» . يتوقف إستيعاب وفهم الناس لمضمونه على مدى استعدادهم ونظرتهم ، إيجابية كانت أم سلبية ، تجاه هذه التجربة الفريدة الرائدة للحكم .

كانت الأيام المبكرة التي عاشها معمر القذافي بمدرسة سبها وبالكلية العسكرية والسنون الطوال التي قضاها في الإعداد والتخطيط للثورة التي تفجرت في صبيحة الفاتح من سبتمبر عام ١٩٦٩ ، قد زادته إيماناً لا يتزعزع بأن السلطة لا يمكن أن تمارس بالنيابة عن الشعب وأنه لا بد من قيام الشعب بممارستها بنفسه . وبعبارة أخرى ، لم يكن في نية معمر أبدا أن يقوم بوضع السلطة في يد القلة ولكنه كان يرى على العكس من ذلك تماما ، ضرورة استمرار الثورة التي ستؤدي في نهاية المطاف إلى القضاء على مركزية الحكم .

فبعد الإطاحة بالملكية وإجراء الإصلاحات الإجتماعية وسن القوانين العمالية التي تحمي مصالح العمال وتهدف إلى الرفع من مستوى معيشتهم وطرد القواعد الأجنبية وتأميم شركات النفط المتعددة الجنسية والمؤسسات المالية الأخرى في البلاد . عمد العقيد معمر القذافي لتحريك عجلة التجربة السياسية التي وضعته ،

بعد سنوات قليلة في مصاف القادة العالميين وجعلت بلاده محط أنظار الدعاية المغرضة على الصعيدين الداخلي والخارجي . فما أن بدأت ليبيا تخرج من دائرة الفوضى السياسية والإقتصادية والاجتماعية وتسير حثيثاً نحو تحقيق برامج التنمية الشاملة بسرعة مذهلة لم يسبق لها مثيل حتى أصبح الخطر المتمثل في رد فعل الطبقة الرجعية البيروقراطية يشكل تهديداً مباشراً ومعوقاً لمسيرة الثورة .

إن التجربة الجديدة التي نادى بها العقيد القذافي لمفهوم الإشتراكية لم ترق رجال الأعمال المحليين بالرغم من إثرائهم الفاحش نتيجة لبرامج التنمية المكثفة الواسعة ولأصحاب المصالح الأجنبية الذين تضايقوا بطبيعة الحال من عدم الإستمرار في ممارسة أساليب الاستغلال المشينة لخيرات البلاد ومصادرها الطبيعية .

وانطلاقاً من إيمانه القوى بأن الثورة جاءت استجابة لنداء الشعب وتحقيقاً لمصالحه فقد أدرك معمر أنه لن يسمح للقلة بتعطيل وإعاقة مستقبل الكثرة ، وأحس أيضاً بأن على جميع فئات الشعب أن تصبح جزءاً من الثورة وأن تتحمل مسئوليتها الثورية وتدافع عن المكتسبات الثورية . بدأت المؤسسات التعليمية تنفض عنها غبار الماضي إلا أنها كانت عرضة أو ربما فريسة سهلة أمام القوى الرجعية لبث سمومها من خلالها ، تلك القوى التي كانت لا تزال موجودة في البلاد تمارس أساليب اللامبالاة والبيروقراطية وهي تخبئ رؤوسها البشعة داخل مؤسسات الخدمة المدنية والمؤسسات العامة الاخرى . لقد بدا الموقف لمعمر كما لو أن حركة منظمة قد بدأت تعمل لفصل الشعب عن الثورة عن طريق أولئك الذين كان واجبهم الحقيقي هو تثوير الشعب . وعلى النقيض من ذلك راح هؤلاء الناس يعزلون الشعب عن الثورة . قرر معمر اتخاذ خطوة جريئة إلى الأمام عندما قام في الخامس عشر من أبريل عام ١٩٧٣ بإلقاء خطابه التاريخي في مدينة زوارة حيث أعلن فيه إجراء سلسلة من التغييرات الداخلية قصد من ورائها توجيه لطمة عنيفة للعابثين بالثورة وفي نفس الوقت لوضع الشعب على الدرب الصحيح للثورة من جديد حتى لا يحيد عنه . شرع معمر يسرد عيوب ومطامع أعداء الثورة للجماهير الغفيرة التي احتشدت هناك مبيناً لهم الطرق الكفيلة للقضاء على هذه العيوب وأعلن للجماهير في النهاية بأنها إذا لم تكن مستعدة لتحمل مسئولياتها الثورية والتشمير عن سواعدها والمساهمة في دفع عجلة الثورة إلى الأمام فإن الثورة

ستفشل لا محالة . وقد أوضح لهم أنه لا يرضى لنفسه أن يكون طرفاً في ثورة فاشلة وهدد بالإستقالة إذا لم ينهض الشعب ويلعب دوره التاريخي .

كان هذا الخطاب التاريخي الذي اعتبر الخطوة العملية الأولى للثورة نحو إيجاد نظام جديد للحكم والذي يجري تطبيقه حالياً على أرض الجماهيرية ، قد وجد صدى طيباً وتجاوباً واعياً لدى الجماهير الثورية في طول البلاد وعرضها . تحدث القذافي في هذا الخطاب عن الثورة الشعبية وعن برنامج من خمس نقاط وكان من بين ما تضمنته هذه النقاط حث الشعب على تكوين لجان شعبية والسيطرة على مقاليد الحكم في البلاد . في هذا الخطاب التاريخي من حياة الشعب الليبي ، قام العقيد بدعوة الشعب الليبي إلى تشكيل هذه اللجان الشعبية داخل الموانئ والمطارات والإدارات . . . داخل كل مدرسة ومستشفى ، داخل المصانع وفي جميع أماكن العمل . لقد دعاهم إلى ضرورة إنشاء اللجان الشعبية داخل الإدارات الحكومية وشركات النفط وكل مؤسسة عامة . لقد تم الآن تسليم السلطة للشعب وما على الشعب إلا أن يقوم بممارسة هذه السلطة بنفسه بعد هذا الخطاب .

وبطبيعة الحال ، لم تكن الإستجابة فورية ، شأنها في ذلك شأن أي تجربة جديدة . ولكن ما أن قام الطلاب بجامعة قار يونس باتخاذ زمام المبادرة وإنشاء أول لجنة شعبية بها، حتى تنادت الجماهير الشعبية لتشكيل لجانها بسرعة مذهلة ، وما أن فرغ من تشكيل اللجان حتى بدأت في إصدار قراراتها الثورية التي كانت حكراً في الماضي على الوزراء . ولم يتوقف الانتقاد وأساليب الدعاية المضللة الخارجية ضد هذه التجربة الجديدة للحكم ، ولكن معمر دحض جميع حججهم وافتراءاتهم ومضى قدما غير مكترث لما يتشدقون به .

طالب معمر بإلغاء جميع التشريعات الموجودة في البلاد خصوصاً وأن القوانين التي سنّت في الماضي كانت تهدف إلى حماية مصالح المملكة الليبية وكانت مكرسة لحماية نظام حكم يسعى جاهداً لاستغلال الشعب ، ولا يمكن لها بأي حال من الأحوال أن تحمي مصالح الثورة الليبية . كان لا بد من وضع حد لبيروقراطية الجهات الإدارية وعدم إكتراثها ، وإجراء حركة تطهير واسعة لتصفية أعداء الثورة . وكان لا بد أيضاً من إعطاء الحرية ، كل الحرية ، لجماهير الشعب الليبي إذ لا حرية أبداً لأعداء الثورة .

وقد اعتبر الخامس عشر من أبريل عام ١٩٧٣ في تاريخ ليبيا المعاصر تاريخ ميلاد الثورة الشعبية .

وما أن شرعت البلاد في تطبيق نظام جديد للحكم عن طريق اللجان الشعبية حتى قام العقيد القذافي بطرح نظريته العالمية الثالثة في ندوة باريس وفيما بعد عبر مؤتمرات أخرى داخل وخارج ليبيا كبديل للنظريتين العالميتين الرأسمالية والشيوعية متضمنة حلولاً ناجعة لمشاكل البشرية قاطبة وقائمة على أساس مبادئ العدالة الإجتماعية والقيم الإنسانية .

وفي نفس الوقت دعت الحاجة إلى إعطاء تعريف أكثر شمولية ووضوحاً للثورة الشعبية فمن الناحية الإدارية كانت البلاد تدار عن طريق اللجان الشعبية ، أما من الناحية السياسية فالقرارات مازالت تصدر بالنيابة عن الشعب . وهكذا جاء الآن دور المؤتمرات الشعبية لتأخذ مكان الصدارة في البلاد بعد أن تم تهيئة اللجان الشعبية لتصبح الأداة التنفيذية لنظام الحكم الجديد الذي كان الشعب الليبي قاب قوسين أو أدني من بدء تطبيقه الفعلي ، بينما كانت المؤتمرات الشعبية معدَّة لتكون الشرايين السياسية للثورة .

وهكذا، أخذ الشعب الليبي يسير تدريجياً نحو آفاق جديدة لم تحدد معالمها إلا في الثاني من مارس عام ١٩٧٧ حين أعلن عن قيام «السلطة الشعبية» أو حق الشعب في أن يحكم نفسه بنفسه . ففي الفصل الأول من الكتاب الأخضر يتحدث العقيد عن نظام الحكم الجديد هذا وعن حل مشكلة الديمقراطية . أوضح العقيد أنه لا نيابة عن الشعب وأن المجالس النيابيةوالأشكال الأخرى للحكم ما هي في حقيقة الأمر إلا تشويه بالغ للديمقراطية . وقد شرح لنا كيفية قيام الأحزاب السياسية بالإثراء على حساب الشعب لأنها ما أن تصل إلى السلطة حتى تتصارع فيما بينها على احتكار السلطة لخدمة مصالحها متجاهلة بذلك مصالح الشعب الذي أمدها بهذه السلطة . وقد بين العقيد أن الحلّ يتمثل في إعطاء السلطة للشعب وليس لأحد سواه . فلا يمكن أن توجد سلطة أخرى سوى سلطة الشعب التي يستطيع ممارستها فقط عن طريق اللجان الشعبية والمؤتمرات الشعبية .

كان إعلان قيام سلطة الشعب في واقع الأمر التنفيذ العملي للأطروحات التي نادى بها الكتاب الأخضر . وبالإضافة إلى ذلك ، يرى العقيد القذافي ضرورة أن

يكون الشعب هو السيد على ثروته وألا يركن إلى أى شخص آخر حتى ولا على المجتمع نفسه لتحقيق حاجياته الضرورية . كما ينص الفصل الثاني من الكتاب الأخضر على أن الشعب مسئول عن حماية منجزاته الثورية ومبادئه وهذا يعني ألا يعتمد الشعب على جزء من أفراد المجتمع أي على القوات المسلحة في حماية ثورته وذلك لسبب بسيط هو أن الثورة لم تقم من أجل فئة معينة من فئات الشعب بل قامت لمصلحة كل الشعب الليبي . لهذا ، كان الواجب يحتم على الشعب أن يمتلك السلاح للدفاع عن مكاسبه الثورية .

ويمكن القول بأن النظام الجديد للحكم في الجماهيرية يرتكز أساساً على ثلاثة مبادئ رئيسية وهي :

أولاً : أن تكون السلطة بيد الشعب لكي يتمكن الشعب من حكم نفسه بنفسه .

ثانياً : أن يمتلك الشعب ثروته ليتمكن من إشباع حاجاته الأساسية ومن إقامة نظام إجتماعي عادل .

ثالثاً : أن يمتلك الشعب السلاح للدفاع عن الثورة ومنجزاتها ومبادئها وإقرار العدل والسلام .

لقد انقضت الآن أكثر من عشر سنوات على الفاتح من ١٩٦٩ . . . يوم الإطاحة بالنظام الملكي وسبقتها عشر سنوات أخرى من التخطيط المتواصل لبلوغ هذه الغاية . وقد تناول هذا الكتاب بشكل رئيسي أحداث العشر سنوات التي سبقت قيام الثورة . وستكون الحقبة الزمنية الأخرى التي تبدأ مباشرة بعد الفاتح من سبتمبر عام ١٩٦٩ مروراً بخطاب زوارة عام ١٩٧٣ وحتى خطاب سبها عام ١٩٧٧ ، موضوعاً لكتاب آخر .

فردريك موسكات



الجماهير رجالاً ونساءً تعانق الثورة . . بعد يوم واحد من قيامها .



ان احتمال تدخل قوات اجنبية في البلاد كان يشغل دائما بال معمر ويؤرقه . واستبعد اي هجوم على قاعدة « هويلس » ما لم يدفع الاميركيون انفسهم الى ذلك ، لكن لو حدث تدخل مسلح من جانب القوات الاميركية تعين اتخاذ ما يمكن من سحق المقاومة ، فأي تحرك للقوات من قاعدة « هويلس » كان لا بد وان يواجهه بالقوة .

قصة تروى ببساطة ...

ان قيام ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ وانطلاق الضباط الاحرار بقيادة ابن البدوي معمر القذافي ، يعني بالنسبة لبلد فتي مثل ليبيا ، بين ما يعني ، نهاية عهد طويل من الاستعمار .

ويندر ان تشير الصحافة العالمية بكلمات طيبة الى الزعيم الليبي ، لسبب بسيط ، هو ان آراءه واعماله تهدف ، اولا واخيرا ، الى تحقيق ما فيه خير الامة العربية .. وهذا معناه ، بطبيعة الحال ، الوقوف بوجه شعوب وافراد كانت ايديهم قد اطلقت ، من قبل ، لنهب ثروة النفط وغيره من الثروات الطبيعية الكامنة في باطن الارض الليبية .

اما فريدريك موسكات الذي طاف بأرجاء العالم ، فهو ممن يترددون بانتظام على شمالي افريقيا ولا سيما ليبيا ، حيث اتاحت له الخيوط الاولى لقصته الفرصة ، بل وشجعته على ان يخوض لاول مرة ، تجربة الكتابة عن حقائق واقعية لثورة حقيقية .

وهذه قصة رواها مؤلفها ببساطة ، وزادها عمقا بما اورده من تفاصيل وصور ، تجعل منها عملا يبذ ما عداه في هذا المضمار . وقد افلح فريدريك موسكات في ان لا يدع خياله او جراته الصحفية ان تؤثر على الحقائق الواقعية للثورة .

لقد تطلب هذا العمل وقتا طويلا من البحث والاجتماعات واللقاءات مع الذين خططوا للثورة وقاموا بتفجيرها ، بما فيهم معمر القذافي نفسه ..

قصة يرويها صحفي ، عن تغيير تاريخي لم يعد سرا غامضا امام هواة القصة ، الذين يغوصون في اعماقها بحثا عن لا شيء سوى التامل والتكهن .

شارلز فلورس